

امرأة في الصحراء

تأليف أوفوريلو دي بلانزاك

ترجمة عبد الفتاح الزبيدي



دار المعارف بمصر

امراة فى الثلاثين

تأليف

أوتوريه رى بلزاق

ترجمة

عبد الفتاح الدينى



دار المعارف بمصر

المقدمة

الروائي العظيم

يعد أفودريه دى بلزك بين أشهر كتاب الرواية قاطبة ، فعلى يديه اكتمل تحول الرواية من مجرد « حكاية » أو سرد لأحداث حقيقية أو خيالية إلى بناء فني متكامل يزخر بالحياة والأحداث . ويخضع لمعايير فنية واضحة . وهو لم يفعل ذلك كما يفعل النقاد عن طريق صياغة النظريات ، وإنما صنعه عملاً عن طريق عشرات الروايات التي كتبها خلال حياته التي لم تزد على واحد وخمسين عاماً . وليس أدل على منزلته الأدبية من أن أعماله قد تخطت منذ أمد بعيد إطار الأدب الفرنسي ، وتقلت إلى الكثير من لغات البشر . فهو إلى جوار شكسبير وديكنز أكثر الأدباء نشرًا في مختلف اللغات . ومن الغريب أن تفتقر المكتبة العربية إلى معظم مؤلفاته .

وقد ولد الكاتب الفرنسي الكبير في العشرين من مايو ١٧٩٩ ، نفس السنة التي عاد فيها نابليون من حملته على مصر ، أي أنه ولد عشية إعلان نابليون نفسه إمبراطوراً على الفرنسيين . وقد مات في الثامن عشر من شهر أغسطس ١٨٥١ عشية إعلان

عبد الله بن عبد العزيز

BALZAC

LA FEMME DE TRENTE ANS

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كود النشر النيل - القاهرة ج . ع . م .

لويس نابليون ، ابن أخى بوناپورت نفسه ، إمبراطوراً من جديد .
وتخلل تلك الخمسين عاماً شهدت فرنسا انهيار الإمبراطورية الأولى ،
 وإعادة الملكية في ١٨١٥ ، ثم ثورة ١٨٣٠ التي أطاحت بفرع من
الأميرة المالكة ، لتأتى بفرع آخر ، ثم ثورة ١٨٤٨ التي أعلنت الجمهورية
الثانية ، وأخيراً انقلاب لويس نابليون المذكور . وهكذا عاش بلزك
فترة من أغنى فترات تاريخ بلاده من حيث التعبيرات السياسية والاجتماعية
والاقتصادية التي ما كانت لتغفل من نظره الناقد .

وهو ينتمى اجتماعياً إلى الطبقات الوسطى ، فأبوه موظف من أصل
ريفي أمضى حياته في خدمة الدولة عبر تغير أشكالها السياسية ، وأمه
ابنة أحد التجار من باريس . وكانت تلك الطبقات في قلب الأحداث
الثورية ، فهي تزعمت الثورة الفرنسية الكبرى ضد النبلاء الإقطاعيين ،
وهي التي استفادت من إمبراطورية نابليون ، ثم انقلبت عليه حين
رأت مطامعه الشخصية تضر بمصالحها . وقد حاولت أجزاء منها أن
تعايش مع الملكية حين عودتها إلى السلطة ، وهي الطبقات التي كان
ينتمى إليها غالبية المثقفين ، وقد حاول أهل بلزك أن يدفعوا به إلى
إحدى المهن القانونية ، فمقطع المرحلة الأولى من دراسة القانون ، ثم عمل
في مكتب محام . ومكتب موثق عقود ، ولكن هذا العمل الرتيب ما كان
ليرضى الفتي الطموح الذي كان يرقب من حوله مجتمعاً يمكن أن يرتقى
فيه ضابط صغير من كورسيكا إلى عرش الإمبراطورية ، ويصبح

فيه تاجر صغير . بفضل المضاربة أو توريد المؤن للجيش - من أصحاب
الملايين ، وترفع المقامرات السياسية بعض أصحاب القلم إلى مراكز
الصدارة . ومن ثم هجر بلزك مهمة القانون محاولاً تحقيق « العهد »
عن سبل أخرى ، فجرب الصحافة والنشر والطباعة والعمليات المالية ،
ولكن كل محاولاته لم تدره إلا الإخفاق والديون التي تراكت عليه
حتى وفاته . وكانت أعماله الأدبية الأولى أبعد ما تكون عن النجاح .
ولكنه عاد إلى الكتابة تحت إلحاح مزدوج من موهبته الطبيعية ،
ومن حاجته إلى المال . فقد كان ينشر معظم أعماله في الصحف في
شكل « مسلسلات » يقبض ثمنها مقدماً .

وأول ما بلغت النظر في أدب بلزك هو غزارة الإنتاج بشكل منقطع
النظير . فقد كتب في حوالي ربع قرن ما يزيد على تسعين رواية وقصة
قصيرة ومسرحية . وفي السنوات الثلاث ما بين ١٨٣٢ و ١٨٣٥ وحدها
كتب عشرين مؤلفاً .! وقد أحصى بعض المتخصصين في الدراسات
البلاكية الشخصيات المذكورة في رواياته ، فوجد أن تلك الروايات
تضم ٢٤٧٢ شخصية خيالية محددة بالاسم والمعلم ، و ٥٦٦ شخصية
مذكورة بالوظيفة فقط ، فضلاً عن شخصيات تاريخية حقيقية عديدة .
ولكن ثمة ما يذهل أكثر من الأرقام : لقد تمكن بلزك من أن يجمع
الجزء الأهم من رواياته بعد الطبعة الأولى في أكثر من عشرين مجلداً تحت
اسم « الكوميديا الإنسانية » . وفي تلك الروايات جميعاً تصادف حشداً

من الشخصيات تلعب من رواية إلى أخرى الدور الذي رسمه لها بلزك .
ويخرج القارئ بإحساس عميق بأنه أمام عالم متكامل متشابه المصالح
متواتر الأحداث ، تمثل كل رواية جانباً من حياته ، أو طرفاً من
أحداثه ، أو لحظة من تاريخه . ويرغم أن المؤلف لم يرسم نقطة « للكوميديا
الإنسانية » مقدماً ، بل كتب رواياتها عبر الخاطر ، ولم يجمعها
إلا فيما بعد ، فإن الشخصيات التي تعاود الظهور من رواية إلى أخرى
تحافظ على مميزاتهما وتنسق تصرفاتها كما لو كانت نجماً دائماً في سحابة
بلزك .

وكانت تلك الشخصيات الكثيرة تغطي تقريباً كل النماذج البشرية
التي تميز بها المجتمع الفرنسي ، في النصف الأول من القرن الماضي :
فن النبيل المغامر الذي يحاول تنظيم مقاومة مسلحة لصالح الملكية ضد
الثورة ، إلى السيدة « الأرستقراطية » المرفهة ، إلى قاطع الطريق الطارب
من « اللهيان » . والواقع أن بلزك كان من خلال عمله الروائي الضخم
مؤرخاً للمجتمع الذي عاش فيه كأدق ما يكون المؤرخ ، وتعد رواياته
مرجعاً أساسياً لكل من يدرس الحياة اليومية لفرنسا في تلك الفترة .
وقد ساعده على ذلك عدة أمور : فهو كان يقصد مقصداً أن يؤرخ
لعصره بعد أن حاول في البداية كتابة روايات تاريخية عن نشأة فرنسا ،
وهو من ناحية أخرى كان على معرفة وثيقة بالمجتمع الذي عاش فيه ، فكان
أجداده لوالده يربطون أصوله بالفلاحين وبمعيشة القرية وأحلام شباب مدن

الأقاليم الطامحين للمجد في العاصمة ، كما عرفت من أسرة والدته حياة تجار
باريس ومشاعليهم . ومن فترة عمله القصيرة في الشؤون القانونية لمس
عن كتب أنواع العلاقات القانونية الجديدة التي بدأت تستقر في البلاد
على ضوء قوانين نابليون الشهيرة ، وخلال مغامراته المالية المتخفة خالط
أساط « البورصة » وتعلم الكثير عن المضاربين وأصحاب البنوك ،
وهو كصحن ، ثم كأديب ، عاش عن كتب حياة الصحافة ، وهي
بعد في مرحلة الطفولة تخالط الإعلام بالرأى ، والمعارضة بالتشهير
والابتزاز ، وهو كفتان نجح في أن يشق لنفسه طريقاً — بفضل ما حوته
به بعض سيدات المجتمع « الأرستقراطية » من حماسة — إلى « صالونات »
باريس ، وعرف طرفاً مما يدور فيها وفيها وراءها وهو أخيراً كان حريصاً
جداً الخرص على استمرار المراسلة بينه وبين قرائه ، وبصفة خاصة
قارئاته اللاتي كن يقطن خارج باريس ، ويجدن في رسائلهن إليه
وسيلة لبث أشجانهن ، والتنفيس عما يحسن به من ضيق . ومن خلال
بعض هذه المراسلات تعرف إلى السيدة التي أصبحت « حبه الكبير » ومن
ناحية ثالثة كان بلزك يجيد الوصف ويولع به ، فهو حين يشير إلى مرض
سيدة واعتكافها في حجرة نومها لا يملك أن يملح نفسه عن أن يتناول أثاث
الحجرة قطعة قطعة بالموصف الدقيق ، وربما كان ولعه هذا بالتصوير
هو الذي دفعه إلى حد صيانة الحوار في رواياته بالعامية عند اللزوم ،
أو محاكاته اللكنة الأجنبية إذا لم يكن المتحدث فرنسياً أصيلاً .

وأبرز ما أرخ له بلزك عبر رواياته هو مظاهر صعود الطبقة
الرأسمالية الجديدة وأساليب تكوينها ، فهذا الأب « جوريو » يفتقر
على نفسه كل التقدير ليوفر « الدوطة » لبنتيه الحسناوين ليتزوجا
بعض النبلاء أو الأثرياء ، وهذا « جرافنديه » يدخر محاولاً تحويل
مطبعته الصغيرة إلى مؤسسة تجارية كبيرة ، وذلك « البارون نوسينجن »
يضارب في البورصة ويسحق منافسيه في غير رحمة بعد دعم مركزه
كأحد ملوك المال ، وهناك « لوسيان شاردان » يحاول استغلال وسامته
وأدبه ليكسب قلب بعض سيدات الأرستقراطية ويصعد بفضل نفوذهن ،
وثمة المضارب على أسعار القمح الذي جمع ثروة ضخمة أثناء حروب
نابليون ، وهناك « سيزار بيروتي » الذي حاول أن ينشئ صناعة حديثة
لمستحضرات التجميل مستخدماً « فن الإعلان » على نطاق واسع ،
فنجح أول الأمر ، ولكن أطاحت به المضاربة ، وفي خلفية الصورة نجد
رجل « البوليس السياسي » الذي يخدم جميع نظم الحكم المتعاقبة ،
والذي يستخدم ما جمع من المعلومات في الضغط على الكتاب والساسة ..

ولم تكن الوفرة في إنتاج بلزك على حساب المستوى الفني ، وإذا
كان أسلوبه أحياناً يقل عن المستوى المنتظر من كاتب مثله ، فإن
عدد كبيراً من رواياته قد احتل محلاً ممتازاً بين أروع القصص العالمية
في كل العصور . وقد اخترنا من بينها « امرأة في الثلاثين » لما تمتاز به
من تحليل عميق وجمال عرض ، ويبدو أن الكاتب قد اختار البطلة

من خلال الرسائل الكثيرة التي كان يتلقاها من نساء في سن الثلاثين ،
لأنها برزت أمامه لقوة شخصيتها . وأغلب الظن أنها كانت شديدة
الحظوة لدى الناس . وقد استطاعت تجربة حكيمة أن تقنع بلزك
— عندما قابلها — بثبات مبادئها ، وكانت مصدر إلهام بالنسبة لأغلب
مواقف الصرامة التي تخللت حياة السيدة ديجليمون داخل هذه الرواية .

لقد كان بلزك يعتر بأن يكون روائياً قادراً على تصوير المجتمع على
حقيقته دون تجميل لما يسوده من عادات أو أوضاع أو سلوك أو أخلاق ،
برغم غضب الجمهور الذي يزعجه أحياناً أن يتعرف على الصور الطبيعية .
وقد اعترفت الإنسانية بإنتاج بلزك الذي تجاوز التاريخ لعصره ،
وقدم شخصيات أقرب إلى جوهر الإنسان في شتى أوضاعه وظروفه .
ولعل هذا سر قول الفيلسوف الفرنسي المعروف « آلان » : « لقد تعلمت
من مؤلفات بلزك أكثر مما تعلمت لدى الفلاسفة والسياسيين » .

١ الأخطاء الأولى

في صباح يوم من أيام الأحد ، في أوائل شهر أبريل سنة ١٨١٣ ، وكان الجو يبشر بيوم جميل من الأيام التي يرى الباريسيون فيها أرض شوارعهم خالية من الطين ، وساءهم خالية من السحب لأول مرة في السنة . . . احترقت عربة ركوب يادية المقامة ، يجرها جوادان شيطان شارع « رينغول » من ناحية شارع « كاستيليون » قرب انظريرة . وتوقفت العربة وراء خيول عربات عديدة مرابطة أمام الأسوار المقامة حديثاً وسط فناء دير « فييان » . وكان يقود هذه العربة انسيعة رجل يلبس مظهره على المرض والقلق ، ويغطي شعره الأبيض جمجمته الصغيرة ، مما كان يضي عليه مظهر الشيخوخة قبل الألوان . وقذف الرجل بالعنان إلى التابع الذي كان يقود حصانه مقتفياً أثر العربة . ثم فزل من العربة ليتلقى بين ذراعيه فتاة شابة اسرعى حسيها اللطيف اقتباه المتسكعين من المتزهرين في الفناء .

وتركت الفتاة الصغيرة نفسها لرقيقها عن طيب خاطر ليحملها من حصرها عندما أشرقت على حافة العربة ، ووضعت ذراعيها حول عنقه ،

الإهداء

مهداة إلى المصور

« لوى بولانجيه »

حتى أنزلها على أرض الطَّوار ، دون أن يؤثر في نضارة الزينة التي غطت فستانها المصنوع من الخماش « الثافناه » الصقيل الأخضر ، ولو كان محبباً لما بلغ به الاهتمام ذلك المبلغ . ولا بد أن يكون ذلك الرقيق المجهول والد هذه الابنة التي أمسكت بفراعه دون أن تشكره ، وبغير كلفة ، ثم سحبه فجأة إلى داخل الحديقة .

ولاحظ الأب المسن نظرات بعض الشباب المأخوذة ، فزال من وجهه طابع الشقاء برهة محدودة . وعلى الرغم من أنه كان منذ وقت طويل قد بلغ السن التي يرضى فيها الرجال بالمتع الحادثة من بجاء الغرور ، أخذ يشتم . وقال : « لقد اعتقدوا أنك زوجتي » . قال هذا في أذن الشابة وهو يقوم مظهره ويغشى في بطاء يبعثها على اليأس .

وكان الرجل يبدو مدلاً بابتسامة ، وأكثر استمتاعاً منها ، بالنظرات التي كان الفضوليون يصوبونها نحو قدميها الصغيرتين المتعلتين حذاء ذا أربطة وذا قص كالبرغوث ، ونحو قامة مثمنة مرسومة داخل ثوب بوشاح صدرى ، ونحو الرقبة الناضرة التي لا تخفيها « الياقة » المطرزة إخفاء كاملاً .

وكانت حركات المشى ترفع ثوب الفتاة لحظات خاطفة ، فتسمح برؤية استدارة ساق مصبوبة صلباً دقيقاً في جورب من الحرير المطرز بالتقريب فيما فوق الحف . كذلك تعصده أكثر من مائة سبقهما كما يبدو إعجابه ، أو لكي يرى وجهها الشاب الذي كانت تتأرجح

عليه بعض حلقات شعرها الغامق اللون الذي كان يياضه وحمرته الوردية على درجة قوية ، سواء بسواء العكاسات قماش الأطلس الوردى الذي صنعت منه بطانة معطفها الأثيق أو بسبب الرغبة وعدم الصبر اللذين كانا يكسوان كل ملامح تلك الإنسانية الجميلة . أما عيناها السوداوان الجميلتان فكانا المكر الرقيق يبعث الحياة فيهما . وكانتا مثقوبتين كالورقة ، وبعثهما مقروسة تقوياً حسناً ، ويعلمهما حاجبان طويلان ، وكأنيهما كانتا تسبحان في سائل نقي خالص .

وسخت الحياة والشباب فيما منحت هذا الوجه المتسرد ، وفيما أفاضت به على نصف الفتاة الأعلى الذي ظل رقيقاً لطيفاً برغم الحرام المعقود تحت صدرها حينذاك .

ألفت الفتاة نظرة محملة بنوع من القلق نحو قصر « الثويليرى » الذي كان هدف نزهتها الطائشة بلا شك ، غير عابئة بكل تحايا الاحترامات التي تعرضت لها . وكانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة . وبرغم أن الوقت كان مبكراً ، كانت بعض السيدات عائدات من المحضر . وكن جميعاً في كامل زينتهن ، ولم تكف واحدة منهن عن الالتفات نحو الفتاة بوجهها العابس . كأنهن تادعات على الحضور متأخرات . وعلى فوات فرصة الاستمتاع برؤية مشهد محب . وأفلتت من شقاء أولئك العائرات اللاتي نخاب ظنهن بعد أن أخذن بحمال الفتاة الجميلة الصبغة بضعمة ألقاظ دلت على تبرهن ، فأدت هذه الألفاظ

إلى إثارة قلقها بوجه خاص . وراقب الكهل بعين الفضول علامات عدم الصبر والإشفاق التي كانت تتلاعب فوق وجهه رفيقته الجذاب . أكثر مما راقبها بعين السخرية . وكان يلاحظها بكثير من العناية حتى لا يكون حكمه عليها متأثراً بفكرة أيوية سابقة .

كان ذلك اليوم هو الأحد الثالث عشر في سنة ١٨١٣ . وبعد يومين من ذلك التاريخ كان « فاهليون » في طريقه إلى حملته التي كان مقدراً له فيها أن يفقد « بيسير » و « ديروك » على التوالي ، وأن يكسب المعارك التاريخية في « نوتسين » و « باوتسين » . ثم تحوّل « النمسا » و « الساكس » و « بافاريا » و « بروسيا » و « بروسيا » و « بروسيا » على كسب المعركة الخفيفة في « ليبزج » . وكان الموكب الرابع الذي سار بناء على أمر الإمبراطور آخر الموكب التي اعتادت أن تثير إعجاب الباريسيين والأجانب مدة طويلة جداً .

وأوشك الحرس القديم أن يقوم بتنفيذ أخير للمناورات البارعة التي كانت ذات « ضبط وربط » وفخمة تبعث على الدهشة أحياناً بما في ذلك الرجل العملاق الذي كان يستعد حينذاك لمبارزة أوربا بأسرها .

وأدت عاطفة حزينة بجمهور متائق فضولي ، إلى الاتجاه نحو حدائق « التويليري » . وكان الجميع يبدون وكأنهم يعرفون المستقبل ، وكادوا يحسون بأن الخيال يمكنه أكثر من مرة أن يتبع لوحة ذلك المنظر ، عندما كان من واجب تلك الأزمنة البطولية في فرنسا - كما هو الحال الآن -

أن تتعهد بالأصابع البالغة حد الأسطورة تقريباً .

قالت الفتاة في مداعبة مأكرة وهي تسحب الرجل العجوز : لنسرع أكثر من هذا يا أبي ، إنني أسمع دق الطبول .

قال الوالد : إنها الفرق التي تدخل حدائق « التويليري » .

أجاب الفتاة بمرارة طفولية بعثت الرجل العجوز على الابتسام : أوالتي تتابع في العرض العسكري . إذ يعود الناس كلهم من جديد .

قال الأب وهو يمشي في أثر ابنته المتدفة : لا يبدأ العرض إلا في الساعة الثانية عشرة والنصف .

ولو أنك شهدت الحركة التي كانت تضغط بها على ذراعه اليمنى لقلت إنها كانت تستعين به على الركض . وكانت يدها الصغيرة داخل القفاز تدعك مندبلاً بفروغ الصبر ، وتشبه في ذلك مجذاف قارب يشق الأمواج . وكان العجوز يتسم بين وقت وآخر ، وكانت تعلو وجهه الجاهل من وقت إلى آخر أيضاً تعبيرات قلقة تجعله يبدو حزينا حزناً عابراً ، ذلك لأن حبه هذه المخلوقة الجميلة كان يدفعه إلى الإعجاب بالحاضر بقدر ما كان يدفعه إلى الخوف من المستقبل . وكان يبدو كما لو كان يقول لنفسه : « إنها اليوم سعيدة » فهل تكون كذلك يوماً ؟ ذلك أن الشيوخ المسنين يميلون إلى أن يسيغوا أجزائهم على مستقبل الشباب .

وعندما بلغ الأب وابنته المشي الداخلي تحت أعلى صنوان ، حيث

كانت الراية الثلاثية الألوان ترفرف ، وحيث كان المنتزهون يرفحون ويغدون من « التويليرى » إلى ميدان قوس نصر « الكاروسيل » نادى الملاحظون بصوت أجش : « لم يعد مسموحاً بالمرور ! »

ووقفت الفتاة على أطراف أصابع قدميها ، فاستطاعت أن ترى جمعاً من النساء الآخذات بأطراف الزينة ، وهن يشغلن جانبي « البواكى » الرخامية العتيقة التى كان مقدراً أن يخرج منها الإمبراطور وقالت :

— ها أنت ذا ترى يا أبى أننا خرجنا من البيت متأخرين .

وكشفت تقطبية وجهها الحزين عن الأهمية التى عاقبها على حضورها إلى هذا العرض .

— على أى حال هيا بنا ننصرف يا « جولى » أنت لا تحبين أن يراحمك أحد .

— بل فانيق يا أبى . لعلى أستطيع من هنا أن ألمح الإمبراطور . فلو مات أثناء الحملة لما رأيته على الإطلاق .

وارتعد الأب عند سماعه هذه الأقوال الأنانية ، وخنقت العبرات صوت ابنته . ونظر إليها فاعتقد أنه لاحظ تحت أجفانها المسبلة بعض الدموع التى لم تنجم عن الغيظ ، ولكن عن أحد هذه الأحزان الأولى التى يسهل على أب عجوز أن يخمن مرها . . . وفيجأة احمر وجه « جولى » وبدر منها هتاف دال على التعجب لم يفهم معناه الحراس

أو الرجل العجوز . وعندما بدر منها الهتاف كان أحد الضباط يثب من ناحية القناى نحو السلم ، فالتفت بقوة ، وتقدم إلى أن بلغ « البواكى » الحقيقية . وتعرف على الفتاة الشابة فى لحظة وراء قلائس جنود المقدومات ذات الرغب . وكسر من أجلها ، ومن أجل والدها ، التعليمات التى كان هو نفسه قد أعطها من قبل . ثم جذب نحوه بركة تلك الابنة المبهجة دون أن يعبا بهمسات الحشد المتألق الذى كان مرابطاً تحت « البواكى » .

قال الوالد العجوز للضابط بلهجة جادة وساخرة معاً : لم يعد يدهشى غضبها أو استعجابها طالما كنت أنت فى الخدمة .

— إذا شئت يا سيدى أن تقف فى المكان الأفضل فلا تجعل تسليتنا الكلام . إذ لا يحب الإمبراطور الانتظار ، وقد كلفنى المارشال بأن أذهب إليه لإخطاره .

وكان يتكلم وهو يأخذ بذراع « جولى » فى نوع من الألفة المعتادة ، وسحبها بسرعة نحو قوس نصر « الكاروسيل » ، وعندئذ لحت « جولى » فى دهشة حشداً هائلاً يسرع الخطو فى المساحة الضيقة القائمة بين جدران القصر الرمادية والعلامات المترابطة فيما بينها بالسلاسل التى تحدد معالم المربعات الشاسعة المغطاة بالرمل وسط قناى « التويليرى » ووجد الحراس المتشابكون فى صورة جدائل لتحفظ طريق عبور الإمبراطور وأركان حربه . صعوبة كبيرة فى الاحتفاظ بمواقعها برغم الجموع المزدحمة المتسارعة

التي تطن كخلية النحل .

سألت « جولى » وهي تبسم : « سيكون المشهد رائعاً بالطبع ؟ »

— انتهى إذن . قال الضابط هذا وهو يمسك « جولى » من وسطها ليرفعها بغير قليل من القوة والسرعة معاً كي يحملها إلى أقرب الأعمدة . ولو لم يعملها بسرعة خاطفة لكادت قريبته الفضولية قد رخصها مؤخر الفرس الأبيض المظلم بسرجه من القطيفة الخضراء المذهبة الذي كان يفوده من لحامه مملوك « قابليون » تحت « اليواكى » تقريباً ، على بعد عشر خطوات خلف كل الخيول التي كانت تستنظر الضباط العظام من رفقاء الإمبراطور .

وجعل الشاب مكان الأب والابنة قرب أول علامة إلى اليمين أمام الخشود ، وأوصى بهما بإشارة من رأسه جنديين عجوزين من جنود القلائف جاء مكانهما بيتهما .

وعندما عاد الشاب إلى القصر كانت السعادة والفرح قد جالتا في تعبير وجهه مثل الوجه للناجي . الذي كان تراجع الفرس قد طبعه عليه . كانت « جولى » قد وضعت على يده خفية وهي تصافحه ، سواء لكي تشكره على خدمته الصغيرة التي قدمها لها أم لتقول له : « سوف أراك إذن ؟ » وحت رأسها برفق رداً على لعبة الاحترام التي أداها الضابط لها ولوالدها قبل أن يخفى في حركة بارعة . وبقي العجوز في موقف رزين خلف ابنته يقليل محاولاً إظهار أنه قد تعمد ترك الفتاة والفن معاً .

غير أنه راقبها من طرف خفي ، وحاول أن يوسى إليها بأمان كاذب حين بدا في شغل شاغل عنها بتأمل المشهد الرائع المتمثل في قوس نصر « الكاروسيل » . وعندما أعادت « جولى » نحو أبيها نظرة التلميذ المتخوف من معلمه ، أجابها العجوز بإشمامة الفرح العطوف : « غير أن عينه النفاذة تابعت الضابط حتى بلغ « اليواكى » دون أن يفوته أى حدث في ذلك المنظر السريع .

قالت « جولى » بصوت متخفص وهي تضغط يد والدتها : « أى مشهد رائع ! »

وكان هذا الحشود الدال على الانفعال قد صدر عن آلاف المشاهدين الذين ظهرت وجوههم جميعاً فاغرة الأقواء من التعجب أمام المرمى الفشان العظيم الذي كان يمثل في تلك اللحظة قوس نصر « الكاروسيل » . وكان صف آخر من الزحام المتعجل ، مثل الصف الذي كان العجوز وابنته عسكين به يشغل المكان الضيق المصروف على طول حاجز قوس نصر « الكاروسيل » في خط مواز للقصر . وأتم ذلك الجمع المزدحم إعداد رسم تلك الحديقة الطويلة التي هيأت شكلها أبنية « التلويليرى » وذلك الحاجز المقام حديثاً رسماً قوياً بواسطة الزينة الموزعة التي اتخذتها النساء . وملأت سرايا الحرس القديم التي كانت مستعدة للضرورة في العرض تلك الأرض الواسعة ، حيث ظهرت قبالة القصر في خطوط زرقاء حاشدة ذات عشرة صفوف طويلة . وخارج هذه الدائرة . وفي فناء « الكاروسيل »

كانت صفوف أخرى متوازية وعديدة من سرايا المشاة والفرسان المستعدة للقيام بالعروض تحت قوس النصر الذي يزين وسط الحاجز ، والذي كانت ترى في أعلى قممته في تلك الفترة عيول « فينيسيا » الرائعة . واحتلت فرقة موسيقى السرايا مكانها أسفل أروقة « اللوفر » وكانت متحركة في صورة فرسان خيالة بولنديين في أثناء الحفلة . وبقى جزء كبير من الحديقة المغطى بالزوال فارغاً كأرض الملاعب المعدة لحركات هذه الفيلق الضامة ، التي كانت مجموعاتها المرببة في تناسب في حربي . تنعكس أشعة الشمس في طب مثلث الشكل فوق عشرة آلاف من الخراب . وكان الهواء يحرك ريش القلائد فوق رؤوس الجنود فيدفعها إلى الحركة كالأمواج ، على نحو ما تتحنى الأشجار في الغابة أمام الرياح العاصفة . وكانت هذه الأسراب العتيقة الخرساء الالامعة ، تعرض ألف اختلاف لوني نتيجة للتسوع في الزي وحواشي أكمام الملابس والأسلحة وسدائل الخيال فوق الأكثاف والصلور .

كانت هذه الأروحة الضخمة أشبه ما تكون بصورة حجرية لميدان قتال قبل الحركة بكل تواضع وأحداث الغريبة . وقد نما أحبطت شعرياً بإطار من الأبنية الفخمة العالية التي كان الجنود والفرسان يحاكون جمودها حينذاك . فقد كان المشاهد يوازن لا إرادياً بين هذه الجنود البشرية وتلك الجنود الحجرية . وألقت شمس الربيع ضوءها بسخاء فوق

الجوانب البيضاء التي أقيمت في اليوم الأمس . وفوق الجنود القديمة العهد ، فأنارت - بشكل تام - تلك الوجوه العديدة المسمرة التي كانت تبوح بأخطارها السابقة ، وتتوقع في نهيم أخطاراً مستقبلية . وكان مقدمو كل سرية يروحون ويغدون منفردين أمام الجهات التي أنشأها أولئك الأبطال . واستطاع المتطلعون أن يلمحوا وراء أسلحة هذه المجموعات القديمة المنقوشة بالألوان الفضية الزرقاء والأرجوانية والذهبية الرايات الطويلة الثلاثية الألوان المربوطة في أعلى حزام منة من الفرسان « البولنديين » الذين لا يكون ، والذين يشبهون الكلاب التي تسوق المقطع على طول الحقل ، وهم يحولون بلا توقف بين الخرق والمنطاعين ، كمن يحولوا دون أن يتخطى هؤلاء المتطلعون المكان الصغير من الأرض المسموح لهم به داخل الحاجز الإمبراطوري . وكانت رؤية هذه الحركات المتكررة في غير تباعد توحى بأننا في قصر « الجميلة بالغابة الراكدة » كما صورته حكاية « بيرو » الخرافية . وأكد نسيم الربيع العابر فوق قلنسوات وجناب المدفعية ذات الزغب سكن الجنود ، ولكنه كشف ضجيج الزحام الأصم عن صمتهم . وكان يكمن زنب قبعة صينية فقط ، أو ضربة خفيفة على صندوق كبير سهواً ، كمن يتردد صداها في جوانب القصر الإمبراطوري فيما يشبه قصف الرعد البعيد الذي يثير بالعاصفة . وسطع حماس لا يوصف في انتظار الجموع الصغيرة ، إذ خرجت قريبا لنودج « نابليون » عشية حملته التي

كانت أخطارها متوقعة لدى أبسط المواطنين . كانت المسألة في هذه المرة مسألة وجود أو لا وجود ، بالنسبة إلى الإمبراطورية الفرنسية . وكأنا شجعت هذه الفكرة أهل البلد من المدنيين والعسكريين الذين لموا الصمت . وهم يتراحمون في الغناء الذي حام فيه نسر « نابليون » وعبقريته .

وكان هؤلاء الجنود أملي فرنسا . وآخر نقاط دماءها . كما كانوا يشغلون جزءاً غير قليل أيضاً من فضول المشاهدين المليء بالقلق في اعتبار الكثيرين . وكان أغلب المعاونين والعسكريين يودع بعضهم بعضاً وداعاً يكاد يكون إلى الأبد . ولكن توجهت القلوب جميعاً : حتى أشدها عداوة للإمبراطور إلى الله . بدعائها الحار من أجل مجد الوطن . بل لقد تحلى الرجال المتعبون عن الصراع بين أوروبا وفرنسا كلهم عن أحقادهم . عند عبورهم تحت قوس النصر . متريكين أن « نابليون » في يوم الخطر هو فرنسا بأكملها . ودعت ساعة النصر دالة على النصف بعد الثانية عشرة . وفي تلك اللحظة توقف طين الزحام وصار الصمت عميقاً بحيث كان يمكن سماع كلمات طفل صغير . واستطاع العجوز وابنته ، اللذان كانا يعيشان بعيوتهما فقط . أن يسميا صوت المهاميز وحقبة السيوف التي دوت تحت دهايز القصر ذات الرنين .

وظهر فجأة رجل قصير . متوسط السنه . يابس زيباً أخضر اللون وسرولاً أبيض . ويتعلل أحذية الفرسان . واضعاً فوق رأسه قبعة ذات

ثلاثة أيقاق ضخمة . تبلغ حجم الرجل نفسه . وكان الشريط العريض الأحمر الخاص بنوط الشرف يتدلى على صدره . كما كان يتدلى إلى جانبه سيف صغير . وكانت جميع العيون ترمي الرجل في وقت واحد من كل جوانب المكان . وفي الثو فرغت الطبول في الساحة . وشرعت الفرقتان الموسيقيتان تعزفان صيغة موسيقية تكرر تعبيرها الحربي على كل الآلات ابتداء من أرق زمارة إلى أكبر الطبول . وارتعدت الأرواح أمام هذه الدعوة إلى القتال . كما أدت الأعلام النجدة . ودفع الجنود الأسلحة في حركة موحدة ومنظمة أثارت حركة البنادق الذي أصغر الرتب وأكبرها على أرض الكاروسيل .

وتنقلت صيغ الأوامر من رتبة إلى رتبة على نحو ما تتناقل الأصدا ثم تنافست صيحات : « عاش الإمبراطور » على أساك الجمهور المنحصر . ثم أصابت الرعدة الجميع . فصاروا يلوحون ويتحركون . وظهر « نابليون » راكباً القوس . وكأنا طاعت هذه الحركة الحياة على هذه الجدوع الضامنة . وهبت الأدوات الموسيقية الصوت . وبعثت الدفع في الشور والرايات والافعال في كل الوجوه . وبدأت جذرات الدهائز المرتفعة في هذا القصر العتيق كما لو كانت تصرخ هي الأخرى : « عاش الإمبراطور » . ولم يكن ذلك كانه يشبه شيئاً إنسانياً . وإنما كان يشبه سحراً أو طيفاً من التدرج القدسية . أو أكثر من هذا بصورة ذهنية شاردة هذه المملكة المؤقتة .

ظل الرجل على فرسه مخاضاً بكل هذا القدر من الحب والحماس والإخلاص والدعاء ، بعد أن قشعت الشمس سحب السماء من أجاء ، وبقى على بعد ثلاث خطوات إلى الأمام من الكتيبة الذهبية التي كانت تمضي في أثره ، فيني شماله المشير الأول ، وإلى يمينه مشير الخدمات . ووسط كل مظاهر الانفعال التي أثارها وقبته لم يبد على ملامح وجهه أي انفعال .

— أوه ... يا إلهي ... نعم ... من « واجرام » وسط النيران ، إلى « موسكو » بين الأموات ، وهو دائماً هادئ كالعمدان .. هو .

كانت تلك إجابة أحد رجال المدفعية على الأسئلة العديدة التي وجهت إليه في أثناء وجوده قريباً من الفتاة الشابة . وظلت « جولي » مأخوذة مدة معينة بتأمل ذلك الوجه الذي كان يبدو فيه عن ثقة كبيرة بقوته . ونجح الإمبراطور الأنسة « دي شاتيونيس » ومال نحو « ديروك » ليقول له عبارة أضحكت المشير الأول . ثم بدأت المناورات .

ومع أن الشابة كانت قسمت انتباهها حتى ذلك الحين بين وجه « نابليون » الخالي من أي تأثير ، وبين صفوف الفرق الزرقاء والحمراء والخصراء ، خصصت في تلك اللحظة اهتمامها تقريباً وسط الحركات السريعة المنتظمة التي قام بها الجنود الأقدمون — بضابط شاب كان يعدو فوق فرسه بين الصفوف المتحركة . ثم يرجع في نشاط لا يكل نحو المجموعة التي كان يملأها على رأسها فرد بسيط هو « نابليون » .

وكان فارس ذلك الضابط فاجراً أسود اللون ، كما كان هو نفسه يتميز وسط هذه الجموع ، المزينة بشبي الأوسمة ، بهذا الزي الجميل الأزرق السماوي الخاص بضباط يافوران الإمبراطور . ولعل تلك التطاير على نحو برقي في شعاع الشمس ، فاستمدت منه عفرة قلنسوته الضيقة العالية وجهاً قوياً دفع المشاهدين إلى مقارنته بأحد الشهب ، وبالمروج الخفية الموكنة من قبيل الإمبراطور بانتعاش وقيادة مدفعية المشاة ، التي كانت أسلحتها المائجة تلي بالحمم عندما تنفجر وتسكن ، وتحول بإشارة من عينيه في موجات كموجات درجات الحجم ، أو تمضي أعماه كالأنصال الطويلة المستقيمة المرتفعة التي يصوبها الضابط المائع نحو شواطئه .

وعندما انتهت المناورات ركض الضابط اليافور بغاية السرعة ، ثم توقف أمام الإمبراطور ينتظر الأوامر . وفي تلك اللحظة كان على بعد عشرين خطوة من « جولي » وجهاً لوجه ، أمام المجموعة الإمبراطورية ، مشابهاً في ذلك الموقف موقف « جيرار » أمام الجنرال « زاب » في لوحة معركة (أوسترليتز) . وعندئذ أتبعته الفرصة للفتاة الشابة كي تملأ بإعجاب حبيبها في أوج جلاله العسكري .

لقد كان المقدم « فيكتور ديغليسون » في حوالي الثلاثين من عمره ، فارغ الطول ، ممشوق القوام ، حسن التكوين ، ولم تكن مقاييس بدنه المتوافقة تبيين أكثر مما كانت تبين عندما يستخدم قوته في التحكم

في قمره الذي بدا ظهوره الأنيق اللين كما لو كان قلبه انثنى تحت . وكان وجهه حازماً . أسمر اللون ، ذا جاذبية غامضة يسيغها التساوق الكامل في الملامح عادة على وجوه الشباب . كما كانت جنبه غريضة مرتفعة ، وارتست عيناها الحادتان المظلمتان بمواجب كثيفة ، والخوفان بمرور طويلة كأنهما إهليانجان أبيضان بين خطين أسودين ، وكان أنفه ذا استدارة رقيقة كتمتاز الشعر . وكانت أرجوانية شفبه قوة بتأثير تعرجات الشارب الأسود التي كانت مفروضة قرضاً ، وكان خداه العريضان بأولهما الظاهر بمثلان درجات من السمرة والصفرة ثم عن صرامة غير عمادية ، وعلا وجهه دافع الشجاعة بحيث صار يمثل النموذج الذي يبحث عنه الفنان في أيامنا هذه لكي يجد فيه نمط أبطال فرنسا في عهدها الإمبراطوري أما فوسه فكان ميللا بالعرق ، وكان رأسه دائم الحركة تعبيراً عن تعجذه البالغ . كما كانت قدماه الأماميتان متباعدتين ثابتتين على تحفظ واحد ، فلا تتقدم إحداهما على الأخرى . وكان الفرس يهرج حركات ذيله الكثيف الطويلة ، وكشف استسلامه في صورة محسوسة عما كان سيده يكتنه للإمبراطور .

رأيت « جولي » حينها مشغولاً بالاستشراق بنظرات « نابليون » فأجست لحظة من لحظات العبرة عندما قدرت أنه لم يلحظها بعد . وفجأة نطق الإمبراطور بكلمة ، فإذا « فيكتور » يضغط ضلوع قوسه ويسرع في العدو . غير أن ظل أحد الأنصاب الجانبية الساقط على الرمل أفرغ

الفرس . فجعله ينفر ويراجع . ثم يعتدل . وتم ذلك كله فجأة بحيث بدا الفارس . في خطر . وهدرت صرخة من فم « جولي » وامتنع لونها ، وانهار إليها الكل في استغراب . ولكنها لم تعد ترى أحداً ، وبقيت عيناها معلقين بهما الفرس الوثاب الذي عمد الضابط إلى عقابه وهو يقوم بالعدو ، لإملاء أوامر « نابليون » . وتملك كل هذه اللوحات المذهلة « جولي » تملكاً كاملاً حتى إنها نشيت دين وعنى منها بذراع أسيا الذي كشفت له عن أفكارها بغير قصد منها بواسطة ضغط أصابعها القوي إلى حد ما . وعندما أوشك فيكتور أن يتقلب من فوق الحصان التصقت بأبها في عنف أشد ، كما لو كانت هي نفسها تحشي السقوط .

وتأمل العجوز وجه ابنته المهلل بقلق مظلم متألم ، بل تسربت إلى كل تعبداته المقطبة مشاعر شفقة وعبرة وأمل . ولكن بمجرد انتهاء بريق عيني « جولي » غير المألوف . وصيحتها التي صدرت عنها ، وحركة أصابعها المضجربة بالتشجيع من الإفصاح عن حبها الخفي ، أحس بلا شك بإحساسات حزينة عن المستقبل ظهرت دلائلها على تعبير وجهه المنكوب .

في تلك اللحظة عينا بدت روح « جولي » كأنها قد انتقلت إلى روح الضابط نفسه ، فتمسيت فكرة أشد قسوة من تلك التي أفرغت العجوز من قبل في انقباض ملامح وجهه المتألم عندما لمح « ديجليسون » يتبادل نظرة تفاهم مع « جولي » التي بدلت عيناها الدموع . وأصيب لونها بحيرة حارقة عندما عبر أمامهما . وفجأة سحب ابنته إلى

حدائق « التوبىلىرى » .

قالت : « لا ... لا يا أبى ... لا يزال فى ساحة » الكاروسيل « من السرايا ما يقوم بالمناورات » .

— لا يا ابنتى ... كل الفرق تشترك فى العرض .

— اعتقد أنك مخطئ يا أبى : إذ لابد أن يكون السيد « ديجليسون » قد أمرها بالتقدم .

— ولكننى أشعر برعكة يا بنتى ، ولا أحب البقاء .

ولم يكن يصعب على « جولى » أن تصدق أباها عندما ألقت نظراتها على وجهه الذى زودته المخاوف الأبوية بطابع الرجل الحائر المبهوك .

سأله بغير مهالة كما لو كانت مشغولة : « هل تعذب كثيراً ؟ »

— ليس كل يوم من أيام حياتى يوم نعمة بالنسبة لى أو يوم هبة ؟

— لسوف تزيد من حزنى إذا تكلمت عن موتك . لقد كنت

مذبذبة المرح ، هل لك فى أن تطرد أفكارك السوداء الخبيثة ؟

صاح الأب وهو يتهد : آه ! .. بآلك من طفلة مدمنة ! إن

القلوب الطيبة تكون مؤكدة القسوة فى بعض الأحيان . فإذا خضعتك

بحياتنا ، وإذا لم تفكر إلا عليك ، وأعددنا لك رفاهيتك ، ووضعنا

بأذواقنا من أجل أوهامك ، ومن أجل تقديرك وإعظمتك دعنا ...

أفليس لذلك كله معنى إذن ؟ وأسفاه ! لا شك أنك تتقبلين ذلك كله

بلا أدنى مهالة . وكان ينبغي أن نكون لنا قدرات الآفة ، حتى نحصل منك على انتصاماتك ، وعلى حيلك المعبر عن الازدراء . ثم فى النهاية يأتى آخر .. عاشق .. زوج يسحر قلوبنا .

نظرت « جولى » إلى والدها عندهشة ، وهو يخطب ببطء ، ويطبق إليها ينظراته القاتمة : فعاد يقول :

إنك تتخفين علينا ولعلك تتخفين أيضاً على نفسك !

ماذا تقول يا أبى ؟

— اعتقد أنك تخفين عني اسراراً يا « جولى » . إنك تخفين ..

وقال العجوز مرة أخرى عندما لاحظ أن ابنته قد احمر وجهها :

آه .. لقد كنت أتعلم أن تظلي مخلصاً لأبيك العجوز حتى وفاته .

كنت أمل الاحتفاظ بك قريبة منى ، وسعيدة متألفة ، فأعجب بك

كما كنت حزين قليل . ولما كنت أجهل مصيرك فقد حسبت أن سيكون

لك مستقبل هادئ . غير أنه من المستحيل الآن أن أحتفظ بأمل فى

معادة حياتك ، لأنك تخمين المقدم أكثر مما تخمين من هو (قريبك) .

لا أشك فى ذلك .

صاحت الفتاة فى تعبير قوى يتم عن الاستغراب : « ولماذا يكون

حبه محرماً على ؟ »

أجاب الأب مبتهلاً : آه ... يا « جولى » لن تستطيعي أن تفهمي ما أعنيه .

قالت مفصحة عن حركة عصبان : قل إذن ..

مراة فى التفسير

— اسمعني إذن يا بنى جيداً . تقوم الفتيات بإبداع صور باهرة فيلذة . وتلدج مثالية ، وباختلاق أفكار وهمية عن الرجال ، وعن العواطف ، وعن العالم . ثم يقعن في براعة يزد الكذالات التي حلمن بها إلى طبيعة ما من الطبايع ثم يشرعن بعد ذلك في الاطمئنان إليها . وعن يحبن في الرجل الذي يخترنه ذلك المخلوق الخيالي . ولكن في النهاية عندما لا يكون ثمة وقت للخلاص من المصيبة ، ومن المظهر الخداع الذي آخضوا عليه الحسن ، يستحيل معبودهم الأول في النهاية إلى هيكل عظمي كبريه . « جولى » . إننى أفضل أن أراك تحبين رجلاً عجوزاً على أن أراك تعشقين المقدم .. أه .. لو أنك استطعت أن تفضي نفسك بعد عشر سنوات من الآن في الحياة لكنت عادلة بالنسبة إلى تجربتي .

إننى أعرف « فيكتور » وأعرف أن بشاشته بشاشة تعالوية من الروح ... إنها بشاشة الشكيات . وهو فضلاً عن ذلك خال من أى موهبة . ومن أى ميل إلى الإتفاق . إنه واحد من أولئك الرجال الذين خلقهم الله ليأكلوا ويخسوا أربع وجبات في النهار . ثم ليناموا أو يحتفوا بأول قادمة ، ويحاربوا . إنه لا يفهم الحياة . وهو ذو قلب طيب . وقد يمتاده قلبه إلى إعطاء أحد البائسين أو أحد رفاقه محفظته تقوده . ولكنه غافل ولم يوهب رقة القلب التي تجعلنا أحياناً عبيداً لسعادة امرأة . ثم إنه جاهل أناى ... هناك كثير من الصفات السلبية .

— ويرغم ذلك . يا أنى ، لا بد أن يكون له من الروح والوسائل

ما دفعه ليكون مقدماً . قال الأب في نوع من الحماسة : يا عزيزتى ، إن « فيكتور » سيظل مقدماً أيد الحياة . لأنى لم أرىعد الشخص الذى يليق بك فى عيني . ثم توقفت لحظة ونأمل ابنته . وأضاف : ولكنك لا تزالين أصغر . وأضعف ، وأرق . من أن تتحمل أشجان الزواج ومناخه . يا صغيرتى « جولى » المسكينة . ثم إن « ديمليسون » قد دله والمداه كما دلت أمك ودلتك . فكيف نتعشم أن ينشأ تفاهم بينكما بإرادات مختلفة مطبوعة بطابع التحكم . بحيث لا يمكن التوفيق بينها . ولا بد أن تكونى أحد اثنين : ضحية أو طاعية . وكلا البديلين مجلبان مبلغاً متعادلاً من الشقاء في حياة المرأة . غير أنك رقيقة ومتواضعة . وستستئين قبله وعندك لطف عاطفى لمن يعرف قدره .. وعندك .

قال هذه العبارة بصوت مضطرب . ثم لم يكملها ، إذ خنفته العبرات . ثم عاد يقول بعد صمت وجيز : سوف يخرج « فيكتور » صفات البراة التي تتميز بها روحك الشابة . فأننا أعرف الرجال العسكرين يا صغيرتى « جولى » وعشت في الجيوش . ومن النادر أن يتضر قلب هؤلاء الناس على العادات الناجمة عن الشقاء الذى يعيشون فيه . أو عن مصائد حياتهم المغامرة .

— أجايت « جولى » في نعمة وسط بين الجلد والمزاج : « إنك تريد يا أبى - إذن - أن تغلب عواطفى ، وأن تدفعنى إلى الزواج من أجلك أنت لا من من أجلى أنا » .

صاح الأب في نوح من الاندعاش : أدفعك إلى الزواج من
أجلى ... من أجلى أنا يا بنتي .. أنا .. الذي لن تسمعي صوتي قريباً
بهذه النعمة الودية من التأيب ! لقد لاحظت أن الأبناء يعززون دائماً
تضحيات الوالدين نحوهم إلى عاطفة شخصية . تزوجي ، فيكتور ،
يا صغبرتي « جولي » وسوف ترئين يوماً عماراة لعدم عملاحيته وفساده ،
وأنايته . وقظاعته ، وبلايته في الحب . وآلاف الكروب الأخرى
التي سنترن بك منه . فاذكري إذن أن صوت الوحي الثاني نطق به أبوك -
تحت هذه الأشجار - قد دوى عبقاً في أذنيك .

وسكت العجوز ، وفاجأ ابنته بنظرته . وهي تهز رأسها في عصفان .
ثم قام كل منهما بوضع خطوات نحو الخارج ، حيث كانت عربتهما
واقفة . وفي أثناء هذا المشي الصامت فحصت الناة خفية وجه أبيها ،
وتنقلت درجة درجة بين أجزاء سحنته المقطبة : إذ ترك فيها الألم
العسيف المحفور على جبهته المائلة نحو الأرض انضباعاً شديداً . وقالت بصوت
رقيق مضطرب : أعذك يا أبي .. ألا أفكلم إلبك عن فيكتور ، ما لم
تكن قد عدلت عن سوابق ظنك عنه .

ونظر العجوز إلى ابنته في استغراب . وانحدرت على طول خديه
المجعددين دمعان كأنهما تدوران في عينيه . ولم يستطع أن يقبل « جولي »
على مشهد من الناس الذين كانوا محيطين بهما ، واكتفى بأن ضغط على
يدها في رقة . وعندما صعد إلى العربة كانت جميع أفكار الأمي التي

استت فوق حبه قد انحطت تماماً ، وألقفه وضع ابنته الحزين عندئذ
أول ما ألمه المرح البريء الذي يدور من « جولي » أثناء العرض .

• • •

في الأيام الأولى من شهر مارس سنة ١٨١٤ . أي بعد أقل من سنة
مطلق من يوم تلك العرض الإمبراطوري . كانت مركبة بأربعة دوليب
تسير بطريقها من « أمبواز » إلى « تور » وكانت المركبة تجرى بغاية
السرعة . وهي تغادر أشجار الجوز الضخمة الشبيهة بالقبة الخضراء ،
والتي تلي تحتها مركز « لافربليير » حتى جاءت اللحظة التي وصلت فيها
إلى « سر ميني فوق نهر » « الشير » من ناحية مقصده في نهر « اللوار » .
فوقعت فجأة . وإذا أحد حمار العجلات يتكسر على إثر الحركة التي
لم يكن قادراً عليها ممكناً ، عندما تلي سائق المركبة انشاب أمر سيده بذلك ،
والتي حاول أن يقوضها بدور على أربعة خيول من أشد خيول المرائب
في

وعيات الصدقة للشخصين اللذين في داخل المركبة الوقت الضروبي -
عند تقطعها - لتأمل موقع من أجمل المواقع التي يمكن أن تمثلها شواطئ
نهر « اللوار » الخلابة . فإلى اليمين كان يمكن أن يجمع المسافر في نظره
كل الحنايات نهر « الشير » الذي يزحف مثل ثعبان فضي وسط أعشاب
المرارح التي أنشبت عليها أولى دفعات الربيع ألوان الزمرد ، وإلى اليسار
كان يبلو نهر « اللوار » في كل دويته ، وكانت لفحة هواء الصباح

الباردة قليلاً تطلق صفحات عديدة من بعض لظلماتها المتواترة :
فتعكس ذبذبات الشمس فوق مسطحات الماء الساكن الشامخة التي
يظهرها ذلك النهر المهييب . وكانت الجزر المتضجرة هنا وهناك تتوالى
في مساحة المياه كما تتوالى فصوص العقد . وفي الناحية الأخرى من
النهر كانت أجمل أرياف مقاطعة « التورين » تبسط كنوزها إلى
آخر امتداد البصر . وفي أقصى المشهد لا تقع العين على أي نفوم سوى
تلال نهر « الشير » التي كانت قسمها ترسم في تلك اللحظة خطوطاً
مضيئة فوق زرقة السماء الصافية . وكانت مدينة « تور » تبدو خلال
أوراق الشجر الرقيقة في الجزر الظاهرة في أقصى المشهد أشبه ما تكون
بمدينة البندقية من حيث بروزها وسط المياه . وكانت أبراج أجناس
« كاندرايتيها » العتيقة تعلو في الجو حتى صارت أشبه بالسحب البيضاء
حين تتحول إلى اختلافات وهمية .

وكان المسافر يلحج وراء البحر الذي وقعت المركبة فوقه : وفي
الواجهة مباشرة نهر « الوار » على طول حوضه حتى مدينة « تور »
وسلسلة من الصخور التي شكلتها الطبيعة حتى بدت كأنها قد وضعت
لتصد أمواج النهر التي تنهش الحجر في دأب . وهو مشهد يذهل المسافر
دائماً وتبدو قرية « فورييه » كأنها قد عشت في مضائق تلأل تلك
الصخور التي بدأت ترسم زاوية أمام جسر نهر « الشير » ومن « فورييه »
حتى مدينة « تور » . ويسكن المنعطفات الخفية في ذلك التل قوم من

دراج الكروم . وفي أكثر من موضع توجد ثلاث طبقات من المنازل
المهورة في الصخر . تجمعها سلام خطرة منحوتة في الحجر .
وفي أعلى سقف أحد البيوت كانت فتاة ذات « جولة » حمراء
تجري نحو حديقتها . وقد تصاعد دخان إحدى المداخن بين فروع
الكروم وبين أغصانه المورقة . وكان بعض المزارعين يحرقون سحولا
متعامدة وامرأة عجوز تدبر دولاب مغرط تحت زهور شجرة اللوز .
وتأمل عبور المسافرين من تحتها ضاحكة من فرعهم . وهي جالسة
في هدوء فوق محفرة هوت من الجبل . ولم تكن تقلقها شقوق الأرض
ولا احتمال انهيار حائط قديم لم تعد تستند سوى جذور متشابكة
لنبات اللبلاب الذي يغطيها . وكانت أبواب الكهوف المفتوحة ترد
صدى ضربات مطارق صانعي الدنان : والأرض بعد هذا كله مزروعة
في كل مكان : وخضبة في كل مكان : حينما رفضت الطبيعة أن
تحتل عن الأرض للصناعة الإنسانية . ولا شيء يوارى في حوض نهر
« الوار » بالمنظر العام الغني الذي تمثله مقاطعة « التورين » في عميق
المسافر .

واللوحة الثلاثية — لهذا المنظر — ذات الأوجه المبينة على وجه التقريب
تروى الروح بأحد هذه المشاهد التي تنفسها بالذاكرة إلى الأبد . وعندما
يستمتع شاعر بهذا المنظر تأتي أحلامه غالباً لتبني فوقه أسطورياً
آثاره الرومانتيكية .

وفي اللحظة التي وصلت فيها المركبة فوق جسر نهر الشير ، كانت أشعة بياض عديدة تسد ما بين جزر نهر « اللوار » وتضيق المسجماً جديداً على هذا الموقع المسجماً . وأزجى أريج الصفصاف المتدلى الأغصان على حافى النهر عطوراً نفاذة إلى مذاق النسمة الرطبة ، وكانت العصافير تملأ الأسماك بمزوفاتها المستفيضة وقد أضاف إليها غناء راعى الماعز الرئيب لوناً من الشجن . في حين كانت صيحات الملاحين تيشر بهرج ومرج عن بعد وكانت الأبحرة الكسول تتوقف من تلقاء نفسها حول الأشجار المتناثرة في هذا المنظر الشاسع مضيقية على تلك اللوحة آخر لمسة من اللطف . وتلك هي مقاطعة « الثورين » في أوج مجدها . وذلك هو الربيع في غاية بهائه . وذلك الجزء من فرنسا هو الوحيد الذي لم تستطع الجيوش الأجنبية أن تزعجه ، وكان أيضاً في ذلك الوقت الجزء الأوحش الهادي كأنه يتحدى الغزو .

وما إن توقفت المركبة حتى أطل منها رأس مغطى بقبعة رجل البوليس وسرعان ما فتح رجل من الجيش بابها . وقفز إلى الطريق متعجلاً كأنه في طريقه إلى المشاورة مع سائق المركبة . غير أن الدكاء الذي عالج به ذلك السائق من أبناء « الثورين » عجز العجلة المكسور طمأن المقدم الكونت « ديغليبول » الذي عاد إلى الباب ماذا ذراعيه كأنه يحيط عضلاته الحامدة . وتغابى . ثم نظر إلى المنظر ، ووضع يده على ذراع امرأة شابة لفّت نفسها بعناية برداء مبطّن بالفرو

وقال لها في صوت مبحوح : هيا يا « جولي » استيقظي إذن كي تتأمل الإقليم . إنه رائع .

ودفعت « جولي » رأسها خارج المركبة ، وكانت تغطي رأسها بقبعة من جلد السمور ، كما كانت ثنيات المعطف الكثيف الذي تغطت به يعني تماماً أجزاءها بحيث لم يعد يرى إلا وجهها .

ولم تعد « جولي » ديغليبول « تشبه في شيء الفتاة التي كانت تعدو قبيل ذلك في قروح وسعادة في أثناء العرض بخدائق « الثورين » . وبقد وجهها الرقيق دائماً ألوانه الوردية التي كانت تبه فيها سبق روتقاً غنياً ظاهراً ، وأبرزت العضلات السوداء لبعض شعرها الذي جعلته الرطوبة يياض جبهتها الأصم ، وقد خمدت حيويتها . وبرغم ذلك كانت عيناها فلمعان بوقدة غير عادية ، وإن ارتسبت تحت جفونها صبيغات بنفسجية فوق خديها المبهوتين . وتظورت بعين غير مبالية على أرياف نهر « الشير » و « اللوار » وجزائرها . وعلى مدينة « ثور » وعلى هضاب « فوغريه » الطويلة . ثم لم تعبأ بأن ترى وادي نهر « الشير » الخلاب وألقت بنفسها بسرعة في أقصى المركبة ، وقالت بصوت بدا غايه في الضعف في الهواء الطلق :

— نعم... هذا رائع .

فقد انتصرت على أيها كما هو واضح من أجل تعاستها .

— ألا تخمين أن تعيش هنا يا « جولي » ؟

قالت بلا أدنى اكتراث : أه ! هنا أو في أي مكان .

فسأها المقدم (ديجليسون) : هل تتألمين ؟

أجابت المرأة الشابة بشيء من الحيوية المؤقتة : ألبتة . وتألمت زوجها مبتلة ثم أضافت : لي رغبة في أن أدام .

وفجأة دوى صوت عدو حصار : فترك المقدم « ديجليسون » يد زوجته ، وأدار رأسه نحو منعطف الطريق في ذلك المكان . ومعجود غياب نظر المقدم عن « جولي » اختفى تعبير البشاشة الذي طبعته طبعاً على وجهها الباهت اللون . كأن الوهج قد كُف عن إضاءته . وبقيت في ركن المركبة دون أي رغبة في رؤية المنظر مرة أخرى ، ودون أي فضول لمعرفة من هو الفارس الذي كان حصاره يعدو على ذلك النحو الغاضب . وثبتت نظرها على شعر أرداف الخيول الأمامية دون أن تتم عن أي عاطفة ، وكانت تبدو في غياء فلاح « برييتوي » (من مقاطعة برييتاني الفرنسية) في أثناء سماعه فدا من يوم الأحد من راعي الكنيسة . وخرج فجأة شاب فوق فارس تميز من غابة صغيرة من أشجار الحور والزغارير المزهرة .

قال العفيد : إنه إنجليزي .

أجاب السائق : أه ! يا إلهي ! نعم يا سيدي إنه من نوع الشباب الذي يريد التهام فرنسا على حد قولهم .

وكان الضمير أحد المسافرين الذين وجدوا أنفسهم على القارة الأوروبية .

عندما قبض « نابليون » على كل البريطانيين اقتصاصاً منهم لاعتداء حكومة « سان جيمس » (١) على القانون الدولي عند تقض معاهدة « إميان » . وبعد أن استسلم هؤلاء السبعاء لحوى القوة الإمبراطورية لم يبقوا جميعاً في الأماكن التي قبض عليهم فيها ، أو في الأماكن التي أطلق لهم أول الأمر حرية اختيارها . وأغلب الذين سكنوا في تلك الفترة مقاطعات والتورين كانوا قد نقلوا إليها من مختلف أنحاء الإمبراطورية ، حيث بدت إقامتهم ضيقة بمصانع نابليون في القارة الأوروبية . وكان الأمير الشاب الذي خرج يروح عن نفسه ملل الصباح ، واحداً من صحايا السلطة البيروقراطية . فمثل عامين صدر أمر من وزارة العلاقات الخارجية أدى إلى انتزاعه انتزاعاً من جو « مونييه » ، حيث فاجأه من قبل تصدع السلام وهو في عمرة من حرصه على الشفاء من علة بالصدر . وعندما تبين هذا الشاب عسكرية شخص الكونت « ديجليسون » بأذر بحثاشي نظراته بأن أدار رأسه نحو حقل سهره الشير .

قال المقدم وهو يتعمم : كل هؤلاء الإنجليز وقحبون كأن الأرض ملك لهم . من حسن الحظ أن المارشال « سولت » سيحقق بهم الإهانات . وعندما عبر السجين أمام المركبة نظر نحوها . وبرغم نظراته العجلى أمكنه عندئذ أن يعجب بتعبير الشجن الذي أعطي وجه الكونتيسة (١) أي حكومة بريتانيا .

المفكر جاذبية غير محددة . وهناك رجال كثيرون يتفعل قلبهم بشدة
لجهد مرأى العذاب عند المرأة ، فعندهم يكاد الألم يكون وعداً بالشباب
والحب . وكانت ، جولى ، مأخوذة تماماً بتأمل محبة فى المركبة فلم تعر
الفرس أو الفارس الثفاناً . وأتعبت تركيب « الحبر » بثافة ورشاقة ،
وصعد الكونت إلى المركبة . وجاهد السائق من أجل تطهير الوقت الضائع ،
واقتراد المسافرين بسرعة نحو الجزر الضائع على حافة الصخور المعلقة التى
تنصج فى وسطها أعقاب « فوقريده » وحيث تقوم منازل جميلة كثيرة ، وتظهر
عن بعد الأطلال الخاصة بدير « البارموتيه » حيث كان اعتزال القديس « مارونان » .
— ماذا يعنى منا إذن ذلك اللورد الذى لا يكاد يحجب « أورايد » ؟

بهذا صراح المقدم وهو يدور برأسه ليتأكد من أن الفارس الذى كان
يتبع مركبتهم منذ شهر ، الشير ، هو نفس الشاب الإنجليزي .

ولما كان الإنجليزي لم يחדش أى لياقة من لياقات الأدب وهو يتنزه فى
الطريق بين الجبل والنهر الخاص بالسد ، فقد عاد المقدم إلى ركوب
المركبة بعد أن ألقى نظرة تهديد نحو . ولكن المقدم لم يستطع برغم
كراهيته غير الإرادية أن يمنع نفسه من أن يلاحظ جمال الفرس
وأريحية الفارس ، فقد كان لذلك الشاب وجه إنجليزي ذو لون دقيق .
وبشرة ناعمة بيضاء إلى حد يكاد يدنو الناظر أحياناً إلى افتراض أنها
إلى جسم رقيق لفتاة شابة ! وكان أشقر اللون رفيعاً طويلاً . أما زيه
فكان ذا طابع أنيق نظيف ، تتميز به أزياء إنجلترا الحريضة على علم

خدش التفصيل . وبدأ كأنه يحمر خجلاً عن حيائه ، أكثر مما كان يحمر
خجلاً عن استمتاع بمظهر الكونتيسة .

رفعت ، جولى ، نظرها مرة واحدة نحو الغريب ، وكانت قد اضطرت
إلى ذلك بشكل من الأشكال عندما أراد زوجها أن يدفعها إلى الإعجاب
بسيقان الفرس الذى كان من جنس أصيل . وعندئذ فقط التفتت حيناً
« جولى » بعينى الإنجليزي الحجول . وعندئذ تلك اللحظة عمد إلى متابعة
المركبة على بعد خطوات بدلاً من أن يسير بقربه بالقرب منها .
ونظرت الكونتيسة إلى الرجل المجهول ، ولم ترفيه أى مزايا إنسانية
أو مروسية مما كان يوصف به ، وألقت بنفسها إلى أقصى المركبة
بعد أن أفلتت منها حركة خفيفة بخواجيها تصديقاً لرأى زوجها .
وعاد المقدم إلى النوم ، وبلغ الزوجان مدينة « نور » دون أن يقول أحدهما
لآخر أى كلمة ، ودون أن تجذب المناظر الساحرة فى المشهد المتغير
الذى جاسا خلاله فى أثناء الرحلة انبساط « جولى » ولو مرة واحدة .
إذ لم يكد زوجها ينطق فى النوم حتى شرعت السيدة « ديجليمون »
تأمل حيناً بعد حين على مدد متفاوتة . وفى أثناء آخر نظرة تلقيها عليه
أدّت إحدى رجات المركبة إلى سقوط نوط كبير بيضى معلق فى
رقبتها بسلسلة حديد المائى فوق ركبتى السيدة الشابة . وظهرت أمامها
فجأة صورة والدها . وترقرقت عيناها أمام هذا المشهد . وتخرج دمعا
بعد أن كان حزيناً . ومن المحتمل أن يكون الإنجليزي قد رأى آثار

الرطوبة والبريق التي خلقتها الدموع لحظة فوق حدود الكونتيسة الباهية اللون . ولكن سرعان ما جففتها الهواء . وكان المقدم « ديجليمون » مكلفاً من قبيل الإمبراطور بحمل بعض الأوامر إلى الماريسال « سولت » الذي كان عليه أن يدافع عن فرنسا إزاء غزو الإنجليز إقليم « البيارن » فاذن المقدم « ديجليمون » فرصة هذه المهمة كي يتشغل زوجته من الأخطار التي كانت تهدد « باريس » آنذاك ، ويوصلها إلى مدينة « تور » لدى قرية عجوز من أقربائه . وسرعان ما عبرت المركبة ملاط شوارع « تور » ، وسارت فوق الجسر إلى الشارع الكبير ، وتوقفت أمام قصر عتيق كانت تعيش فيه الكونتيسة « دي ليستومير لافلون » سابقاً .

وكانت الكونتيسة « دي ليستومير لافلون » سيدة من تلك السيدات المستات الجميلات ذوات اللون المصفر ، والشعر الأبيض ، والابتسامة الرقيقة ، وكأنها على رءوسهن سلال ، إذ تضي شعورهن قبعات مبهولة الزى . وكانت صورهن السبعينية ذات طابع قرن لويس الخامس عشر ، ولكنهن من السيدات الخفيات دائماً كما لو كن لايزلن في دور العشق ، وهن تقيات أقل مما هن وديعات ، وأقل ودياً مما يبدو عليهن الورع . وهن يظهرن المساحيق دائماً على طريقة سيدات « الماريسالات » ويجلدن الرواية ، ويتحدثن بطلاقة ، ويضحكن من إحدى الذكريات أكثر مما تضحكن المداعبة ، ولا تروقهن أخبار الأحداث .

ولما وصلت الخادمة لإبلاغ المكتيسة - إذ كان عليها أن تسترد لقبها عاجلاً - بزيارة أحد أبناء الأخوات الذي لم تره منذ بدء حرب أسبانيا ، نزعته نظارتها بنشاط ، وأقفلت صفحات « كتابها المفضل » دهليز البلاط القديم ، واستعادت رشاقها الخاصة في بلوغ المصطفية في اللحظة نفسها التي كان الزوج والزوجة يصعدان فيها السلم . وتبادلت الخاتمة والتقريبية ترائش النظرات في سرعة :

وصباح المقدم وهو يمسك بالسيدة العجوز ويقبلها متعجلاً :
صباح الخير يا خالي العزيزة . لقد جئت بك بامرأة شابة لرعايتها . بل جئت أعهد إليك بكزى . وليست « جولي » مدللة أو غيوراً . إنها ذات رقة ملائكية ، ولعلها لا تفسد هنا . . . أعظم ذلك . هكذا قال وهو يقطع نفسه .

أجابت الكونتيسة وهي ترجى إليه نظرة ساحرة : إنسان خليع . . . وسيفت المكتيسة « جولي » إلى المقدم بحرها في لطف محب خاص . وقبلتها . حتى بقيت « جولي » شاردة الفكر ، وبدأت مرتبكة أكثر مما بدا عليها الاستغراب .

قالت الكونتيسة مرة أخرى : سوف يتعرف أحدهما على الآخر إذن يا قاي العزيز . . . لا تخشيني كثيراً ، فأني أتعهد ألا أبذو كهواة على الإطلاق أمام الشياطين .

وقبل بلوغ غرفة الاستقبالات كانت الكونتيسة قد طلبت الطعام لضييفها حسب العادة في الأقاليم . غير أن الكونتيسة قاطع فصاحة خالته ليقول

لها بالهجة قاطعة إذ لم يستطع أن يعطى من وقته أكثر مما يسمح له وقت الخدمة بالتناوب . وعندئذ عجل الأقارب الثلاثة بالدخول إلى غرفة الاستقبال دون أن يجد المقدم الوقت الكافي ليروى لحالته الكبيرة كل أحداث السيامية . وأحداث الحرب التي اضطرتته إلى اللجوء إليها طالباً لإيواء امرأته الشابة . وتأملت الحالة بالتبادل في أثناء هذه الحكاية ابن الأخت الذي كان يتحدث دون مقاطعة ، وابنة الأخت التي كان أحقرارها وبؤسها يبدوانا تخميناً عن هذا الانفصال الذي لامدوخته عنه وكان حال أمرها يقول : هيه . هيه . هيه ! هذان الشبان يحب كل منهما الآخر . في تلك اللحظة دوت قرقعات كرنياح في القناء القديم الهادئ الذي كانت ملاطافته مرسومة بحزم من العشب . فقيل « فيكتور » الكونتيسة مرة ثانية . واندفع خارج البيت .

وقال وهو يقبل زوجته التي تبعته حتى باب المركبة : وداعاً يا عزيزتى ... فقالت هي بصوت محبب : أوه يا « فيكتور » دعنى أصحبك إلى أبعد من هذا . ما كنت أود أن أبتعد عنك ...

— هل تعتقدين ذلك ؟

أجابت « جولى » : وداعاً إذن الآن ما دامت هذه رغبتك . وانخفضت المركبة .

سألت الكونتيسة ابنة الأخت . وهي تستفسر منها إحدى تلك النظرات الفاحصة التي تلقيا السيدات المسنات نحو الشباب :

أنت إذن تخمين ابن أختي المسكين « فيكتور » حياً كبيراً ؟
أجابت « جولى » : وأسفاه ! يا سيلى أليس من الضروري أن يحب الرجل تماماً لكي تزوجه ؟

وكانت هذه العبارة الأخيرة ذات نبرة دالة على هجة السلاحة التي كشفت دفعة واحدة كل القلب البريء والأمور العميقة . غير أنه كان من العسير على سيدة كانت صديقة « ديكلو » والماريشال « ريشيليو » ألا تسعى للتخمين بشأن مر هذا الزواج الحديث العهد . وكانت الحالة وابنة الأخت كلناهما في تلك اللحظة على غتبة الباب الخاص بالعربات ، مشغولتين بالنظر إلى المركبة المخفية . ولم تكن عينا الكونتيسة تعبران عن الحيب على النحو الذي اعتادت الماركيزة أن تفهمه . فقد كانت السيدة الكريمة من إقليم « البروفانس » كما كانت عواطفها حية .

سألت قريبتها : لقد تركت نفسك إذن لئلا تسخوذ عليك ابن أختي الخليل ؟

فارتعدت الكونتيسة دون إرادة منها . لأن نبرة الكلام ، ونظرة تلك العجوز المدللة ، ظهرت كأنها تنذر معرفة ظاهراً « فيكتور » معرفة تكاد تكون أكثر عمقاً من معرفتها هي نفسها . وحاولت السيدة « ديجليمون » إذ أحست بالقلق أن تتخفى في لوح من المداراة الحرقاء التي تمثل أقرب ملاذ تلجأ إليه القلوب الساذجة المتألمة . وتقبلت السيدة « دي ليستومير » إجابات « جولى » ولكنها اعتقدت في غير قليل من

الاستعاج أن عزلتها سوف تحشد بعض أسرار الحب ، لما بدا على قريبتها من أنها تحتفظ بعقدة روائية تسلي من يتابعها .

وعندما وجدت السيدة « ديجليمون » نفسها في غرفة الاستقبال الكبيرة ذات السجاجيد الملونة بقضبان لينة مدهية ، وجلست أمام النار المشتعلة محتبة من رياح الشبايك وراء « يارافان » ضيبي ، لم تستطع تعاسها أن تتشع . وكان من الصعب أن تبرز الفرحة تحت أغطية الحوائط القديمة إلى ذلك الحلة بين الأثاثات العريقة . ورغم ذلك وجدت الباريسية الشابة نوعاً من المتعة في التناد إلى هذه العزلة العميقة ، وإلى ذلك العنست الحقيق الخاص بمناطق الأقاليم .

وبعد أن تبادلت بضع كلمات مع الحاملة التي كانت قد بعثت إليها منذ بعض الوقت خطاباً في مسهل أيام عزمها ، بقيت صامتة وكأنها قد استعنت إلى موسيقى الأوبرا . وبعد ساعتين من الخدود اللاتق بهذا المكان الشبيه بالدير ، وجدت أن هذا ليس من الأدب في شيء . نحو الحاملة ، وقد كرت أنها لم تجبها إلا بإجابات باردة . وكانت السيدة العجوز قد احترمت عناد قريبتها بتلك العريضة اللينة بالعطف الذي امتاز به الناس في العصر السالف . وظلت الأرملة تعمل في « التريكو » أو الزرد في تلك اللحظة . وكانت في الحقيقة قد تغيبت مرات عديدة حتى تعد الغرفة للحضراء التي وضع فيها أهل البيت الحفائب ، والتي كان مقدراً للكونتيسة أن تنام فيها . ولكنها عادت فاحتلت مكانها في

مقعد ضخم ، وظلت تنظر خلسة إلى السيدة الشابة . وأحست « جولي » بالحجل ، لأنها سرحت مع تأملاتها التي لا تقاوم ، فحاولت أن تعتذر عن ذلك ساخرة من مرقفها .

فقالت الحاملة : يا عزيزتي الصغيرة ... نحن نعرف ألم الأرملة . وكان لا بد أن يكون المرء في سن الأربعين حتى يفتن إلى السخرية التي عبرت عنها شفتا السيدة العجوز .

وفي اليوم التالي كانت الكونتيسة في حالة أفضل ، إذ أثبتت على الكلام . ولم تعد السيدة « دي ليستومير » تأس من أن تستأنس بهذه الزوجة الشابة التي حكمت عليها أول الأمر بالنفور والغباء ، وحدثتها عن مصادر المتعة في الإقليم . وعن الحفلات والبيوت والأماكن التي تستطيع التردد عليها . وكانت جميع أسئلة المازكية في أثناء ذلك اليوم أثبه ما تكون بالمصايد التي لم تستطع - وفقاً لعادة قديمة من عادات البلاط - أن تمنع نفسها من أن تضعها في طريق قريبتها . حتى تستخلص طابعها . وقامت « جولي » كل إلحاح عليها في أثناء بعض الأيام ، بالخروج نجماً عن اللهو . ورغم رغبة السيدة العجوز في أن تخرج للترفة مع قريبتها الحميمة زهواً بها اضطرت في النهاية إلى التخلي عن أملها في اقتيادها إلى بعض الأوساط . ووجدت الكونتيسة مسوغة لعزلتها وتعاسها في حزمها على أبيها الذي لا تزال تلبس الحداد عليه .

وبعد ثمانية أيام أعجبت الأرملة بالرقعة الملائكية ، واللطف المتواضع

والروح المتساحمة التي جمعت بها « جولي » واحتست منذ ذلك الحين اهتماماً بالغاً بالاكتمال الغريب الذي ظل يقرض أطراف ذلك القلب الشاب . لقد كانت الكونتيسة من النساء المخلوقات ليكن محبوبات ، واللائي يأتين بالحير . وصار معشرها المخلو عجباً غريباً لدى السيدة « دي ليستومير » حتى بدأت تهم بها . ولا ترغب إطلاقاً في مغارقتها . وكان أشهر الواحد كافياً لإنشاء صداقة أبدية بينهما .

ولاحظت السيدة العجوز تعجب تلك التغيرات التي طرأت على صحتها السيدة « دي جليسمون » فقد انطفأت الألوان الحية التي كانت تضرع بشرتها إلى حد غير معقول . وأخذ الوجه ألواناً صفراء باهتة . وعندما فتحت « جولي » تألقها البدائي صارت أقل تعاسة . وكانت الأرملة أحياناً توقف لدى قريبها الشابة دفعات من المرح ، أو من الضحك المتفكك فلا يلبث أن يدوي مع فكرة مزعجة طارئة . وخصت أنه ليس ذكرى أيها ولا غياب « فيكتور » سبب هذا الاكتمال العميق الذي ألقى حجلاً على حياة القرينة . ومرت بها وساوس سيئة عديدة حتى لم تستطع أن تثقف على السبب الحقيقي للداء . لأنها قد لا تلتقي بالسبب الحقيقي إلا بالمصادفة .

وأخيراً ، وفي ذات يوم صارت « جولي » تمثل في نظر الحالة المندمسة النسيان الكامل للزواج . وجنون الفتاة الشابة الحفقاء . ورعونة الفكر . كالطفولة الحذيرة بالستين الأولى . بل كل تلك الروح الرقيقة التي

تبلغ أحياناً عمقاً كبيراً ، ويتميز بها الشبان في فرنسا . فغضت السيدة « دي ليستومير » عندئذ على أن تسيّر غور الأسرار الخاصة بهذه الروح التي كان وضعها الطبيعي البائع معادلاً للتصنع والمداراة بحيث لا يمكن النفاذ منها إلى ما وراءها . واقترب الليل عندما كانت السيدتان جالستين أمام نافذة مظلة على الشارع . وعادتا « جولي » حالة التفكير عندما مر رجل على قوس .

قالت السيدة العجوز : ها هو ذا أحد ضحاياك !

فتظرت السيدة « دي جليسمون » إلى الحالة مبهمة دهشتها المزروعة بالقلق . فقالت الكونتيسة :

— إنه شاب إنجليزي . . . وهو شريف من الشرفاء . . . صاحب الرفعة « آرثر أوزموند » ، الابن الأكبر للورد « جريغفيل » وقصته جذيرة بالاهتمام . إذ جاء بناء على نصيحة من أطبائه إلى مدينة « مونبلييه » سنة ١٨٠٢ على أمل شفائه — تحت تأثير جو الإقليم — من مرض صدرى نزل يده فوقع في الأمر مع بقية أبناء وطنه جميعاً ، بناء على أمر « بونابرت » عندما وقعت الحرب . إذ لم يكن هذا الوحش قادراً على الاستغناء عن القتال . ومن باب اللهو عكف هذا الإنجليزي الشاب على دراسة مرضه الذي كان في ذلك الوقت من الأمراض المميتة ، ورويداً رويداً بدأ يهوى التشريح ثم الطب ، بل أخذ يشغف بهذه الأنواع من الشؤون شغفاً كبيراً . وهو أمر شديد الشبه بالنسبة إلى الرجال المرموقين ،

ولكن الوحي على العرش كان من المعين بالكسباء ! وباختصار
تقدم السيد « آرثر » تقدماً مذهلاً حتى لدى أساتذة « مونتلييه » فكانت
الدراسة عزاءه في الأمر واستطاع أن يشق نهائياً في الوقت نفسه .
ويقال إنه ظل سنتين دون أن ينس بيت شقة ، فيتنفس قليلاً وهو مستلق
في إحدى الحظائر يشرب البقر القادم من « سويسرا » ويتغذى
بالجرجير . ومنذ وصل إلى مدينة « نور » لم ير أحداً . وبدأ مزهواً
كالطاووس ، ولكنك عزوت قلبه بالثأكيد : لأنه ليس محتملاً أن
يكون مروره تحت نافذة تلميذتين كل يوم منذ - وصلت أنت إلى هنا -
من أجل أنا ومن المؤكد أنه نجح .

أيقظت هذه الألفاظ الأخيرة الكونتيسة وكأنها كانت سحراً ،
وأبدت حركة وابتنامة أدهشتا الماركةيزة . وظلت نظرة « جولي » أسياقة
باردة دون أن يندر منها ذلك الرضا العرزي الذي تستشعره أشد النساء
صرامة . عندما تعلم مدى تأثيرها على شقاء إنسان . وعبر وجهها عن
شعور بالنفور أشبه ما يكون بالاشمئزاز . ولم يكن هذا العزل الكامل الذي
تضرب به امرأة عاشقة الدنيا كلها عرض الخاطئ من أجل مخلوق واحد .
إنها تعرف بلاشك الضحك والمرح . . لا . . لقد كانت « جولي »
حينذاك كشخص تدفعه ذكرى خطر شديد حاضراً إلى استعمار الألم .
وكانت الحالة مقتنعة تماماً بأن قريبها ليست عاتقة لزوجها ابن
الأخت . ودعلت لذلك تماماً حين اكتشفت أنها لا تحب أحداً .

وارتعدت حين وجدت في « جولي » شخصاً غير سعيد . أو امرأة
شابة كلفتها تجربة يوم أو تجربة ليلة لتقدير عدم أهلية « فيكتور » .
وقدربت الماركةيزة في بالها . إذا كانت تعرفه فهذا هو كل السر . سوف
يعانى ابن اخي قريباً من أضرار الزواج .

وعندئذ اقترحت فيما بينها وبين نفسها أن تحوّل « جولي » إلى عقائد
المذاهب الملوكية في قرن « لويس » الخامس عشر . ولكنها بعد ذلك
بساعات عرفت - أو لعلها خمنت - الموقف الشائع إلى حد ما في
العالم المحيط بالكونتيسة . والذي يرجع إليه اكتئابها . وعندما صارت
« جولي » متفكرة فجأة انسحبت إلى غرفتها أكثر تذكراً مما اعتادت .
وبعد أن تولت نجاحاتها خلع ملابسها . وفارقها لتستعد للنوم . جلست
أمام المدفأة عاكسة في أريكة وثيرة ذات مسند من القطيفة الصفراء .
وهي قطعة من الأثاث العتيق الذي يرغب فيه المكرويون والسعداء
على السواء . وبكت وتهدت وعملت فكرها . ثم أخذت منقصة صغيرة
وبحثت عن الورق . وشرعت تكتب . ومرت الساعات سريعة .
وبدت المناجاة المكشوفة التي وضعها « جولي » في هذه الرسالة كأنها
قد كلفتها غالياً . بحيث ساقها كل عبارة إلى تخيلات طويلة وقجاة
فاقت بالسيادة الشابة الدموع وتوقفت .

وفي تلك اللحظة دقت الساعة الثانية صباحاً . ومال رأسها الذي
كان في ثقل رأس امرأة يسيل الموت فوق صدرها . وعندما أعادت

رفعه رأيت « جولي » خالتها وقد برغت فجأة كشخص انفصل عن
السجادة المعلقة فوق الحائط .

قالت لها خالتها : ماذا بك إذن يا صغيرتي لماذا السهر إلى هذا
الوقت المتأخر ؟ ولماذا البكاء بحاجة على أفراد في مثل منك ؟
وجلست بغير تكلف بالقرب من قريبتها ١ والتمت عيونها الرسالة
التي كانت قد بدأتها .

— كنت تكتنين إلى زوجك !

فأجابت الكونتيسة : وهل أعرف أين هو ؟

وتناولت الحالة الرسالة وقرأتها . وكانت قد أحضرت معها نظاراتها :
كأنما توقعت سلفاً ما حدث . وتركتها المخلوقة البريئة تتناول الرسالة دون
أن تبدي أقل ملاحظة ٢ ولم ينتزع منها كل طاقتها أي عيب من عيوب
الكرامة ، ولا أي شعور بالخطيئة الخفية . لا .. إذ التفت الحالة
هنالك بالخير كما التفت بالشر ، والتفت بالضمت كما التفت بالمناجاة
و بموضع السر في إحدى اللحظات الأزمة عندما تكون الروح بغير ذريعة
ويكون الكل سواء . وكانت « جولي » أشبه ما تكون بالفتاة الشابة العفيفة
التي تضي عيباً من جراء الاستخفاف به ، ولكنها في الليل تجد نفسها
تعيية مهجورة إلى حد أن ترغب فيه ، وتبحث عن قلب تأوي إليه
بمتاعها . فتركت الرسالة واستسلمت . وقد أخذت تلاحش ما يدورها من

الرقعة المغموسة على خطاب مفتوح دول أن تبس بث شفة ، وبقيت
مبتكرة أثناء قراءة الماركة الرسالة .

عزيزتي لويز

قيم يفيد الناس تحقيق الوعد العائم الذي تعاهدت عليه شابتان
جاهلتان مرات عديدة ؟ لقد كنت إلى تقولين إنك غالباً ما تساءلت :
لماذا لم أحب عن استفساراتك منذ ستة أشهر ؟ فإذا لم تكوني قد فهمت
صمتي قلحك اليوم تخمين سبب ذلك . عندما تعلمين الأسرار التي
سوف أفشيها . لقد كنت عرفت على أن أدفنها إلى الأبد في قرار قلبي
ما لم تخاطري بزواجك القريب . سوف تتزوجين « بالويزا » وهذه الفكرة
وحدها نجعلني أرعد . يا صغيرتي المسكينة تروحي ، ثم بعد أشهر
قليلة سيتزلزل بك قدم حاد من جراء ذكرى ما كنا عليه قبل وقت مضى .
عندما وصلنا كلتانا إلى مدينة « أسكروان » في أعلى سلاسل الجبل ،
وجعلنا نتأمل الوادي الجميل الذي كان تحت أقدامنا ، وأعجبنا فيه
بأشعة الشمس الغارية التي كان يريقها بغيرها ، وجلسنا فوق قطعة من
الحجر ، واستغرقنا في النهار تلاء أرق الاكتئاب .

وكنتم الأولى حين شعرت بأن هذه الشمس البعيدة تحدثنا عن المستقبل ؟
وكنا غريبتين محبوتين في ذلك الحين . هل تذكرين كل هدياننا !
وكنا نتبادل القبلات كعاشقين على حد تعبيرنا آنذاك . وأقسمنا بأن
التي تتزوج قبل الأخرى تروي لها بإخلاص تلك الأسرار الخاصة

يزفاف البكارة . وكل المتع التي نفحتها أرواحنا الطفولية في شكل ليله .
 ستكون تلك الليلة سيباً في يأسك يا لوريزا .

في ذلك الوقت كنت شابة جميلة . غير مكترثة بل سعيده .
 ومسيحوتك الزوج في أيام قليلة إلى ما أنا عليه الآن : قبيحة متأللة ،
 عجوز . سيكون من الجنون أن أقول لك إلى أي حد كنت مزهوة
 ومغرورة وسعيده بزواجي من المقدم « فيكتور ديجليسون » بل كيف
 أقول لك ذلك ؟ إني لم أعد أذكر أنا نفسي شيئاً . في ثوان قليلة
 ضارت طفولتي كحلم ، ولم تكن قدرتي أثناء النهار الشرعي الذي
 اقتص بالرباط الذي كنت أجهل آماده خالية من المزاخلات . فقد
 حاولت أي أكثر من مرة أن يهبط من قرحي . لأنني كنت أبدى من
 المبالغ ما كان يعد غير لائق . وأوحت أقوال بالدهاء لسب بسيط
 هو أنها كانت خالية من الدهاء . وفيت بالآلاف الأعمال الصبيانية
 بجمار الزفاف وبالرداء والزهور . وفي المساء — عندما صرت على انفراد
 في الغرفة التي قادوني إليها في غاية الأبهة — خطرت لي بعض الشيطنة كي
 أدفع « فيكتور » إلى الخيرة . وفي انتظار مجيئه أحسست بدقات قلبي
 مثلما أحسست بها حينما تملكنتي قديماً في الأيام الخاصة باحتفالات
 الأعياد في ٣١ ديسمبر . عندما تقدمت — دون أن يراني أحد — إلى غرفة
 الاستقبال حيث تكومت هدايا رأس السنة .

وعندما دخل زوجي بحث عني ، وإذا ضحكتي المكبوتة التي

انطلقت من فمي تحت أغلبية الشاش الموصل الناعم التي أحاطت بي .
 كانت آخر صيحة لتلك الفرحه الرقيقة التي بعثت الحياة في ألعاب
 طفولتنا ...

عندما انتهت الأرملة من قراءة هذه الرسالة التي بدأت على هذا النحو
 وكان ضرورياً أن يحتوي على ملاحظات تعيسة جداً . وضعت نظارتها
 بيضاء فوق المنفردة . ووضعت فوقها الرسالة في الحال . وركبت على
 قريتها عينها الخضراوتين اللتين لم تكن وقديهما المضيفة قد وضعت
 بعد بتأثير السن . وقالت : يا صغيرتي . لا تستطيع عبيدة متروجة
 أن تكتب على هذا النحو إلى فتاة شابة دون أن تقصر في شئون اللياقات .
 أجابت « جولي » وهي تقاطع الحالة : وهذا هو ما اعتقلته وقد
 شعرت بالحجل من نفسي عندما كنت ثموتيه ...

عادت العجوز تقول ببساطة مفردة : لا ينبغي — إذا لم يرقنا صنف
 من أصناف الأسكى على المائدة أن نبعث غيرنا على القرف منه
 يا طفلي . . . ولا سيما أن الزواج قد بدا شيئاً ممتازاً من أيام حواء إلى
 اليوم . . . ألم نعد لك أم ؟

فارتعشت الكونتيسة . ثم رفعت رأسها بركة . وقالت : منذ عام
 وأنا لا أكن سلفاً عن الندم بشأن أمي . ولكنني أخطأت في أني لم أصنع
 للكراهية التي أبدتها أبي وهو يرفض أن يصبح « فيكتور » صهراً له .
 ونظرت إلى الحالة . فجففت دموعها الرجاءه ابتهاج . حينما تحت

معالم الطبيعة التي يعثت الحياة في ذلك الوجه المسن . وملت يدها الشابة إلى الماركةيزة التي بدت عيناها مغريتين . وعندما تضاعفت أصابع كل منهما كانت المرأتان قد بلغتا غاية التفاهم .

أضاعفت الماركةيزة : أينما اليئسة المسكينة .

وكان ذلك بصيصاً أخيراً من النور بالنسبة إلى «جولي» إذ اعتقدت أنها لا تزال تسمع صوت النبوة على لسان أبيها .

سألت المرأة العجوز : إن يديك مشتعلتان من السخونة !
أحما كذلك دائماً ؟

وأجابت «جولي» : لم تفارقني الحرارة المرتفعة منذ سبعة أيام أو ثمانية .

— كانت حرارتك مرتفعة وأخفيت ذلك عني !

قالت «جولي» بنوع من القلق المحجول : إنها عندي من سنة .

— على ذلك لم يكن الزواج حتى اليوم بالنسبة إليك ياملاكيني

الصغير إلا أننا ملويلا ؟

لم تجز المرأة الشابة على الإجابة ، ولكنها أنت بحركة إيجاب فضحت

كل معاناتها .

— أنت إذن تعيسة ؟

— أوه لا يا خالي «فيكتور» ، يجني حب العباد ، وأنا أعينه ...

فهو طيب جداً .

نعم أنت تحببه ، ولكنك تهربين منه . اليس كذلك ؟

نعم .. بعض الأحيان .. إنه يبحث عني غالباً .

— ألسنت غالباً مضطربة في العزلة خوفاً من مفاجاته لك ؟

وا أسفاه ! فعلاً يا خالي . ولكنني أؤكد لك أني أحبه كثيراً .

— ألم تكوني تهسين نفسك سرّاً بأنك أنت نفسك لا تعرفين أولاً تملكين

القدرة على أن تشاركيه متعنه ؟ ألم تكوني تعتقدين أحياناً أن الحب

المشروع أشد قسوة في عينه من أي عاقبة إجرامية ؟

قالت «جولي» وهي تبكي : أوه ! هو كذلك . أنت تخمنين كل

شيء إذاً حينما كان كل شيء لغزاً بالنسبة إلي . لقد فترت حواسي

وصرت بغير أفكار . وهأنذا أكابد العيش . لقد كنت روجي خوف

مبهم يثالج عواطفى ويبقى في فتور مستمر . وقد أصبحت فاقدة

التعلق لكي أشكو لنفسي وبغير أقوال تعبر عن ألمي ، إنني أعذب

وأحجل من عذابى عند رؤيتي «فيكتور» سعيداً بما من شأنه أن يودى لي .

صاحت الحالة التي حيي وجهها الجاف فجأة بإبتسامة مريحة عكستها

مباهج شبابها : هذه صبيانيات ، هذه كلها حماقات !

قالت المرأة الشابة في يأس : وأنت أيضاً تضحكين !

أجابت الماركةيزة بسرعة : لقد كنت أنا كذلك . أما وقد تركك

«فيكتور» الآن وحيدة ، ألم تعودى فتاة شابة هادئة بلا منع ولكن

بدون آلام .

فتحت ، جوى ، عينيها الواسعتين ببلاهة ، واستطردت المركيزة :
على أى حال ياملاكى أنت تعبدين ، فيكتور .. أليس
كذلك ؟ ولكنك كنت تفضلين أن تكونى أخته لا زوجته حيث إن
الزواج لا يصلح لكما .

— آه .. فعلا يا خالى . ولكن لماذا تتسمين ؟

— أوه ! معك حق يا طفلى المسكينة ، إذ ليس فى هذا كله
مدعاة للسرور . وسيكون مستقبلك مليئا بأكثر من شقاء ما لم أحذب
عليك ، وما لم تظن تجربة عمرى الطويل إلى سبب أحزانك الساذج ،
إن ابن أختى لم يكن يستحق حفظه السعيد .. ذاك الأبله !! فى عهد
محبوبنا لويس الخامس عشر إذا وجدت امرأة مثابة فى مثل موقفك ، كان
ينبغي فى الحال أن يعاقب زوجها على سلوكه كجندى مرتزق ،
ذاك الأحمق ! أما العسكريون فى عصر هذا الطاغية الإمبراطورى فكلهم
جهالة أشرار . ويأخذون القسوة بديلا عن الشهامة ، ولا يعرفون النساء
أكثر مما لم يعرفوا كيف يحبون ، ويعتمدون أن الذهاب إلى الموت
فى الغداة يخليهم من أية اعتبارات أو اهتمامات مبدولة حيالنا .
لقد كانوا قديما يعرفون كيف يحبون بنفس البراعة فى معرفة كيف يموتون
فى الوقت المناسب . يابنة الأخت ، سوف أقوم بتأديبه من أجلك ،
وسأضع حدا لهذا التصدع العيس ، الطبيعى إلى حد ما ، الذى كان
سيقودكما إلى كراهية أحكما الآخر وإلى قننى الطلاق إذا لم تكونى



قد بلغت الموت قبل بلوغك البأس .

أصغت و جوى إلى خالتها باستغراب وباندعاش متعادلين عند مماعها هذه الأقوال التي استطاعت أن تستشعر حكمها أكثر من أن تفهمها . وأحت بالدعر عند سماع الحكم الذي أصدره أبوها بشأن فيكتور ، على قم ، قريبة ، ذات تجربة ولكن بتعبير أرق .

وأصابها حدس عارم بمستقبلها ، فأحست بلا شك بشقل شفاها الذي كان يحتم فوق صدرها بالضرورة ، لأنها لم تلبث أن ذرفت الدموع ، وألقت بنفسها بين ذراعي السيدة العجوز وهي تقول لها : كوني أمي ، أما الحالة فلم تلبث ، لأن الثورة أيقنت لنساء الملكية القديمة دموعاً قلبية في العيون ، فقد عمأ الحب ، ثم الرعب مؤجراً جعلاهن يألفن الحوادث المؤثرة الحادة بحيث صرن يحتفظن وسط أخطار الحياة بالكرامة الباردة وبالمودة الصادقة بغير مظاهر . وهذا من شأنه أن يسمح لمن بأن يكن دائماً محلصات لأصول اللياقة ، ويوفر لمن نبل الهيئة الذي صارت الأخلاق الجديدة ترفضه عن خطأ .

أخذت الأرملة المرأة الشابة بين ذراعيها وقبلت جبهتها برفقة ولطف معهودين غالباً في أساليب وعادات مثل هاتيك النساء أكثر مما في قلوبهن ولاحتقت قريبتها بأموال رفيقة ، ووعدتها بمستقبل سعيد ، وهددها بعودة غرامية لكي تعينها على النوم كما لو كانت ابنتها هي . ابنتها الحبيبة التي تتحول آلامها وآمالها إلى آلامها وآمالها الخاصة بها هي .

وكالت ترى نفسها أمام شياها ، فتخيلت نفسها جميلة وبلا تجربة كقريبتها . وصارت الكونتيسة تغط في النوم سعيدة بقاء صديقة وأم تستطيع أن تروى لها كل شيء برغم ذلك .

وغداً ذلك اليوم صباحاً في الملاحظة التي كانت إحداها تقبل الأخرى في عجة قلبية حميقة ، وفي جو من التفاهم الذي يبرهن على تقدم عاطفي وعلى توافق أكثر اكتمالا بين رويها . سمعتا خطوات فرس فأدارتا رأسيهما في وقت واحد ، وحماتا الشاب الإنجليزي الذي كان يمر متباطئاً كعادته . وكان واضحاً أنه قام بدراسة معينة للحيدة التي اعتادتها السيدتان الوحيدتان . وأنه لم يكن يتخلف قط عن المرور وقت غداًهما أو عشائهما .

وكان فرسه يتباطأ في خطواته بلا حاجة إلى إشارة ، ثم يلقى آثاره بنظرة مكشبة خلال الوقت الذي يقضيه في عبور المكان فيما بين شياكي غرفة الطعام ، فيشعر بالإهانة أغلب الوقت من الكونتيسة التي لا تبدل تحية أدنى انشاه . غير أن الماركيزة — وقد اعتادت هذه الغرايات الركبكة المتعلقة بصفاير الأشياء مما يبعث الحياة عادة في الأقاليم ، ولايكاد يحمي نفسه منها أكبر العقول إلا بصعوبة — صارت تجد تساية في هذا الحب الخجول الخاد الذي كان الإنجليزي يعبر عنه بطريقة مضجرة . وصات نظراته الدورية شبه عادة بالنسبة إليها . وعمدت إلى الإعلان عن عبور آرثر في كل يوم بمداغبات جديدة . امرأة في الثلاثين

وعندما كانت السيدتان تجلسان إلى المائدة كانتا تنتظران في آن معاً إلى رجل الجزيرة ، البريطاني « البريطاني » والتقت بهما « جولي » و « آرثر » أو « آرثر » في تلك المرة في شيء من الإيضاح العاطفي : بحيث أحمر وجه السيدة الشابة . وفي الحال حمز الإنجليزي حصانه ورجل به علواً .

قالت جولي للحالة : ولكن يا سيدتي ما العمل ؟ لابد أنه من الثابت لدى الناس الذين يرون هذا الإنجليزي عابراً من هنا أنى ...

أجابته الحالة مقاطعة كلامها : نعم !

— هيه ! طيب . ألا يمكن أن نطلب منه عدم التنزه على هذا

النحو ؟

— أليس في هذا إخطار بأنه ذو خطورة ما ؟ وفضلاً عن هذا هل في إمكانك أن تمنعي رجلاً من الذهب والمجنىء شيئاً حلالاً ذلك ؟ منذ الغد لن نتناول طعامنا في هذه الغرفة . وعندما لا يرافنا ذلك الشاب الوجه بعد اليوم سيكشف عن حبه لك عن طريق النافذة . هنكذا يا حلفتي العزيزة تنصرف المرأة ذات الخبرة بالحياة .

غير أن شقاء « جولي » كان يجب أن يكون كاملاً . إذ لم تكف السيدتان تنهضان من المائدة حتى وصل فجأة خادم « فيكتور » لقد جاء من مدينة « بورت » متجشداً السفر حقيقة خلال الطرق الملتوية كي يحمل إلى الكونتيسة رسالة من زوجها . فقد هجر « فيكتور » الإمبراطور وأعلن إلى زوجته سقوط الحكم الإمبراطوري والاستيلاء على

« باريس » والحماش الذي انتحجراً تأييداً لأسرة « البوربون » في كل المواقع الفرنسية . ولما كان لا يستطيع الوصول إلى مدينة « نور » فإنه يرجوها الحين في سرعة كبيرة إلى مدينة « أورليان » التي يأمل أن يكون موجوداً فيها حاملاً جواز السفر لها . وكان على هذا الخادم ، وهو جندي سابق أن يرافق « جولي » من « نور » إلى « أورليان » حيث لا يزال الطريق بينهما حراً في اعتقاد « فيكتور » .

قال الخادم : ليس أمامك يا سيدتي أي وقت .. فالتساويين والبروسيون والإنجليز سوف يلتقون في نقطة تقاطع عند مدينة « بلوا » أو عند « أورليان » .

واشتعلت المرأة الشابة في بضع ساعات ، ورحلت في عربة سفر قديمة أعارها لها الحالة ، وقالت وهي تقبلها : لا ذار لا تجيبين معنا إلى باريس ؟ الآن وقد استعاد البوربون أنفسهم سوف تجدن ههناك ..

— لو لم تكن الرحلة غير مضبوطة النجاح لحضرت معكما يا صغيرتي المسكينة ، لأن نصائحي ضرورية جداً لك و « فيكتور » وسوف أعد كل ما يلزم كي ألتقي بكما .

ورحلت « جولي » في رفقة خادمها والجندي السابق الذي كان يخدم بخصائه قرب المقعد ساهراً على سلامة سيدته . وعند الليل كانت « جولي » قد وصلت إلى إحدى المحطات قبل « بلوا » وشعرت بالخوف لسماعها صوت عربة تمضي تخلف عربتها ولا تفارقها منذ « أمبواز »

فعمدنا إلى الكوة الصغيرة لتتحقق من شخصية رفقائها في السفر .
ومساعدتها ضوء القمر على رؤية أثر أو أثر أو وقفاً على بعد ثلاث
خطوات منها . وعيناه تحملاً أن نحو عقدها . والتفت نظراتهما .
فالتفت الكونتيسة بنفسها بشدة إلى ركن عربتها . ولكن يشعور
الخوف الذي جعل قلبها يخفق . وكانت تعتمد في خطبة الحب الموحى
به بغير زيادة إلى أحد الرجال . شأنها شأن غالبية السيدات الشابات
الساذجات حقيقتة وقليلات التجارب . فقد امتشعرت فزعاً غريباً
قد يكون مصدره الشعور بضعفها أمام اقتحام جريء من هذا الطراز .

ومن أسلحة الرجل القوية جداً قدرته الخفية على أن يشغل بال امرأة
ذات تخيال راكدة تفرغه أو تسوقه المتابعة . وتذكرت الكونتيسة قصيدة
الحالة . وقررت أن تبقى في نهاية مقعدها بالعربة في أثناء الرحلة دون
أن تخرج منها . ولكنها كانت تسمع الإنجليز وهو يخطو حول العربتين
عند كل محطة . وفوق ذلك كانت ضوضاء مركبته المزعجة تلوى على
الطريق بلا توقف في أذني « جيول » . وقدبرت المرأة الشابة أنها سرعان
ما سوف تجتمع بزوجها وأن « فيكتور » سيكون المدافع عنها ضد ذلك
التعذيب الفريد .

— ولكن ماذا لو كان ذلك الشاب لا يحبني برغم هذا ؟

هكذا وصلت في نهاية تفكيرها إلى هذه العبارة . وعندما وصلت إلى
« أورليان » كان « البروسيون » قد استولوا عليها بكرسي عربتها . وقادوها

في حراسة الجنود إلى فناء الفندق . ولم تكن المقاومة ممكنة . وشرح
الأجانب للمسافرين الثلاثة بالإشادات الآمرة أنهم قد تلقوا الأمر
بعدم خروج أي شخص من عربته . بقيت الكونتيسة تبكي مدة
ساعتين تقريباً وهي مسجونة وسط الجنود الذين كانوا يدخلون ويخرجون
ويشربون إليها أحياناً نظرة متطلعة وقحة . ولكن في النهاية رأهم يتابعون
عن العربة يتوج من التوقير عند سماعهم ضوضاء جيول كثيرة .
وسرعان ما أحاطت بمقعد العربة فرقة من الضباط الأجانب من ذوي
الرتب الكثيرة التي كان على رأسها ضابط نمساوي .

قال لها اللواء : يا سيدتي تفضلتي بقبول اعتذارنا . فقد حدث خطأ
ويمكنك مواصلة رحلتك بلا خوف . وهناك جواز سفر يملك برغم
ذلك كل ألوان الإذلال .

وتناولت الكونتيسة الأوراق وهي ترتجف . وتمتمت بأقوال غامضة ،
وشاهدت بالقرب من اللواء « آرثر » في بدلة ضابط بريطاني . وهو الذي
كان له الفضل بلا شك في إنقاذها بسرعة . وأدار الشاب البريطاني
رأسه في فرح واكتئاب معاً ولم يحرف على النظر إلى « جيول » إلا لحظة .

ووصلت السيدة « ديجليسون » إلى باريس بفضل جواز السفر دون
أي حادثة مكدرة . وهناك التقت بزوجها الذي أفلت من بين الولاة
للإمبراطور . فكوفي بحفاوة بالغة من قبل الكونت « دارتوا » الذي
عينه أخوه « لويس » الثامن عشر عييداً للمملكة . وحصل « فيكتور »

في الحرس الخاص على درجة بارزة جعلته في رتبة لواء .

وبرغم ذلك ، وسط كل هذه الاحتفالات التي أبرزت عودة « البوربون » كان شرميق مؤثر على حياته قد هجم على « جولي » المسكينة ، إذ فقدت الكونتيسة « دي ليستومير لاندون » . فقد ماتت السيدة العجوز من الفرح ، وحدث لها جلطة في القلب عندما شهدت ذوق « دانيوليم » في « نور » من جديد . وهكذا ماتت تلك التي كانت ستها تحول لها الحق في نصيحة « فيكتور » والوحيدة التي كان يمكنها بإرشادات ماهرة أن تجعل التوام أكثر وفاقاً فيما بين الزوجة والزوج . وأحست « جولي » بمدى فداحة هذه الخسارة ، ولم يعد بينها وبين زوجها سواها نفسها . غير أنها شابة جميلة . وكانت لاشك تفضل أولاً العناية على الشكوى . وكان كمال طبعها نفسه متعارضاً مع ما جرّوت أن تطرحه من واجباتها أو مع نزوعها نحو البحث عن سبب آلامها لأن وقف هذه الآلام كان شيئاً دقيقاً . فقد خشيت « جولي » أن تخدش حياتها كفتاة شابة .

كلمة فيما يتعلق بمصير السيد ديجليدون في عهد رجوع الملكية :

ألا يلحق رجال كثيرون فيما بينهم ونظراً لفاهتهم العميقة مرراً بالنسبة إلى غالبية الناس الذين يعرفونهم ؟ فكل من الرتبة الكبيرة ، والأسرة ذات المكانة الملحوظة والوظائف الهامة ، وبعض المداخنة في المعاملة

الحميدة ، والتحفظ الشديد في السلوك أو امتيازات الثروة . . . كل هذه كلها بالنسبة إليهم شأن الحراس الذي يحولون دون نفاذ أي انتقادات إلى وجودهم الخاص بهم . وهؤلاء الناس يشبهون الملوك الذين يستحيل عليهم قاصمهم وطباعهم وأخلاقهم الحقيقية تقديرًا عادلاً ، أو معرفة سليمة . لأن رؤيتهم ثم إما عن بعد شديد أو عن قرب شديد . وتقوم هذه الشخصيات ذات الفضل المضطرب بتوجيه الأسئلة بدلاً من أن تقوم بالكلام وتملك فن إبراز الآخرين في المشهد كي تحاشي انتقاد وضع أمامهم . ثم يجلبون ببراعة موفقة كلاماً من خيط عواطفه أو خيط مضاحكه . ويتلاعبون على هذا النحو بالرجال الذين يتميزون عليهم فعلاً ، ويحسون منهم مصوراً خشية متحركة . ويعتقدون بالتالي في صغرهم ما داموا قد نزلوا بهم إلى مستواهم . وعندئذ يحصلون على الانتصار الطبيعي للفكر المثلث المثبت فوق طيش الأفكار الكبيرة ، ومن أجل الحكم على هذه الرغوس الفارغة وتقدير قيمهم السالبة يجب على المراقب أن يملك فكراً دقيقاً قبل أن يكون عالياً وأن يملك صبراً أكثر مما يملك صفاة في البصر ، وأن يتوافر النعومة والملمس الرقيق أكثر مما يتوافر له الرقة والعظمة في الأفكار . وبرغم ذلك — مهما بذل هؤلاء المختصون من مقدرة على الدفاع عن نواحي ضعفهم — من الصعب عليهم تماماً أن يحددوا نساءهم وأمهاتهم وأولادهم أو أصدقاء البيت . غير أن هؤلاء يحفظون لهم دائماً سرهم فيما يمس الشرف المشترك على نحو ما .

بل غالباً ما يساعدهم على أن يفرضوا ذلك السر على المجتمع .
وإذا كان تأمر أهل البيت بعين كثيرين من هؤلاء التوافه على أن يصبحوا
في عداد الرجال الممتازين فهم بهذا يعوضون عدد الرجال الممتازين
الذين يعلون من التوافه . بحيث يتوافر للهيئة الاجتماعية دائماً نفس
القدر من الكفايات الظاهرة .

ولنفكر الآن في الدور الذي لابد أن تلعبه امرأة ذات مستوى فكري
وعاطفي حيال زوج من هذا الصنف ... ألا نلاحظ وجود حيوات متمثلة
بالآلام والتحصية التي لا يعطى أي جزاء على الأرض بالنسبة إلى
قلوب معينة مليئة بالحب والرقّة ؟

ولو كان قد التفت بامرأة قوية في هذا الموقف المريع لخرجت منه
بجرعة : على نحو ما فعلت « كاترين » الثانية التي أطلق عليها لذلك
السبب اسم « العظيمة » .

ولكن لما لم تكن كل النساء جالسات على عروش فإنهن ينقطعن
معظمهن لألوان من الشقاء البشيمة التي لا ينقصها الموت ورغم كونها مبهمة .
ومن عندما يبحث عن عراه ذنوبى مباشر عن الشرور يهمن غالباً
بتغيير الآلام فقط إذا شئت البقاء مخلوقات نحو واجباتهن أو يؤدين
أخطاء إذا أخطن بالموازين في سبيل لذائذهن .

وتكل هذه الأفكار قبل التطبيق على التاريخ السرى الخاص
« بحولى » . ففي كل المرحلة التي قال « قابليون » واقفاً فيها على رجليه بنى

الكل « ديجلبون » متقدماً مثل كثيرين غيره ، ضابطاً جيداً من
عصا الياوران . وممتازاً في أداء المهام الخطرة ، ولكنه ظل يغير
أي قدرة قيادية ذات أهمية فلم يثر أي حسد . وأصبح معدوداً كواحد
من الشجعان الذين كان يؤثرون الإمبراطور ، وكواحد من يطلق عليهم
المسكريون عادة اسم « الطفل الطيب » أما الملكية العائدة التي أعطته
لقب الماركيز فلم تجد فيه شخصاً عاقلاً ، إذ أنه تبع أسرة « البوربون »
حتى مدينة « جان » بلجيكا . وأدت هذه الفعلة المتناقضة الأمية إلى
تكذيب الطائع عندما قلر صهره فيما سلف أن زوج ابنته لن يتقدم
على وثبة «قدم» .

وعند العودة الثانية وفي عميداً وصار ماركيزاً فطمع السيد « ديجلبون »
في أن يصل إلى الضبعة . حيث يتبنى حكمة «عزقطين» وسياستهم .
فيحيط نفسه بالرياء الذي لا يحق خلفه شيئاً ، وبصير رجلاً خطيراً
قبل الكلام مستفسراً . وينظر إليه كرجل عميق . فإذا حصن نفسه
بلا يوقف بأشكال آداب التعامل المزودة بالصيغ وحفظ ترديد العبارات الجاهزة
التي تصك بانتظام في « باريس » حتى يعطى الأغنياء الفكرة الصغيرة
منها كمعنى من معاني الأفكار الكبيرة أو الوقائع . اشتهر لدى أهل
المجتمع بأنه رجل ذوق ومعرفة . وبمجرد عناده في آرائه الأرستقراطية
يوضع في قائمة أصحاب الطباع الحسنة . وإذا صار بالمصادفة غير عابى
أو مرح ، كما كان في الأيام السالفة ، أن تكون سخافته وتفاوته في

الأقوال بالنسبة إلى الآخرين مصدر لإحاطات جسمانية دبلوماسية :
 « أو ! والله من رجل لا يقول إلا ما يرمى إليه » . هكذا كان يعتمد فيه
 قوم من الفضلاء . وكانت تحمله فضائله وعيوبه على السواء ، وكانت
 بسالته شهرة عسكرية عالية لا تنكر ، لأنه لم يتول قيادة رئيسية قط .
 وغير وجهه الحارم النبيل عن أفكار عريضة ، ولم تكن هيئته خادعة
 إلا في نظر زوجته . وانتهى الماركيز عند سماعه الناس جميعاً يقولون
 بمواهبه المصطنعة إلى أن اقتنع هو نفسه بأنه كان واحداً من الرجال
 المرموقين في البلاط حين عرفه بفضل مفاخره كيف يحوز الرضا حتى
 ضارت قيمة المختلفة مقبولة بدون معارضة .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان السيد « ديجليسون » متواضعاً في
 بيته ، وأحسن فيه بغيرته بعلو شأن زوجته عليه بحكم شبابها . ومن هذه
 الناحية غير المقصودة تولدت قوى مستورة وجدت الماركيزة نفسها
 مرغمة على قبوطا برغم كل جهودها التي بذلتها لكي تدفع عن نفسها
 حملها . ولما كانت سديدة النصح لزوجها فقد أدارت بكل دعاواه
 وكل شروائه ، وكان يفوذها ذلك ضد الطبيعة ، كما كان بالنسبة إليها
 نوعاً من التحقير ومصدر كثير من الآلام التي دفنتها في قلبها .

فأولا وقبل كل شيء كانت غريزتها الأنثوية الرقيقة تحبرها أنه
 من الأجمل أن تطيع هي رجلاً موهوباً بدلاً من أن تفتاد غيباً ، وأن
 الزوجة الشابة التي تضطر إلى التفكير والعمل على تحوير ما يفعل الرجل

لا يكون رجلاً أو امرأة ، وتتخلى عن كل لطفها الجنسي حين تفقد
 ضروره . ولا تستحوذ على أي امتيازات مما أودعته القوانين في أيدي
 الأقوي . لقد كان وجودها يعني هزأ مريباً مؤكداً . ألم تكن مضطرة
 إلى احترام معبود أجوف وأن تقوم هي بحماية حامليها ذلك الكائن
 النقي الذي قابل إخلاصها وتغاتها المستدير له بأن ألقى إليها بحب أناني
 كحب الأزواج ، وبأن رأى فيها امرأة وحسب ، فلم يتنازل ، أو لم يكن
 يعرف - وهي إهانة أكثر عمقاً - الاهتمام بلذائذها أو السؤال عن مصدر
 شقاها وذواها .

وقد أنتقد الماركيز همه لذاته مثل أغلب الأزواج الذين يحسون
 ببدلال الروح العالية بأن قاس الضعف الجسمي بضعف « جولى »
 المعنوي الذي كان يستحسن الشكوى منه وهو يطالب بحساب المصير
 الذي منحه فتاة شابة مريضة كزوجة - على أي حال كان يعمل من
 نفسه الضحية وهو الجليلاد .

وكان على الماركيزة أن تظل تبسم وهي محسنة بكل شيء ذلك
 الوجود التعيس أمام مولاهم الغني ، وأن تزين بالزهور بيتاً في حداد
 وأن تلمص السعادة إعلاناً على وجه مصفر من جراء أسرار التعذيب .
 وقد أضفت هذه المهمة المخزية أو هذا الإنكار الدائم الرائع على
 الماركيزة الشابة شيئاً فشيئاً وقار المرأة وشعور الفضيلة اللذين كانا
 الموقاة من أخطار الدنيا بالنسبة إليها . ونسر غور هذا القلب تماماً

فتجده إما أن يكون الشقاء العاطفي المكنون الذي تخرج حبه الأول الساذج كفتاة دفعها إلى أن تنظر إلى العشق نظرة فزع ، وإما أنها لم تكن قد أدركت الاقتتان أو المنع الخطيرة بل المنع الجنونية التي تنسى بعض النساء قواطين الحكمة ومبادئ الفضيحة التي يرتكز عليها المجتمع . أما وقد تخلت عن الملامفات الحلوة والانسيجام الحنون الذي وعدتها به الشجرية الخنكة الخاصة بالسيدة ، دي ليستومير لاندون ، فلم يبق لها إلا أن تنتظر في استسلام نهاية أيامها على أمل أن تموت شابة .

وبعد عودتها من « الثورين » أخذت صحتها في التدهور يوماً بعد يوم ، وصارت الحياة تقاس في نظرها بالعناء ، وهو عناء ظريف علاوة على ذلك ، فالمرض يكاد يكون شاملاً في مظهره ، بل يمكن أن يعد في نظر الناس السطحيين مجرد وهم شابة مفرطة اللبابة معجبة بذاتها . وقد حكم الأطباء على الماركيزة بأن تظل راقدة فوق أريكة حيث أخذت تنحرف وتزل وسط الزهور التي أحاطت بها . وهي تبدل مثلها ، وامتنعت لضعفها عن التزهة والخروج في الهواء الطلق ، ولم تكن تخرج إلا في عربة مقفلة . ولم تكن - وقد أحاطت نفسها دائماً بكل روائع الترف والصناعات الحديثة - أشبه بمريضة بل بملكة متكاملة . وكان يحضر إليها بعض الأصدقاء ممن قد يعتفرون شقاءها وضعفها متأكدين من وجودها دائماً بالبيت ، ومتفكرين بلاشك أيضاً في صحتها الجيدة المستقبلية ليحملوا إليها الأخبار وليحيطوها بالآلاف الأحداث الصغيرة

التي تجعل الحياة في « باريس » كاملة التنوع . وكان اكتسابها إذن برغم عطورته وعمقه اكتساب الرفاهية ، إذ كانت الماركيزة « ديجليسون » حبيبة بزهرة رائعة الحسن فخرت جذورها حشرة سوداء . وترددت أحياناً على بعض الأوساط لا عن رغبة ولكن بدافع الاستجابة لدواعي الوضع الذي كان يطمح إليه زوجها . واستطاعت بحكم صونها وبراعتها في أداء الأغاني أن تتلقى من التصفيق ما ينساق دائماً في الغالب امرأة شابة ولكن فيم يفيد هذا النجاح الذي لم يكن يعزينا عن مشاعرها أو آمالها ؟

أما زوجها فلم يكن يحب الموسيقى . ولذلك كانت تشعر دائماً بالخروج في الصالونات ، حيث كان جمالها يجذب إليها مظاهر مجاملات مفرضة . وأثار وضعها هناك رافة قاسية وفضولاً بالساً . وأصحابها التهاب ميث في العادة مما يقيه النساء سرّاً ولم استطع علوم الاشتقاق اللغوي الحديثة أن تعثر له بعد على اسم . وعلى الرغم من الصدمت الذي جعلت الحياة تتصل في إطاره فإنه سبب معاناتها لم يكن سراً بالنسبة إلى أحد . ولا كانت قد ظلت آتية برغم زواجها فإن أقل النظرات إليها كانت تثير فيها الحياء . وكذلك كانت تتعبد لكي تشادي الاحترار منجلاً ألا تظهر إلا صاحبة مريحة . كما كانت تتكلف ضرباً من الأبتهاج المزيّف . ونقول عن نفسها دائماً إنها في صحة جيدة ، أو تستدرك الأسئلة عن صحتها قديماً ببعض الأكاذيب المحترمة .

وبرغم ذلك شاركت حادثة في سنة ١٨١٧ مشاركة كبيرة في تعديل الحالة المخزونة التي كانت «جولي» قد تودت فيها آنذاك ؛ ذلك أنها ورقت بابنة وعمدت إلى إرضاعها . وهذه المشغوليات الشديدة ، والملاهي المليئة بالقلق التي تنشأ عن رعايات الأمومة : جعلت حياتها أقل تعاسة مدة سنتين . وتبدأها الأطباء بتحسين صحتها ، ولكن الماركة لم تعتمد إطلاقاً في تفاؤلهم الافتراضية . وربما كانت ترى في الموت خاتمة سعيدة شأن بكل الأشخاص الذين تصبح حياتهم خالية من أي حلاوة .

وفي أوائل سنة ١٨١٩ كانت الحياة في ذروة قسوتها بالنسبة إليها ، ففي الوقت الذي هبأت نفسها فيه ببعض الهناء السليبي الذي استطاعت أن تكسبه ، استشفت هوات مفرعة ، إذ كان زوجها قد أفلح عنها وولداً رويداً ، وكان هذا البرود العاطفي الذي كان من قبل غائراً وأذانياً أذانية نامة قادراً على أن يؤدي إلى أكثر من كارثة مما كانت بصبرها الحساسة وحكمها تنبأها به . وبرغم تأكيدها من احتفاظها بسلطانها على «فيكتور» ومن أنها استحوذت على تقديره إلى الأبد ، أشمقت من تأثير الأهواء على مثل هذا الرجل النافذ الأهورج المغرور ، وكثيراً ما كان أصدقاء «جولي» يفاجئونها مستسلمة لتأملات طويلة ، فكان قليلو الذكاء منهم يستفسرون عن سروهم يتصاحكون ، وكان المرأة الشابة لم تكن قادرة على أن تفكر إلا في الترقق والاهور ،

وكانه لم يكن دافعاً لأفكار ربة الأسرة أي معنى عميق . وعلاوة على هذا فالشقاء مثل مثل السعادة الحقيقية في أن كلا منهما يؤدي إلى الأحلام .

وفي إحدى المرات كانت «جولي» تلعب مع ابنتها «هيلين» فتغترت إليها نظرة مبهمة ، وكفت عن الإجابة عن أمثلتها الطفولية التي تنسب للأمهات سروراً كبيراً ، لتعود بذاتها وتحاسب مصيرها في الحاضر والمستقبل . وبلغت عينيها الدموع حين استعادت فجأة ذكرى مشهد العرض في حدث «نويبري» ، إذ دوت في أذنها مرة ثانية نبوءات أبيها ، وأنها فصيها على أنها لم تقدر حكمتها قدرها ، فكل هذه المصائب قد نشأت عن عصيان أحمق ، وغالباً ما كانت تجهل أي هذه المصائب كلها كان أثقلها حملاً . فلم يكن حسبها أن تتركها الحلاوة في زوجها ظلت مجهولة ، وإنما لم يمكنها قط أن تجعل نفسها مفهومة لدى زوجها حتى في أبسط حوائج العيش ، وحيناً تمت ملكتها في الحب لديها ، وصارت أكثر قوة وأكثر حيوية اختفى الحب المباح أو الحب الزوجي وسط ألوان خطيرة من المعاناة الجسدية والمعنوية . ثم إنها كانت تشعر نحو زوجها بالرافة الملاصقة للاحتقار الذي يتبدل مع الزمن كل عاطفة .

على أي حال إذا لم تكن محادثاتها مع بعض الأصدقاء أو بعض مغامرات الأوساط الكبيرة قد علمتها أن الحب يجلب سعادة هائلة فإن الخروج قد جعلها تخمن المتع العميقة البريئة التي توحد بين الأرواح

المتأخبة . وارتسم وجهه أثره أو أثره أبيض القلب في لوحة ذاكرتها التي انجذبت الماضي كل يوم بشكل أكثر انقاء وأكثر جمالا ، ولكن في لمح البصر ، لأنها لم تكن تجرؤ على التوقف عند تلك الذكرى . وكان حب الشاب الإنجليزي الصامت الحيدلان هو الواقعة الوحيدة التي تركت بعض الأثر اللطيف منذ زواجها في هذا القلب المضطرب الوحيد . وكان الآمال التي خابت وكل الرغبات التي لم تتحقق مما كان بالتدريج يزيد من تعاسة فكره ، جولى ، كان يذكر بلعبة طبيعية من لعب الخيال بذلك الرجل الذي كانت طرائقه وعواطفه وطباعه تبدو ذات تعاطف كبير مع مرائفها وعواطفها وطباعها . غير أن هذه الفكرة كان لها دائما مظهر النزوة أو الحلم . وبعد هذا الحلم المستحيل الذي ينأى دائما بالتجارب كانت جولى ، تستيقظ وهي أشد تعاسة وتشعر بالأمها الكامنة على نحو أفضل إذا أخذت تنسها تحت أجنحة سعادة وهمية .

وفي إحدى المرات أخذ آبنها طابع الجنون والوقاحة ، فأرادت تحقيق متعتها بأي ثمن ، ولكنها بقيت برغم ذلك فريسة لا أدري لأي خصود أبلة ، تصغي بلا فهم أو تدرك الأفكار غامضة بلا تحديد ، بحيث لم تجد أي ألفاظ تستجيب بها لهذا كله . واضطربت أمام التنفيس الذي شعرت به في إرادتها الجنون ، وفي عادات سلوكها التي كانت تعلم بها في الزمن السالف وهي لا تزال فتاة شابة — اضطربت إزاء

ذلك كله أن تبذل دموعها . لمن تشكو ؟ ومن ذا يسمع شكواها ؟ ثم إنها كانت تنصف بهذه الرقة الأنثوية الكبيرة وبهذا الحياء العاطفي الساحر الذي يمثل في إسكات الشكوى التي لا تحدى وفي عدم انتهاز الفرص عندما يكون الانتصار مديلا لكل من الهازم والمهزوم على السواء .

لقد حاولت جولى ، أن تسخر قدرتها وفصائلها الشخصية للسيد « ديليسون » ونفاد حريتها بطعوم السعادة التي لم تذوقها . واستخدمت كل نعمتها كامرأة في البيت المحض بتدبيرات غير معلومة لديه حتى إذا بقي مستعرا في حلقائه . وأحيانا كان يسكرها الشقاء . فتصبح بغير فكر أو ضابط . ولكنها لحسن الحظ كانت تتردد دائما إلى أمل علوى بدافع من شفقة حقيقية . فكانت تحسن حياة المستقبل وباعتقاد زاهر يدفعها من جديد إلى قبول مهيتها المؤلمة . وكان صراعها مفرعا كما كانت تمزقاتها الداخلية بلا أي عذرة ، أو اكتساباتها الطويلة مجهولة . إذ لم يكن ثمة إسان واحد يتلقى نظراتها الحزينة ودموعها المرة الجارية في وجدها بلا تبصر ولا قصد .

وتكشفت أمام الماركة أنظار الموقف المخرج الذي كانت قد بلغت شيئا فشيئا تحت تأثير الظروف بكل أنقلاها في أثناء سهره في شهر يناير سنة ١٨٢٠ . وعندما يتعارف الزوجان تماما ويعتاد كل منهما الآخر اعتيادا طويلا ، بحيث تستطيع المرأة أن تفسر أبسط حركات الرجل . وأن تنفذ إلى المشاعر أو إلى الأشياء التي يخفيها عنها ، تلمع

غالباً بعض الأنوار المفاجئة ، وتلى أفكاراً وملاحظات سابقة ، ويكون مردّها إلى الصدفة أو تصدر بطريقة يدائية بغير مبالاة ، إذ تستيقظ المرأة غالباً فجأة على حافة أو في قاع حوض . وهكذا استتجت الماركيزة — وهي سعيدة لوجودها بمفردها منذ بضعة أيام — سر وحدتها . فإن زوجها لعدم ثباته أو لتعبه ولكرمه أو لامتلائه بالشفقة نحوها لم يعد يسمى إليها .

وفي تلك اللحظة لم تعد تفكر في نفسها أو في آلامها أو في تضرعياتها . لم تعد سوى أم تعيش حظ ابنتها وتستقبلها وسعادتها . فابنتها هي الكائن الوحيد الذي يهبها بعض الحيور . ابنتها « ميلين » هي وحدها التي قيدها بالحياة . الآن تريد « جولي » أن تعيش كى تقى ابنتها الهزان الخفيف الذي استطاع امرأة الأب أن تخلق حياة هذه المخلوقة العزيزة في ظله .

وأمام هذا التقدير الجديد لمستقبل مشنوم ابتاعها تأملات متأججة من شأنها أن تلهم سنوات برمتها . فعلى الرغم من كل شيء لا بد أن بينها وبين زوجها علماً من الأفكار تقع أحماله عليها بمفردها . وحتى ذلك الحين كانت واثقة من حب « فيكتور » لها بقدر ما كان في مقدوره أن يحب ، فأخلصت لسعادة لم تكن تشارك فيها . أما اليوم فلم يعد أمامها — وقد فقدت الرضا ، لعلمها بأن دموعها كانت مصدر فرح لزوجها — إلا أن تختار الأحرار . وبوسط فتور الشجاعة

التي أرحت كل قواها في سكوت الليل وصمته .. في اللحظة التي هجرت فيها أريكتها وقد خبت نارها .. اتجهت على ضوء مصباح نحو ابنتها تتأملها بعين خالية من الدموع .. ودخل السيد « ديجليسون » مليئاً بالمرح ، فدعته « جولي » لتأمل ابنته وهي قائمة ، غير أنه قابل تهليل زوجته بعبارة مبتذلة : في هذا السن كل الأطفال ظرفاء .

قال هذا ثم أرخى ستائر مهد ابنته بعد أن قبلها بغير مبالاة فوق جبهتها . ونظر إلى « جولي » وتناول يدها وأجلسها بالقرب منه فوق الأريكة حيث برز منذ قليل عدد كبير من الأفكار المشنومة ، وصاح بقوله في مرح ثقيل اعتادت الماركيزة أن تعرف مقدار خوائمه : أنت جميلة هذه الليلة يا سيده « ديجليسون » .

سألته الماركيزة مع تظاهرها بعدم المبالاة العميقة : أين قضيت السهرة ؟

— عند السيدة « ديسيريزى » .

وأمسك بجانب ناز المدفأة الشفاف يتفحصه باهتمام دون أن يلتفت أثر الدموع التي ذرفها زوجته . وارتجفت « جولي » وما كانت اللغة لتكفى للتعبير عن دُفء الأفكار الذي أفلتت من قلبها ولزمتها أن تحوشه فيه .

— سوف تقيم السيدة « ديسيريزى » حفلة عزف موسيقى يوم الاثنين القادم ، وتتحرق شوقاً لكي تكوني بين مدعوها ، ويكني أنك

لم تظهر في المجتمعات منذ وقت طويل حتى ترغب في زويتك لديها . إنها سيدة طيبة وتحبك كثيراً ، وسأكون مسروراً بأن تحضري وكذبت أكون قد أعطيت رداً نيابة عنك .

أجاب : جولي : سوف أذهب .

وكان في رنة صوت الماركييزة ولحنها ونظرتها شيء ، ففاد خاص بحيث التفت فيكتور إلى زوجته مستغرباً برغم عدم اهتمامه . هذا هو كل ما حدث . واستنتجت : جولي : أن السيدة : ديسيريزي هي المرأة التي انتزعت قلب زوجها منها . واسترخت في حلم يائس ، وبدأت مشغولة جداً بتأمل النار . وأدار فيكتور الخجن بين أصابعه يادياً عليه قلق الرجل الذي يحمل إلى بيته تعب السعادة بعد أن كان سجيناً خارجاً . وعندما هاجمه الثاقب عدة مرات أمسك بالمصباح في إحدى يديه ويبحث بالبد الأخرى بفور عن علق زوجته وأراد تقبلها . ولكن : جولي : هبطت مقدمة إليه بحبيها وتلقته عليها قبلة المساء . تلك القبلة الآلية الخالية من الحب كتوجع من الإرغام الذي بدا لها يغضباً . وعندما أغلق فيكتور الباب انكفأت الماركييزة فوق مقعد وترجع ساقاها وسالت دموعها .

ولابد من المرور بالعذاب في موقف مماثل لكن يفهم المرء كل ما يخفيه ذلك الموقف من آلام . ويستنتج المآل المرعبة الطويلة التي تؤدي إليها . هذه الأقوال البسيطة الحلقاء . وهذا الصمت بين

الزوجين . والحركات والنظرات ، وطريقة جالس الماركييز أمام المدفأة ، والوضع الذي اتخذه وهو يسعى لتقبل علق زوجته ، كل هذا قد أدى إلى تحويل تلك اللحظة إلى خاتمة مفاجئة للحياة المؤلمة الموحشة التي تعيشها : جولي . وركعت فوق ركبتيها أمام أريكتها في حالتها الخنوقة ، ودست وجهها في الأريكة حتى لا تفرى أي شيء وتوجهت بالصلاة إلى الله معطية أقوال أدميتها العادية لطيفة عاطفية حنوناً ، ودلالة جديدة لومسها زوجها لتطرت قلبه .

وبقيت ثمانية أيام مشغولة بمسئولتها الذي كانت تدرسه : وهي فريسة ثقتها ، بحثاً عن الوسائل التي تجعلها لا تخدع نفسها ، وتسترد سلطانها على الماركييز ، وتعيش مدة طويلة تسمح لها بالسهر على سعادة ابنها . فاضت بالنار على أن تنازل منافستها وعلى أن تعود إلى الظهور في المجتمعات ، وأن تتألق فيها . كذلك عسست على أن تظهر كمن تحب زوجها ذلك الحب الذي لم تعد قادرة على أن تحققه له وعلى أن تأسره . ثم تتدلل عليه بعد أن تخضعه لتفوذها بهذه الطرق المصطنعة على نحو ما تفعل العشيقات من صاحبات الأخواء والنزوات حين يتلذدن بتعذيب محبين . وكانت هذه الحيلة الشيعة هي الدواء الوحيد الممكن لشروطه . فعلى ذلك النحو ستصبح متحكممة في آلامها وتوجهها وفقاً لرغباتها حتى تقضي عليها مع استمرارها في تدوين زوجها وفي إخضاعه لاستبداد مخيف . وما كانت لتشعر بأي تأنيب

ضمير لو فرغمت عليه حياة المشقة والعذاب .

وطرفة واحدة اندفعت في ترتيبات باردة بغير اهتمام أو مبالاة .
ولكى تنفذ ابتها لحيات فجأة كل ضروب المكر والكذب لدى
الخلوقات التي لا تحب خداع الدلال الأنثوي وحيله القطعية مما يدفع
بالرجال إلى كراهية المرأة كراهية عميقة . لا فراضهم أن فسادها أصيل .
وأما مفضورة عليه . والواقع أن زهو « جولي » الأنثوي ومصلحتها
ورغبتها المهمة في التآمر لنفسها كانت كلها بغير علم منها ملائمة لحياتها
الأمومية كما تنفذ منه إلى طريق تتطوّر فيه آلام جديدة . غير أن
روحها كانت عادية وكان فكرها شديد الرقة . وكانت على الخصوص
صريحة صراحة ضخمة تحول بينها وبين التوافق طويلاً على هذا الغش .
ولما كانت قد اعتادت أن تراجع نفسها عند أول خطوة من خطوات
الرذيلة ، إذ كان هذا كله رذيلة ، فقد هبت صيحة ضميرها كي تحقّق
أنفاس الشهوات والأنانية . ولا شك أن المرأة الشابة التي يبقى قلبها نقيّاً
ويظل حبها عارياً تخضع عاطفة الأمومة نفسها لديها لصوت الحياء .
أليس الحياء هو المرأة بأكملها ؟ غير أن « جولي » لم تشأ أن تسمع
أي خطر أو أي خطأ في هذه الحياة الجديدة . وذهبت إلى الاستقبال
الذي أعدته السيدة « ديسيريزي » وحسبت منافستها حساب أنها سوف
تأتي امرأة باهتة سقيمة ، فوضعت الماركييزة المساحيق الحمراء ، وظهرت
في ثألق خلتها الذي أعطاها جمالاً فوق جمالي .

وكانت السيدة « ديسيريزي » واحدة من تلك النساء اللاتي يزعمن
لأنفسهن في « باريس » إمبراطورية الأزياء واجتماع . كانت تصدر
المراسيم التي كان يخيل إليها أنها يعمل بها عالمياً ويؤخذ بها مجرد قبوطها
في الدائرة الخاضعة لتفوذها . وكانت تدعى التأليف ، فكانت بمثابة
الحكم الأعلى . فالأدب والسياسة والرجال والنساء ... الجميع خضعوا
لرأيتها . وبذلت السيدة « ديسيريزي » كأنها تتحدثي الوقايات الأخرى .
وكان بينها نموذجاً للذوق الحسن في كل شيء .

وانتصرت « جولي » على الكونتيسة وسط هذه الصالونات المليئة
بالنساء الأثيمات الجذيلات ، فقد كانت « جولي » ذات روح وحيات
ونشاط دفع النخبة الممتازة من رجال السهرة إلى الالتفاف حولها .
وكانت زينتها غير منتقدة مما دفع الحاضرات إلى اليأس ، وجعلهن
جميعاً يحسدنها لتفصيل ثوبها وشكل الصدر الذي أرجع تأثيره عامة
إلى تبوغ معين لدى خياطة مجهولة . إذ تميل النساء إلى الاعتقاد في
علوم النسج أكثر مما يملن إلى الاعتقاد في ملاحاة وجمال اللاتي يفقهن
في الملامح والخلقة .

وعندما وقعت « جولي » لتتجه نحو البيافوكي ثقي أغنية (ديز داموة)^(١)
المؤثرة هرع الرجال من كل الصالونات ليصغوا إلى ذلك الصوت المشهور
الذي ظل صامتاً أمداً طويلاً ، وساد بينهم صمت عميق . وأخست

(١) غريب بلزك هذا . لا يكمل من مالبيراز وياستا من أشهر المسرحيات .

الماركييزة بانفعالات شديدة عندما رأت الوجوه المسرعة نحو الأبواب وكل النظرات المتعلقة بها ، وبحيث عن زوجها وصوت نحيبه نظرة مليئة بالدلال ، وتبين لها في تلك اللحظة ببالح السرور أن رضاها عن نفسها وجها لادامها كانا بشكل غير عادي . وسحرت المجتمعين في أدائها للجزء الأول الخاص بالمدخل ولم تكن أشهر المطربات قادرات على تشييف الأذان بالأداء الخائفي قط على هذا النحو المتكامل من الإحساس والاستهلال النغمي^(١) ولكنها عند عودتها الثانية إلى الغناء نظرت إلى المجدوعات فلم يجدت ، أرتير الذي لم تكن نظراته الثابتة تفرقها ، فارتعدت بشدة وتبدل صوتها . فاندفعت السيدة « ديسيريزي » من مكانها نحو الماركييزة : « ماذا بك يا عزيزتي ؟ أوه يا الصغيرة المسكينة ! إنها مريضة . لقد ارتعدت لرؤيتها تؤدي شيئاً أكبر من قدراتها ... »

وتوقفت الأغنية ، ولم تجد « جول » مضطربة - الشجاعة للاستمرار ورفضت لرحمة من نفسها الغامرة ، ونهامت النساء جميعاً . وبكثرة التداول حول هذا الحادث امتنعت الحاضرات أن الصراع قد بدأ بين الماركييزة وبين السيدة « ديسيريزي » فلم يقتصدن في الاغتياب . لقد تحققت فجأة كل المشاعر المسوقة الغربية التي طالما أفلقت « جول » فعندما شغلها « أرتير » ارتضت أن تعتقد أن رجلاً يمثل هذا المظهر الحلو الرقيق لا بد أن يظل مخلصاً لحبه الأول . وأحياناً كان يرضى

(١) من تأليف روسيني (١٧٩٢ - ١٨٦٨) .

غورها أن تكون موضوع هذه العاطفة الحسية . هذه العاطفة النقية الصادقة التي تصدر عن شاب تنتمي كل أفكاره إلى حبيبة قلبه ، وتتوقف كل دقائق حياته عليها . وهو فوق ذلك لا يهدف إلى مجرد التحايل ويحمر وجهه خجلاً مما تحمر له خجلاً وحباً امرأة بل يفكر كما تفكر المرأة نفسها ، فلا يضع أمامها أي مناصرة لها ، ويهب نفسه لها دون أن يحلم بأي طموح أو مجد أو ثروة .

كانت قد قدرت كل هذا عن « أرتير » في جنون وشروع فكري ، ثم فجأة اعتقدت أنها شهدت تحقيق هذا التقدير أو هذا الحلم . فقد قرأت على وجه الشاب الإنجليزي المائل إلى الأنوثة تقريباً كل الأفكار الحميمة وكل الاكتنايات الرقيقة والامتناعات المؤنة التي كانت هي نفسها ضحية لها . لقد عرفت نفسها فيه . فالشقاء والاكتئاب هما أبغ مفسرين للحب ، ويتناظران بين كائنين متآلمين في سرعة لا تصدق ، والنظرة الحنون وتلاقح الأشياء أو الأفكار عندهما تام وصحيح . بل إن عطف الخدامة التي تلقى الماركييزة قد كشف لها عن كل أخطار المستقبل . فإن سعادتها الكبيرة بالعثور على مسوخ لاخطرابها وانتقالها من حالها المعتادة إلى الألم قد جعلها تستسلم عن طيب خاطر لثقل رافة السيدة « ديسيريزي » الحاذقة . وكان توقف الأغاني حدثاً لم يحدث بشأنه أشخاص كثيرون على أنحاء مختلفة . فقد كان البعض يأسف لمصير « جول » ويشككي من فقدان المجتمع لامرأة على هذا القدر من الامتياز . وكان

الآخرون يريدون معرفة سبب هذه الآلام وسبب العزلة التي صارت تعيش فيها .

وقال الماركيز لشقيقتي السيدة « ديسيريزي » : هيه . والآن يا عزيزي « رونكيرو » لقد كنت تحسد سعادي عند رؤيتك للسيدة « ديجليسون » وكنت تتأخض على عدم وفائي لها ؟ هاك إذن ، وسوف تجد معي شيئاً لا أعيط عليه لو بقيت مثلي إلى جوار زوجة جميلة مدة سنة أو سنتين بغير أن تجرؤ على تشييل يدها خشية خدشها وتكسیرها . فلا تتحير أبداً أمام هذه الحل الرقيقة التي لا تصالح إلا من وراء لوح زجاج والتي تفرض علينا هشاشتها ونفاسها معاً احترامها دوماً . هل تطلّق أنت فرسك الجميل الذي تخفي عليه . كما قبل لي تحت المطر المنهر والنلج ؟ تلك قصتي . من الحق أنني واثق من فضيلة زوجتي ، ولكن زوجي نوع من الترف ، ومن الخطأ أن نصبي متروكاً . وهكذا نكون حيوانات مشروعة بشكل من الأشكال . ولكم وددت أن أعرف كيف كنتم تتصرفون في مكاني أيها السادة الضاحكون ؟ وما كان الكثيرون من الرجال ليقبلوا درجة التحفظ والتحرز التي بلغت فيها يتعلق بزوجتي .

وأخيراً الماركيز بصوت منخفض بل إنني متأكد أن السيدة « ديجليسون » ليس لديها أدنى شك . ومن المؤكد أيضاً أنني محطئ جداً في شكواي . وأني غاية في السعادة ... غير أنه لا شيء يضايق

الإنسان الحساس أكثر من أن يرى مخلوقاً مسكيناً تعلق به يتعذب
أجاب السيد دي رونكيرو : « فأنت إذن ذو حساسية كثيرة لأنك قليلاً ما توجد في بيتك » .

فأثارت هذه العبارة اللاذعة غير العذائية كل المستمعين . غير أن « أرتيره » بن محامداً ثابت الجنان كرجل مهذب اتخذ الجديدة أساساً لطبعه . ولقد أدت أقوال الزوج الغريبة بلا شك إلى الخماس بعض الآمال لدى الشاب الإنجليزي الذي انتظر صابراً لحظة انفراد وحده بالسيد « ديجليسون » حتى واثقه المناسبة بعد قليل ، فقال له : « سيدتي إنني أنألم ألماً بالغاً لما رأي حالة السيدة الماركيز » . واعتقد أنك ما كنت لتفرح فيما يتعلق بآلامها لو كنت تعلم أنها قد تموت موتاً تعيناً خطأ في نظامها الخاص . وإذا كنت أتكلم معك على هذا النحو فعلى أساس أن تقني من قدرتي على إنقاذ السيدة « ديجليسون » وعلى ردها إلى الحياة وإلى السعادة تبيح لي ذلك . ومن غير الطبيعي أن يصبح رجل في مثل رتبتي طبيباً ... وعلى الرغم من ذلك شامت الصديقة أن أقوم بدراسة الطب . والواقع أنني غير مرتاح (قال هذا وهو يتكلم نوعاً من الأنانية الباردة التي تستخدم أغراضاً) لأن أرى نفسي غير مهم ببذل وقتي ورحلاتي في سبيل مريض يتألم بدلاً من إرضاء بعض نزواتي الخيالية البلهاء . والشفاء من هذه الأنواع من المرض تادر لأنه يستلزم كثيراً جداً من العناية والوقت والصبر . ومن الضروري خصوصاً

توافر المال والرحلات ومتابعة التعليمات التي تتغير من يوم إلى آخر
والتي لا تنسم بالإكراه بدقة متناهية . ونحن الاثنان رجلان من عليّة
القوم (قال ذلك وهو يضغط على هذه الكلمة بمعنى الجنسية
الإنجليزية) وتستطيع انشاؤهم . وأخطرك بأنك إذا قبلت هذا العرض
فستكون في كل لحظة صاحب الحكم على سلوكي . ولن أشرع في
شيء دون استشارتك وبغير ملاحظتك . وأؤكد لك النجاح إذا وافقت
على أن تطيعني . نعم . . أي إذا شئت أن تكف أثناء مدة طويلة
عن أن تكون زوج السيدة ، ديجليمون . (هكذا قال له في أدته) .

قال الماركيز ضاحكاً : « من المؤكد يا سيدي اللورد أن إنجليزياً
هو الذي يستطيع أن يعرض على مثل هذا الاقتراح الغريب . واسمع
لي بالأأرفضه وبالأأؤيده ، سأفكر في الأمر . ثم إنه لا بد أن يعرض
قبل كل شيء . على زوجتي » .

وفي تلك اللحظة ظهرت « جولي » مرة أخرى على البيانو . وغنت لحناً
« سيرايميس » ومملكتها وخروبها^(١) . وكان التصفيق الإجماعي ،
أو التصفيق الأصم إن صح هذا التعبير ، والتهنئات المبهدة الخاصة
بني (سان جيرمان) دليلاً على الحساس الذي استثارته .

وبمجرد عودة « ديجليمون » في مهية زوجته إلى قصرهما استطاعت
« جولي » أن تلاحظ بشيء من السرور المنخوف سرعة نجاح محاولاتها .

(١) من تأليف روسيني أيضاً الذي اشتهر بالأوبرا ابتداء من سنة ١٨١٠ .

فكأنما استيقظ زوجها من سباته تحت تأثير الدور الذي لعبه منذ
قليل . وأراد تبجيلها بإحدى التزوات . لفتاؤها بشغف ورغبة كما
لو كان مع إحدى الممثلات . ولم تستكر « جولي » معاملتها على ذلك
فلتحو برغم كونها زوجة فاضلة . وبأدبرت إلى التلاعب بكل قواها .
وفي أول التزل دفعها طيبتها إلى أن تخسر مرة أخرى غير أن تلك المرة
كانت أشد اللروس التي تلقتها هولا من بين كل ما امتلأ به عصرها .

في الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً كانت « جولي » في جلستها قائمة
حاملة في سرير الزوجية . وقد أضياء الغرفة إضاءة خفيفة مصباح
ذو وجه ضعيف . وساد صمت عميق . وأخذت الماركيزة منذ حوالي
الساعة - وقد استسلمت لوخزات تيكيت الضمير - تذرف دموعاً
لا تعرف مرارتها سوى النساء اللاتي عشن في مثل موقفها . وكان ينبغي
أن يكون للمرأة روح تكروج « جولي » كي يشعر مثلها بالاشمئزاز
من التقارب والتلاصق المحسوب بقدر . ولكني تجد نفسها مغمومة
من جراء قبلة فائرة ، فذاك جسود في القلب زادت وحالاته بفعل غباء
. ولم . وشعرت بوضاعة نفسها . ولعنت الزواج . وودت لو أنها ماتت ،
ولو لا صيحة بكاء طفلها حينذاك لكانت قد عجلت بإلقاء نفسها
من الشباك إلى أرض الطريق . وكان السيد « ديجليمون » قائماً بجوارها
في هدوء دون أن يوقفه الدموع الدافقة التي تركتها زوجته تشاغل
عليه .

وظهرت « جولي » في اليوم التالي مبتهجة ، وأعانتها قواها على أن تبدو سعيدة ، وعلى أن تضحى ، لا اكتئابها وحسب ، بل إهانة واشتمزازاً لا يحاومان . فبعد ذلك اليوم صارت تنظر إلى نفسها كامرأة لا لوم عليها ولا تريب . ألم تكذب على نفسها ؟ فكانت منذ ذلك الوقت قادرة على الرياء ؟ وعلى أن تمنع فيما بعد إمعاناً مذهلاً في الذنوب الزوجية ؟

لقد كان زواجها سبب هذه الدعارة « القبلية » أي « الفطرية » التي لم تلق ما تباشر نفسها فيه أو ما تتحقق في أدائه وبرغم ذلك تساءلت سلفاً عن سبب مقاومتها لعاشق نجده ، حين كانت تهب نفسها لزواج بعيد ، معارضة بذلك قلبها ودعاء الطبيعة . ولعل كلى الأخطاء والجرائم إنما تقوم على مبدأ من الاستدلال السيء أو من بعض مبالغات الأناقية . ولا تستطيع المجتمعات أن تقوم إلا على التضحيات الفردية التي تفرقها القوانين . ألا يعنى قبول فوائدها الالتزام بالمحافظة على شروطها التي تدفع إلى دوامها ؟

والواقع أن الأتقياء الذين لا يجدون الخير والدين يضطرون إلى احترام الملكيات لا يستحقون الرثاء والعطف أكثر من النساء المجروحات في رغباتهن وميولهن وفي دهافة طبيعتهم .

وبعد ذلك المشهد بأيام . . ذلك المشهد الذي دفنت أسرارها في سرير الزوجية . . قدم السيد « ديجليمون » لورد « جرينفيل » إلى زوجته ، واستقبلت « جولي » « آرثير » في أدب خال من الحرارة بحيث

أرقت ريعها ، وفرضت الصمت على قلبها اكتفاء بعينها ، وجعلت صورتها ثابتاً ، واستطاعت بذلك أن تظل سيدة مستحلبها . ثم بعد أن تعرفت السيدة « ديجليمون » بوسائلها الفطرية التي تتميز بها النساء عادة ، إن صح هذا التعبير على مدى الحب الذي أوحته ، استسقت للأمل في شفاء سريع ، ولم تعارض المقاومة لإرادة زوجها الذي اعترف من أجل قبيحا أن تصبح في رعاية الطبيب الشاب . وعلى الرغم من ذلك لم تشأ أن تظمن إلى اللورد « جرينفيل » إلا بعد أن درست أقواله وطرأته كي تتأكد من أنه سيكون من الأرجحية بحيث يعانى في صمت . وكان لها عليه أكبر سيطرة وبدأت سلفاً تستفيد من ذلك . أليس

امرأة ؟

« مونكونتو » اسم قصر إقطاعي قديم قائم على إحدى الصخور الذهبية اللون التي يمر تحتها نهر « انوار » على بعد قليل من الموقع الذي توقفت فيه « جولي » سنة ١٨١٤ . إنه واحد من تلك القصور الصغيرة في مقاطعة « التورين » البيضاء الجميلة ذات الأبراج المليئة بالنماثيل والمطرزة كنسيج ، الدنيللا من صنع « مالين » أو أحد هذه القصور اللطيفة الأنيقة التي اتخذت مكانها في مياه النهر بحملة غاباتها الصغيرة من شجر التوت ومن الكروم وطرقها المحفورة ودرابزيناتها الطويلة البارزة وكهوفها الصخرية وأعطينها من اليبلاص ومتجذراتها الوعرة . وكانت أسقف سطوح قصر « مونكونتو » تتألاً تحت أشعة الشمس كما كان

كل شيء هنالك مضطرباً . ويشير ملامح الشاعرية في تلك المزرعة الساحرة ما يقرب من ألف أتر عن آثار إسبانيا وبقاياها : أشجار «الوزان» الذهبية والزهور «ذات الخريز» التي تملأ برائحها النسيم ، والهواء رقيق الملاصقة ، كما أن الأرض تبسم في كل مكان ، وتحيط بالروح في كل مكان أيضاً في سحرية خلوة ، فتجعلها كسولا عاتقة وتريحها وتهدئها . ومن طبيعة هذا الإقليم الجميل الحلو أن ينجم الأوجاع ويوقظ الشهوات ، فلا يبقى أحد بارداً تحت هذه السماء النقية وأمام هذه المياه الباردة . وهنالك يحنق كل طموح ، ويرقد المرء وسط سعادة هادئة تماماً ، كما تغرب الشمس كل مساء في أفمطة وفائف أرجوانية وزرقاء .

في ليلة رقيقة من ليالي شهر أغسطس سنة ١٨٢١ كان شخصان يتساقان الطرق المبللة بالأحجار التي تمرق في الصخور المقام فوقها القصر . وكان الشخصان يتجهان نحو المرتفعات كي يتأملا بإعجاب بلا تلك مناحي النظر العديدة التي يمكن اكتشافها هنالك . وكان هذان الشخصان هما «جولي» ولور «جرينفيل» وإكن «جولي» هذه قد صارت تيلو كما لو كانت امرأة جديدة ، وكانت الماركية تتمتع بألوان الصحة الزاهية ، وكانت عيناها اللتان أحبتهما قوة خصية تلمعان خلال ضباب رطب أشبه بالسائل الذي يعطى عيون الأطفال مفتاح لا تقاوم ، وكانت تبسم بملء شفاهها ، وبذات سعيدة بالحياة . وقد أدركت

كنها وكان من السهل أن يرى المرء من طريقها في رفع قدميها الطريفتين أنه لا يتقل حركاتها البسيطة ، ولا يقضي نظراتها أو أقوالها أو إشاراتها أي ألم على نحو ما كان في الماضي . بل كانت «جولي» هذه تشبه تحت مظللتها الحريرية البيضاء التي حمتها من أشعة الشمس الحامية عروساً في غلالاتها أو عذراء مستعدة إلى الاستسلام للشوات الحب .

واستطاع «أرنبر» أن يقدوها بعناية العاشق ، وأن يرشدها كما ترشد الطفل ، فوجهها نحو أفضل الطرق ، ويساعدها على تفادي الأحجار ، ثم يريها منظرًا بين تلال ، أو يصحبها أمام زهرة . وهو إذ يفعل ذلك ، بحركة دائماً شعور مستمر بالطيبة . وقصد رقيق ، ومعرفة حنون يعيش تلك المرافة الرعيد ، كأنها مشاعر فطرية عتده تناسب ، وقد تزيد قليلاً ، على حركة وجوده الخاص الضروري . وبضمت المربضة . وطبيها متعاضد الخطوات ، دون أن يستغربا توافقاً بدا كما لو كان قد وجد منذ أول يوم حضاراً عثمانيان فيه جنياً إلى جنب . فهما يطيفان نفس الإرادة ، ويتوقفان بانطباعات عين الإحساسات ، وتجاوزت نظراتهما وأقوالهما مع أفكارهما المتبادلة .

وعندما بلغا كلاهما أعلى الكريمة أرادا أن يستريحا على أحد هذه الأحجار الطويلة البيضاء التي تبرز باستمرار من كهوف مفتوحة في الصخر . غير أن «جولي» نظرت إلى الموقع تتأمله قبل أن تجلس هنالك .

أمرأة في الثلاثين

قالت « جولي » : هذا الإقليم رائع فلننصب خيمة ولنقم هنا .
يا فيكتور ، هلم إذن . هلم إذن !

وأجاب السيد « ديجليمون » من المنخفض بصيحة رجال العسك دون أن يسرع الخطر ، ولكنه اكتفى بالنظر نحو زوجته من وقت لآخر كلما سمعت له بذلك اغطفافات الطريق الضيق . واستشقت « جولي » الهواء بلذة في أثناء رفع رأسها ، وهي تلي إلى « آرثير » بإحدى نظراتها الدقيقة التي تقول بها النساء الذكيات كل أفكارهن .

عادت « جولي » لتكلم : أوه ! كم أود أن أبقى هنا دائماً هل يمكن أن يتعب المرء من تأمل هذا الوادي الجميل ؟ هل تعرف اسم هذا النهر الجميل يا سيدي اللورد ؟

— هذا نهر « الشير » .

— نهر « الشير » وهنالك أمامنا . . . ما ذاك ؟

تلك تلال نهر « الشير »

— وإلى اليمين ؟ آه ! هذه مدينة « تور » . ما أروع ذلك الأثر الذي تحدثه عن بعد أبراج أجراس الكاتدرائيات .

ثم صمدت وتركت يدها التي كانت قد ملتها نحو المدينة تهبط فوق يد « آرثير » وتأمل كلاهما بإعجاب صامت ذلك المنظر وتلك الطبيعة ذات الروائع المنسجمة . وتم التوافق التام بين عمس المياه وتقاوة الهواء

وصفاء السماء ، وبين الأفكار التي عطلت مزدحمة في قلوبهما العاشقين الشابين .

— أوه ! يا إلهي . كم ذا أحب هذا الإقليم .

قالت « جولي » بعد برهة صمت : وفي حساس ماذج « شرايد » هل عشت فيه طويلاً ؟

ارتعد لورد « جرينفيل » عند سماع هذه الكلمات وأجاب يا كتيب وهو يشير إلى حزمة من أشجار الجوز ، على حافة الطريق : « هنالك كنت أميراً ورأيتك لأول مرة . . »

نعم . ولكنني كنت خريصة جداً وهدت لي هذه الطبيعة وحشية : أما الآن . . .

وسكنت فلم يجرؤ لورد « جرينفيل » على أن ينظر إليها .

قالت « جولي » في النهاية بعد صمت طويل : « يرجع إليك الفضل في هذا الاستمتاع . أليس من الضروري أن يكون المرء حياً كي يجد كل هذه المتع في الحياة ، أو لم أكن أسوى مبة بالنسبة إلى كل شيء حتى الآن ؟ لقد وهبني أكثر من الصحة إذ علمتني كيف أشعر بقبضتها . . .

ولأنشاء مواهب لا مثيل لها في تعبيرهن عن مشاعرهن دون استخدام أقوال كثيرة عالية الرنين ، فيلاغهن تسرى في التهجدة خصوصاً وفي الحركة والوضع والنظرات ، وأنشئ اللورد « جرينفيل » رأسه بين يديه لأن

الدموع تدحرجت في عينيه . وكان هذا الشكر أول شكر تؤديه
 « جولي » له منذ ارتحالها عن « باريس » وقد عالج الماركيزة منذ ستة
 كاملة بإخلاص وثقان كاملين . أيده ، ديجليسون ، فصحبها إلى مياه
 « إكس » ثم إلى شواطئ البحر من ناحية « الروشيل » وظل يترقب
 في كل لحظة التغيرات التي أحدثتها أوامره الخفيفة البسيطة في بناء
 « جولي » البدني المهتم . كما ظل يتعهدا كما يتعهد البستاني المشغوف
 زهرة فادحة . وعمدت الماركيزة . إلى تلقى عنابة « أرتير » الواعية بكل
 أمانة المرأة الباريسية التي اعتادت التكريم والاحترام . أوغلقها
 بلا مبالاة مثل لا مبالاة سيده البلاط التي لا تعرف قمار الأشياء أو قيم
 الرجال . وتأخذهم وفقاً للدرجة العائدة العائلة عليها منهم . ومن الأشياء
 الجديرة بالملاحظة التأثير الذي تحدثه الأماكن في الروح . وإذا كان
 الاستتاب يتمكننا دون أن نحظى المذهب عندما نكون على شواطئ
 البحار . فإن قانوناً آخر من قوانين طبيعتنا الانطباعية يؤدي إلى تنقية
 عواطفنا فوق الجبال . ذلك أن الشهوة تتول هناك استبلاء عميقاً
 على ما تبدو كأنها تفقده من حيث النشاط
 وأتباع مشهد حوض « اللوار » الفسيح وارتفاع التل البديع الذي
 كان العاشقان يجلسان فوقه في نفسيهما هنيهة للبدأ ذاقا خلاله أول
 الأمر تلك السعادة التي يحسها العشاق في تحمين أبعاد العواطف القوية
 التي تخفى وراء أقوال ليس في مظهرها دلالة خاصة .

وما إن غممت « جولي » عبارتها التي حركت انفعالات لورد
 « جرينفيل » تعريبكاً قوياً حتى هزت نسعة مخافة قمة الأشجار .
 وأشاعت نضارة المياه في الهواء . وحجبت بعض السحب الشمس .
 وأناحت بعض الظلال المائلة رؤيتها كل روائع تلك الطبيعة البديعة .
 وأدارت « جولي » رأسها كمن تخفى عن اللورد الشاب منظر الدموع
 التي لجحت في حبسها وتحفيتها . لأن حنو « أرتير » تملكها بسرعة
 خاطفة . ولم تجرؤ على أن ترفع عينها نحوه خوفاً من أن يقرأ فرحة كبيرة
 في نظرها . وأشعرتها غريزتها كأمراً بأنه من الضروري في تلك اللحظة
 الخطرة أن تدفن حبها في قاع قلبها . ورغم ذلك يستطيع الصمت
 أيضاً أن يكون رهيباً .

وعندما انتهت « جولي » إلى أن اللورد « جرينفيل » كان في حالة
 لا تسمح له بنطق قول واحد عاودت كلامها بصوت عذب قائلة :
 « لقد تأثرت بما قلته لك يا سيدي اللورد . وأعلل إظهار أسرار
 القلب فيما يشبه الصباح هو الطريقة التي تتخذها روح لطيفة وطيبة
 مثل روحك عندما تراجع عن حكم خاطئ . لقد اعتقدت أنني بحاجة
 للجميل عندما رأيته باردة محتفلة أو ساحرة وفاترة الحسن في أثناء
 هذه الرحلة التي سرعان ما سوف تنهى لحسن الحظ . وما كنت جديرة
 بتقبل عنايتك لو لم أكن قادرة على تقديرها . إنني لم أنس شيئاً يا سيدي
 اللورد . وأستغاه ! ولن أنسى شيئاً . لا الاهتمام الذي بذلته في

المسهر على كاهنهم ثم رعونم بابها . ولا الثقة النيلة على الخصوص في
مخادعاتنا الأخوية ورقة إجراءاتك . وكلها إغراءات نجد أنفسنا جميعاً
أمامها بلا أسلحة . ياسيندى اللورد إنه أكبر من طاقتي أن أكافئك ..
وعند قوماً ذلك ابتعدت « جولى » بقوة . ولم يتم لورد « جرينفيل »
بأى حركة لوقفها . واتجهت الماركييزة نحو صخرة على بعد بسيط . وبقيت
هناك ساكنة . وكانت انفعالاتها مرآة بينهما . ولا شك أنهما كانا
بينكيان حيايتين . ولعل زفزة العصفير المرحمة المتزايدة المعبرة تعبيراً
وقيقاً عن غروب الشمس كانت سبباً في زيادة تأثيرها الشديد العنيف
الذى أرغصهما على التواعد . وأخذت الطبيعة على عاتقها أن تعبر
لها عن الحب الذى لم يحرقها على الكلام عنه .

قالت « جولى » مرة أخرى وهى تقف أمامه فى وضع ملىء بالاحترام
سميح لها بأن تمسك يد « أرتير » : « حبه » حسن يا مبيدى اللورد ..
سوف أطلب منك أن تجعل الحياة التى أعدها إلى نقيبة ظاهرة .
وهنا سوف نفرق . أنا أعرف ..

ثم قالت وهى ترى وجه لورد « جرينفيل » بصقراً : إنه مكافأة
لك على تضحيتك ما فرض عليك أيضاً تضحية أكبر من تلك التى كان
على أن أعترف بها أكثر من سواها . ولكن يجب .. لن تبقى فى فرنسا
اليس فى طلب هذا منك إعطاؤك من الحقوق ما سوف يصبح مقاساً ؟
ثم وضعت يد الرجل الشاب فوق قلبها السريع الحركات .

قال « أرتير » وهو يهض من مكانه : « فعلاً »
وأشار فى تلك اللحظة إلى « ديجليسون » الذى كان يمسك بابته
بين ذراعيه . وقد ظهر من الناحية الأخرى من الطريق المحفور المتجاوز
للدايزين القصر . وكان قد تسلقه خصصاً ليجعل ابنته الصغيرة
« هيلين » تقفز من فوقه .

- « جولى » لن أحدثك عن حبي . فربحانا تفهم إحدىاهما الأخرى
أكثر مما يلزم . وأيضاً تكن أعماق أو أسرار الدائد قلبى وسمعه فقد
شاركتنى فيها جميعاً . لئن أحس هذا الحب وأعرفه وأراه . والآن
أنسلم الدليل الجميل المذاق على تعاطف قلبيتنا تعاطفاً دائماً . ولكننى
أولى الأدبار .. لقد حسبت عدة مرات ببراعة وسائل قتل ذلك الرجل
كما أستطيع أن أقاوم قتله دائماً إذا بقيت إلى جوارك .

- لقد تخطرت فى ذهني عين الفكرة . قالت ذلك وعلى وجهها
المضطرب تبدو علامات الدهشة الأثمة .

ولكنها كانت ذات فضيلة حسنة . وبقين شديد بنفسها .
وافقتصارات عديدة أحرزتها على الحب مرآة فى الهمجة والحركة اللتين
بندرتا منها . معنى ظل لورد « جرينفيل » مأخوذاً بالإعجاب . فقد كان
ظل الجريمة قدس قد تلامي فى ذلك الفسيف الساذج . وسيطرت
عاطفة دينية على ذلك الحبين الرائع الحسن . فاستطاعت أن تطرد
منها دائماً الأفكار الخبيثة غير الإرادية التى تولدها عادة طبيعتنا

القاصرة ، وتدل برغم ذلك على عظمة مصيرها وأخطاره .

وعندئذ كنت سأعرض لاحتقارك . ولكنه صار متقدماً .

وعاد يقول وهو يخفض عينيه : « أليس فقدان تقديرك هو الموت

بعينه ؟ »

وظل هذان العاشقان البطوليان صامتين بعض الوقت أيضاً وبقيا مشغولين بالتهام أوجاعهما الحسنة والسينة على السواء ، وكانت أفكارهما بانخلاص عين الأفكار عند كل منهما ، ولعلهما كانا يتقاهما في متعتهما الذاتية تماماً على نحو ما يتقاهما في أكثر آلامهما خفاء .

قالت وهي ترفع عينها الملبثتين بالدموع نحو السماء : « لا ينبغي أن أهتمس . وشغائى في حياتى هو بعض ما يخصنى » .

صباح اللواء من مكانه وهو يقوم ببعض الحركات : ياسيدى المورِد . لقد التقينا في هذا المكان نفسه لأول مرة ، وقد لا تذكر أنت ذلك . هناك في المنحدر بالقرب من أشجار الحور « تلك » .

وأجاب الإنجليزي بإمالة مفاجئة من رأسه .

وقالت « جولى » لقد كان ينبغي لى أن أموت شابة شقية . نعم ! إذ يجب ألا تعتمد أنى أعيش . وسوف يكون الحزن عميقاً بنفس درجة المرض اللعين الذى شقيقتى منه . ولا أرى نفسى مذنبه . لا . فالعواطف التى حملتها لك لا تقاوم ولا تقضى . ولكنها غير إرادية بالمرء . وأود البقاء عفيفة . وبرغم ذلك سأظل مخلصة لضميرى كروحية .

ولما جئنا كأم ، وكذلك لأمنيات قلبى . اصنع لى .

وقالت « جولى » ذلك له بصوت مضطرب : « لن أعود أنتمى لى ذلك الرجل بحال » وأشارت لى زوجها فى حركة مخيفة من الفرع المزروع بالصدق . واستمرت تقول :

— تفرض على قوانين المجتمع أن أجعل وجوده سعيداً وسوف أطيع ذلك . سأكون خادمته . وسكون تصحيتى من أجله غير محدودة بحدود . غير أنى سأكون أرملة منذ اليوم . ولا أريد أن أكون عاهرة فى فطر نفسى أو فى نظر المجتمع . وإذا لم أجد أنتمى إلى السيد « ديجليسون » فلن أنتمى أبداً لى سراة . ولن تحظى أنت بأكثر مما انتزعت منى . وهذا قرار اتخذته على نفسى . قالت ذلك وهي تنظر لى ، أرتير . فى خيلاء . واستطردت : وهو قرار لا رجعة فيه ياسيدى اللورد . والآن أعلم أنك إذا استسلمت لفكرة إجرامية فسوف تلجأ لرملة السيد « ديجليسون » الدير فى إيطاليا أو فى إسبانيا . لقد شاء سوء الحظ أن تحدث عن غرامنا . ولعل هذه الاعتراضات كانت فى حكم المقهور . ولا كان ذلك لآخر مرة فقد اهتزت قلوبنا اهتزازاً شديداً . وسوف تظاھر غداً بثلثي رسالة تستدعيك إلى إنجلترا وستفترق على ألا تلتقى .

وبرغم ذلك فقد أحسبت « جولى » بعد أن أرفضها المجهود بركبتها تشيان . وتملكها برد قاتل وجلست بدافع من فكرة نسائية بحثة كجا تنفادى الأرحام فى أحضان « أرتير » .

صاح لورد « جرينفيل » : « جولي » .

وجدت هذه العشيحة النافذة كأنفجار الرعد . وباحت تلك الصرخة الممزقة بكل ما لم يقله العاشق الذي ظل صامتا حتى آنف .

سأل اللواء : « هيه .. إذن ... ماذا بها ؟ »

وعند سماع هذه الصرخة أسرع الماركيز الخطو . ووجد نفسه فجأة أمام العاشقين .

قالت « جولي » : وهي محتفلة بالدم البارد على نحو رائع مما تسمح نعمة النساء الطبيعية فتن به في أغلب أوقات الأزمات العصبية في الحياة : « لا شيء في الأمر .. لقد كادت نضارة شجرة الخوخ هذه تفقدني الوعي مما أربح طيبتي المعالج خوفاً . أليس بالنسبة إليه مثل العمل الذي لم يكتمل بعد ؟ لقد ارتعد أمام رقيبته يهدم .. »

وسندت في حراة إلى ذراع لورد « جرينفيل » وابتنست إلى زوجها ونظرت إلى المتظار قبل أن تغادر قبة الصخور وجذبت رفيق رحلتها وهي تأخذ بيده .

قالت « جولي » : هاهنا بالتأكيد أجمل موقع رأيته . ولئن أنساه إطلاقاً . انظر إذن يا « فيكتور » أي أبعاد مرامية . وأي مساحات شاسعة . وأي تنوع واختلاف . هذا الإقليم يعانى أفهم الحب .

وصدوت منها ضحكة تكاد تكون مخنقة . ولكنها استوفيت أدائها حتى تخلع زوجها . وقفزت تعدو بمرح في الطرق المخفورة واختفت .

قالت وقد ابتعدت عن السيد « ديجامبون » : « هيه .. ماذا ؟ الآن ؟ هيه .. ماذا يا صديقي ؟ بعد لحظة لا نكون نحن أنفسنا ولن نصبح أنفسنا إطلاقاً . أي أننا لن نعيش بعد اليوم .. »

أجاب لورد « جرينفيل » : « هيا بهبطه فالعربات لا تزال على مبعده من هنا . سوف نمشي معاً . وإذا كان مباحاً لنا أن نبت نظراتنا بعض أقوالنا فسوف تحيا قلوبنا لحظة أطول .. »

وذها ينتزهان فوق السد على حافة الماء في آخر النهار صامتين تقريباً لا يتطلقان إلا بعبارة مهمة حلوة كهمس مياه نهر « اللوار » ولكنها تحرك النفوس . وعندما غابت الشمس لفتها جذباً في انعكاساتها الحمراء قبل أن تزول كصورة أسبالة لحيهما المقادير .

وتخوف اللواء من عدم العثور على العربية في المكان الذي كانت واقفة فيه . فتبع العاشقين أوسيقهما دون أن يتدخل في محادثتهما . وقد حطم سلوك اللورد « جرينفيل » النبيل الرقيق الذي احتفظ به خلال الرحلة كل وساوس الماركيز وشكوكه فترك زوجته حرة منذ بعض الوقت واثقاً من حسن النية لدى الطبيب اللورد . ومضت « جولي » و « آرثير » وجعلاً عشيان في ظل الاتفاق المخزن المؤلم بين قلبيهما الذائبين . ومنذ هنية حين كانا يصعدان خلال المنحدر الوعر لتضيق « مونكوكتور » كان لذهبهما أمل غامض مبهم وسعادة مشفقة ولم يكونا يجروان على الاستفسار عن مؤداها . أما وقد عادا يهبطان على

طول السد فقد قلبا البتاء الواهي الذي شيدته خيالها . ولم يعودا يحرقان على إظهاره مثل الأطفال الذين يتوقعون سلفاً سقوط القصور التي يقيمونها من الورق المقوى . كانوا يغير أمل . وفي نفس الليلة رحل لورد « جرينفيل » . وأثبت آخر نظرة ألقي بها نحو « جويل » لسوء الحظ أنه كان على حتى في التحرر من نفسه منذ اللحظة التي بدأ التعاطف يكشف لها مدى العشق الخارق الذي كان يكمن في قلبها .

وحيثما جلس السيد « ديجليسون » وزوجته في اليوم التالي في دالجل العربية بغير رفيق رحلتها . وأخذتا يتفقدان الطريق في سرعة . تذكرت « جويل » الرحلة التي قطعتهما مع الماركيز سنة ١٨١٤ . عندما كانت لا تزال تجهل الحب . وكادت تلحن اسمواره حينذاك في فؤادها ثم تدافعت آلاف الانطباعات المسية . فالقلب له ذاكرته الخاصة به . ومثل تلك المرأة التي لا تقوى على تذكر الأحداث الحسام موفت تتذكر طول حياتها أشياء بهم عواطفها . كذلك كانت « جويل » تتذكر التفاصيل النافذة تذكرها كاملاً . وتعرفت بسعادة على أسطر الأحداث التي اعترضت رحلتها الأولى إلى حد تذكرها بعض الأفكار التي خطرت على بالها عند مواقع معينة في الطريق .

ولما كان « فيكتور » قد عاد يعشق زوجته بشغف منذ استردت نضارة شبابها وكل جلالها . فقد جاء يدنو منها على طريقة الخبيين . وتجرد سعيه لأخذها بين ذراعيه انسجبت برقة وتغللت بأى عذر

لكي تتحاشى تلك الملامسة العريضة . ثم سرعان ما استأزت من الاحتكاك به برغم أنها كانت تحس بجزائره وتشارك فيها بحكم الطريقة التي جلسا بها . وأرادت أن تجلس بمفردها في مقدم العربية فأبدي زوجها كروماً وتركها وحدها في أقصى العربية ، وشكرته هذا الالتفات في تهدي لم يرعه انتباهها . وفي آخر النهار اضطربها « فانت » الحرس العسكري ذاك إلى أن تحدثت معه بثبات أرجيه بعد أن كان قد راح يقصر اكتسابها في مصلحته .

وقالت له : « يا صديق ! لقد كنت أن تقتلي سلفاً . وأنت تعرف ذلك . وإذا كنت الآن فتاة شابة بلا تجربة في استطاعتي أن أبدأ من جديد التضحية بخيالي . ولكنني أم الآن . ولدي ابنة يجب أن أربيها وأدين لها بقدر ما أدين لك . فلنخضع لسوء حظ أصابتنا معاً بالنسوى . وأنت صاحب التصيب الأقل من الرشاء لك . ألم تعرف كيف نجد عزاءك ونسليتك ، في حين أن واجبي ، وشرقي المشترك . والطبيعة فوق ذلك كله تحرمه علي . ثم أضافت : وعلى فكرة لقد تسببت بطيش منك ثلاث رسائل من السيدة « ديسيريزي » في الدرج . ها هي ذى . وإذا كان صمتي يثبت لك شيئاً فهو دليل على أن لك في شخصي زوجة ملبية بالنسامح ولا تفرض عليك التضحيات التي يفرضها القانون عليها . غير أنني فكرت بما فيه الكفاية حتى تحققت من أن دورينا مختلفان ، وأن المرأة وحدها مقسوم عليها بالشقاء . وتقوم عفتي على مبادئ محددة وثابتة .

وسأعرف كيف أعيش بغير انتقاد، فلا أقل من أن تدعى أعيش .

حار الماركيز من المطلق الذي تعرف النساء درامته فيها يتعلق بوضوح الحب وقد قسعت تلك الكرامة التي تبدو طبيعية لديهن في مثل هذه الأنواع من الأزمات . ومن أجمل الأشياء عند النساء ذلك التفوق الغريزي الذي أظهرته « جولي » نحو كل ما أساء إلى حباها أو إلى أمتيات قلبها والذي قد ينشأ عادة من فضيلة طبيعية لن تسكتها القوانين أو المدنية .

ولكن من ذا يجري على تأليب النساء ؟ ألسن يشبهن المساومة بغير عقيدة حين يفرضن الصب على العاطفة الهائلة التي لا تسبح لمن بالانتماء إلى رجلين ؟ إذا كانت بعض التفويض القاسية تعاقب ذلك النوع من « الاتفاق » أو العهد الذي أخذته « جولي » على نفسها بين واجباتها وحبها فقد ترى فيه الأرواح العاطفية الوطنية جريئة . إذ أن الإنكار العام بينهم الشقاء الذي ينتظر عدم الطاعة للقوانين . كما بينهم العيوب المؤسسة في الأنظمة التي تقوم عليها المجتمعات الأوروبية .

ومضى عامان عاش فيها السيد والسيدة « ديجليمون » حياة أهل المجتمع قبح خرج كل منهما منفرداً ويلتقيان في الصالونات أغلب ما يلتقيان لا في البيت . وذلك هو نوع الطلاق الرشيق الذي ينتهي إليه الكثير من زيجات المجتمع العالي . وفي إحدى السهرات التي التقي الزوج وزوجته في صالون بينهما على غير العادة . إذ كانت السيدة « ديجليمون »

قد دعت إحدى صديقاتها إلى العشاء . وبقى المواء في بيته في تلك الليلة برغم عشائه الدائم في الخارج .

سيدتي الماركيزة سوف تكونين سعيدة .

قال السيد « ديجليمون » ذلك وهو يضع قنجان القهوة الذي شربه قبل قليل فوق المائدة . ونظر الماركيز إلى السيدة « ديومفين » معبراً عن الحب والحزن بقدر متساو ثم أضاف :

« سوف أرحل في رحلة صيد طويلة في صحبة قائد الصيد بالكلاب . وستعيشين أرملة تماماً على الأقل أثناء ثمانية أيام ، وهذا هو ما تتمنيه فيها أعتقد ... »

ثم قال للخادم الذي جاء يحمل الفناجين : « يا جييوم » هيا علق الحيوانات بالعربات .

أما السيدة « ديومفين » فهي « لويز » التي أرادت السيدة « ديجليمون » قديماً أن تنصحبها بالعزوبة . وتبادلت المراتال نظرة واعية أثبتت أن « جولي » قد وجدت في صديقتها الشخص الذي تنق به وتسرع إليه بكل أدواها . وهي موضع ثقة ثمين عطوف . لأن السيدة « ديومفين » كانت سعيدة جداً في زواجها . ولعل حظ إحداهما السعيد في مثل هذا الموقف المتعارض الذي كانتا فيه . صار مصدر ضمان لتضحيتها بالنسبة إلى نعاسة الأخرى . ففي مثل هذه الحالة يكون عدم التشابه في المصائر في الغالب رابطة قوية من روابط الصداقة .

قالت «جولي» وهي تلقي نظرة غير عابثة إلى زوجها : « وهل هذا هو فصل الصيد ؟ »

كان ذلك في أواخر شهر مارس...

— سيدتي إن قائد الصيد بالكلاب يعطاد في أي زمان وأي مكان يريد. وسوف نذهب إلى الغابة الملكية نصيد الخنازير الوحشية.

احتط لنفسك حتى لا يصيبك شيء ما.

قال وهو يتشم : إن سوء الطالع غير متوقع دائماً.

قال «جيروم» : « عربة السيد جاهزة ».

فنهض اللواء. وقبل يد السيدة «ديورمفين» ثم استدار نحو «جولي» وقال في حالة استعطاف :

سيدتي إذا ضمت شخصية خنزير وحشي !

سألت السيدة «ديورمفين» ماذا يعني ذلك ؟

قالت السيدة «ديجلبيون» البشيكور : « هيا تعال ، ثم اجلس كما لو كانت تقول «لأريزا» سوف ترين ».

ومدت «جولي» رقبها نحو زوجها الذي تقدم لتقبيلها. ولكن لم تلبث أن تحركت فانزلقت القبلة الزوجية فوق شريط زينة الحرمل.

قال الماركيز وهو يوجه كلامه إلى السيدة «ديورمفين» : سوف تشهدين على ذلك أمام الله إذ يلزمي فرمان من أجل الحصول على هذا

الإتمام الطفيف. وهذا هو مما تعنيه زوجتي بالحجب. لقد سافقتني إلى ذاك بحيلة لا أذريها. تمنائي السعيدة.

وخرج.

صاحبت «لأريزا» عندما ضايرت المراتان على اقتراد : « ولكن زوجات المسكين طيب حقيقة... إنه يحبك ».

أوه. لا نصلي إلى كلمة الحب من الأوصاف ما يحمله إلى معنى آخر. فأسمى ما يشعر به بدفعني إلى الاشتزاز.

قالت «لأريزا» : نعم ولكن « فيكتور » يطيعك طاعة عمياء.

قالت «جولي» : مرجع طاعته في الغالب إلى الإعزاز الكبير الذي أوحيت به إليه. ذلك أني امرأة فاضلة جداً حسب القوانين.

وأجعل بيته عيباً ، وأغضض عيني عن مساكنه. ولا أنقص شيئاً من ثروته. فهو يستطيع أن يعثر دخوله كما يشاء. وأنا أعني فقط بالمحافظة

على رأس المال. وهذا هو ثمن الهدوء وراحة البال. وهو لا يشرح لنفسه أو لأريزا أن يشرح لنفسه وجودي. ولكنني إذا كنت أمضي مع زوجي

على هذا النحو فلا يخلو ذلك من آثار ترويح طياعه. فأنا أشبه مروض اللب الذي يرتعد من أن تتعظم الكمامة يوماً من الأيام. وإذا كان

« فيكتور » يعتقد أن له الحق في ألا يشعر بالإعزاز نحوي فلا أكاد أجرو على التنبؤ بما يمكن أن يحدث. إذ أنه عنيف مليء بحب الذات وبالغرور على الأخص. ولو لم يكن ذا فكر دقيق بما فيه الكفاية.

كفى يقف موقفاً حكيماً في ظروف حرجية ، عندما تتعرض رغباته السيئة للعبث ، لعمدته إلى قتلى مؤقناً ، لأنه ضعيف الطباع ، ولو مات هو نفسه حزناً في اليوم التالي . ولكن هذا الحظ المقادير لا يحرف منه .

وسادت لحظة صمت انتقل فيها فكر الصديقين إلى السبب المجهول لهذا الموقف . ثم استوردت « جولي » وهي تأتي نظرة حزم نحو « لويزا » : « لقد أظمت في قسوة . ولكنني برغم ذلك لم أمتنع » هو من أن يرأسني آه ! لقد نسيت « هو » ولد في ذلك حتى . لقد كان مصيره ميت حطم بأشأم الأحداث ! اليس يكفي ما حدث بمصيري ؟ هل تصديقين يا عزيزتي أنني أطالع الصحف الإنجليزية يومياً على أمل وحيد هو أن أقع على اسمه مطبوعاً . هيه ! اليس قريباً ألا يكون اسمه قد ظهر بعد في مجلس اللوردات .

— أنت تعرفين الإنجليزية إذن ؟

— لم أكن قد بعث لك بذلك ! لقد نعلمتها .

صاحت « لويزا » وهي تمسك يده « جولي » : « مسكينتي الصغيرة ..

ولكن كيف تستطيعين أن تغلي على قيد الحياة ؟ »

أجابته الماركييزة وقد أفلتت منها حركة منادجة تكاد تبلغ حد الطفولة : « هذا سر خاصي إلى ، إنني أتناول الآفون . قصة حياة الدوقة « دي . . » في لندن أعطتني الفكرة . وأنت تعرفين أن « ماتيران » قد ألقت عنها رواية طويلة . ولكن قطرات « لوداتوم » أي « صبغة الآفون »

ضعيفة جداً . إذ أنني أنام وحسب ، ولا أظل مستيقظة سوى سبع ساعات أمياً كلها لابنتي . . .

وتأملت « لويزا » نار المدفأة دون أن تجرؤ على أن تنظر إلى صديقها التي كان شقاءها يتزايد في عينها لأول مرة .

وقالت « جولي » عقب لحظة صامتة : « لويزا » احفظي في سري .

وفجأة أحضر خادم خطاباً إلى الماركييزة . . .

صاحت « جولي » مصفرة الوجه : « آه ! »

قالت السيدة « ديويغين » : « لن أستفسر عن المرسل . وراحت الماركييزة تقرأ ولم تعد تسمع شيئاً . وشهدت صاحبها أشد المشاعر حيوية وأكثر التبجيل خطراً ، وهي ترسم كلها على وجه السيدة « دييجليسون » التي كانت تحمر وتصفّر دوراً بعد دور . وأخيراً ألقت « جولي » بالورق إلى النار .

— هذا الخطاب مثير . أوه ؟ قلبي يخفقني .

وهضت وأخذت تمشي وعيناها تومضان .

صاحت « جولي » إنه لم يغادر باريس .

وكان حديثها مرتجياً بلا نسي بحيث لم تجرؤ السيدة « ديويغين » على أن تقاطعها ، بل مكث حديثها متقطعاً تتخلله فترات صمت مخيفة . وكانت العبارات تصدر خلال كل توقف عن فمها بلهجة أكثر فأكثر عمقا . كما أن الألفاظ الأخيرة كانت تنسم بطابع مفرع .

— إنه لم يكف عن رؤيتي دون علمي نظرة من نظرائي الحائرة
كل يوم تعينه على الحياة . أنت لا تعرفين يا لويزا ، إنه يموت ويطلب
أن يودعني . ويعرف أن زوجي قد تغيب عن البيت هذه الليلة لعدة
أيام ، وسيأتي بعد لحظة . أوه ! لسوف أصبح بسبب ذلك لقد ضعت
أبني معي . أمام امرأتين لن يجرؤا أوه ! امكثي قلنا أخشى نفسي .

أجابت السيدة « ديومفين » : « ولكن زوجي يعلم أنني تناولت
العشاء في بيتك ، ولابد أن يحضر ليصبحني » .

إذن سأكون قد صرفته قبل رحيلك . سوف أكون الحلال
بالنسبة إلينا نحن الاثنين . يا أسفاه سوف يعتقد أنني لم أعد أحبه .
هذه الرسالة ! عذرتي . لقد احتوت تلك الرسالة على عبارات أراها
الآن مكتوبة في خطوط من قار .

وخطرت عربة أمام الباب .

صاحت الماركييزة في نوح من التهمة : آه ! لقد جاء علناً وبغير
خفاء .

— صباح الخادم : لورد ، جرينفيلد .

بقيت الماركييزة واقفة ساكنة . وبمجرد رؤيتها ، أرنير ، أحضر
اللون خيفاً شاحباً لم تعد القسوة ممكنة جباله . ورغم أن لورد ، جرينفيلد ،
قد أحس باستياء غفيف لرؤية « جول » في غير الأفراد ظهر هادئاً
بارداً . أما بالنسبة إلى هاتين المرأتين الملمتين بأمرار حبه فقد كانت

هيئته ورنه صوته وتعبير نظراته في مثل القبرة التي تعزى إلى آلات الانفجار
الحراري . وبقيت الماركييزة والسيدة « ديومفين » كخزوايين تحت
تأثير الشعور المتبادل الصارخ بالألم المروع . وكانت رنة صوت لورد
« جرينفيلد » تدفع السيدة « ديجلمون » إلى الاختلاج القاسي . حتى
إنها لم تجرؤ على أن تجيبه خوفاً من أن تكشف له عن مدى تأثيره
وسيطرته عليها . ولم يجرؤ لورد « جرينفيلد » على تأمل « جول » بحيث
أخذت السيدة « ديومفين » على عاتقها وحدها مهمة المحادثة الغالية
من أية أهمية . وشكرتها « جول » على تجلسها لها بأن بعثت إليها بنظرة
مطبوعة بالاعتراف المؤثر بالجميل .

وعلى ذلك قرص العاشقان الصمت على مشاعرهما . وكان لازماً
أن يستمسكا في داخل الحدود التي تعيها الواجبات والتبقيات . ولكن
سرعان ما أعلن حضور السيدة « ديومفين » . وعند دخوله تبادل الصديقان
نظرة . وفهمتا دون كلام صعوبات الموقف الجديدة . وقد كان من
المستحيل إطلاع السيد « ديومفين » على سر هذه المأزاة . ولم يكن
لدى « لويزا » مبررات ذات قيمة كي تقدمها إلى زوجها لو علمت إليه
اللقاء مع صديقها . ولم تكذ السيدة « ديومفين » تلبس الشال حتى
نهقت « جول » كأنها تساعد على ربطه . وقالت بصوت خفيض :
« سأجد الشجاعة . مادام قد جاء علناً عندي فما الذي أخشاه ؟ ولولاك
لسقطت عند قدميه منذ أول لحظة لمراه المتغير » .

ثم قالت السيدة « ديجليمول » في حضرة مرثخف ، وهي تعود
لناخذ مكانها فوق تخت جلوس شخصين لم يعرفوا اللورد « جرينفيل »
على المجيء للجلوس عليه : ماذا إذن يا « آرثير » ؟ إنك لم تطلعي .
- لم أستطع مقاومة منعة الاستمتاع إلى حصولك ومنعة البقاء إلى
جوارك مدة أطول . لقد كان ذلك نوعاً من الجنون أو الخرف . لم أعد
سبب تقني . لقد شاورت نفسي جيداً وعلمت أنني أضعف مما ينبغي
إذ يجب أن أموت . ولكن الموت بغير أن أكون قد رأيتك . ويعبر أن
أكون قد استمتعت إلى ارتعاش ثوبك واقتطعت دموعك . أي موت
هو ذلك !

وأراد الابتعاد عن « جولي » ولكن حركته المفاجئة أدت إلى سقوط
مسند من حبيبته . ونظرت الماركية إلى هذا السلاح نظرة لم تعبر عن
العشق أو التفكير . والتفت لورد « جرينفيل » مستدماً : وظهر كأنه قد
استاء بقسوة من حادث يمكن أن يؤخذ على أنه مساومة غرامية .

سألت « جولي » : « آرثير » ؟

أجاب « آرثير » وهو يحفظ من عيبه : « ميلدي » ، لقد جئت
مليناً بالأس وأردت .. ثم توقف ..

صاحت : « أردت أن تتحرر في بيتي » .

قال بصوت رقيق : « ليس بمفردى » .

إيه ! ماذا ! من المحتمل زوجي أيضاً ؟

صاح بصوت مخنوق : « لا .. لا .. ولكن اطمئني » . وعاد يقول :
لقد أخطئ مشروعي المقلوب . بمجرد دخولي إلى هنا . وعندما رأيتك
أحسست بالشجاعة على أن أصمت وعلى أن أموت وحدي .

ونفضت « جولي » وألفت بنفسها بين ذراعي « آرثير » الذي استطاع
أن يتبين ، برغم شهبق عشيقته بالبكاء ، قولين مليئين بالعشق . قالت
« جولي » : أن يعرف المرء السعادة ثم يموت ... إيه ! بل نعم !

وكانت كل قصة « جولي » مركزة في هذه الصيحة العسيفة .
صيحة الطبيعة والحب الذي تدع له المرأة غير المتدنية . وأمسك بها
« آرثير » وحملها فوق الأريكة بحركة ذات ظابع العنف الذي تدفع
إليه السعادة غير المتظرة . ولكن الماركية التزعت نفسها فجأة من
ذراعي حبيبها . وقذفته بنظرة ثابتة من امرأة يائسة . وأخذته من يده .
وأفسكت بمضباح وفادته إلى غرفة النوم . ثم بلغت الممرير الذي تنام
فوقه « هيلين » فدفعت ستاره وكشفت غطاء أبتها برفقة . وهي تضع
يدنها أمام الشمعة حتى لا يضايق الضوء جفون الابنة الصغيرة الشفوفة
نصف المغفلة . وكانت ذراعها « هيلين » مفتوحين . كما كانت تبسم
وهي نائمة . وبنظرة أشارت « جولي » إلى طفلها أمام لورد « جرينفيل »
وكان كل شيء في تلك النظرة .

- أما الزوج فمستطيع أن يهجره . حتى ولو أحيانا . فالرجل كائن
قوي يستطيع أن يجد عزاءات كبيرة . وتستطيع أن تحترق قوانين

المجتمع . أما الطفل بغير أم ...
كانت كل هذه الأفكار وآلاف أخرى أكثر حثوا في تلك
النظرة .
قال الإنجليزي وهو يتم : « تستطيع أن تحملها معك » . وسوف أحبها
كثيراً ... »

صاحت « هايبن » مستيقظة : « ماما ! »

و بمجرد سماعها ذرفت « جولي » الدموع . وجلس لورد « جرينفيل »
صامتاً حزيناً يذراعاه مقبضتين إلى صدره في تقاطع
« ماما ! » هذا الطلب الحلو الساذج أيقظ كثيراً من المشاعر
النبيلة . وكثيراً من التعاطفات التي لا تقاوم . بحيث انسحق الحب
لحظة أمام مشورت الأمومة القوي . إذ لم تعد « جولي » امرأة . وإنما
صابت أمّاً . ولم يقاوم لورد « جرينفيل » طويلاً إذ انتصرت عليه دموع
« جولي » .

وفي تلك اللحظة انفتح أحد الأبواب بعنف محدثاً ضجعة كبيرة ،
ودوت هذه الألفاظ كدوى الرعد في قلب العاشقين ! هل أنت هنا
يا سيدة « ديجليسون » ؟

فقد عاد الماركيز . وقبل أن تستطيع « جولي » استعادة الدم البارد
كان الهواء يتجه من غرفته نحو غرفة زوجها . فقامت الغرفتان
متلاصقتين . ولمحس الحظ أشارت « جولي » إلى لورد « جرينفيل »

الذي أتى بنفسه في مقصورة المياه . وأوصدت الماركيزة بابها بإحكام .
قال « فيكتور » : « هاها زوجتي .. هاأذا .. » . « أنا لم نقم بمشروع
الصيد » . وسأذهب للنوم .

قالت هي : « عم مساء » . وسأفعل مثلك . وعلى ذلك دعني أستبدل
ملابسي .
— تبدلين خشنه اللبقة . سمعاً وطاعة يا سيدتي الماركيزة .

وعاد الماركيز إلى غرفته . وصحبته « جولي » كفى تغلق الباب الموصل
واندفعت لتخليص اللورد « جرينفيل » واستعادت رباطة جأشها
وحضور ذهنها . ففكرت في أن زيارة طبيبها القديم لها طبيعة غامضة .
وكان في إمكانها أن تحركه في الصالون كفى تحضر لتستريح على نوم
ابنتها . وذهبت لتطلب منه التوجه إلى هناك بلا ضوضاء . ولكنها
لم تكمل تفتح باب المقصورة حتى صرخت مدوية . إذ كانت أصابع
لورد « جرينفيل » قد انشرفت في فريضة الباب فهرستها .
سأفها زوجها : « إيه ! ماذا بك إذن ؟ »

— لا شيء ، لا شيء ... لقد شككتني ديبوس في أصبعي .
وفجأة انفتح باب الاتصال . وظلت الماركيزة أن زوجها جاء
خصيصاً من أجلها . ولعبت ذلك الاهتمام . فلم يخلق القلب عبثاً .
ولم تكمل تجد الوقت لإفقال مقصورة المياه ولم يكن لورد « جرينفيل »
قد سحب يده بعد . وظهر اللواء مرة أخرى في الواقع . غير أن الماركيزة

أخطأت إذا كان قد قدم نحوها بسبب مسائل شخصية خاصة به .

— هل لك في أن تعبريني مندبلاً ؟ إن « شارل » ذاك الغريب .
فهو يخشى دون أن يتكلم لي مندبلاً واحداً للرأس . في أيام زواجنا الأولى
كنت تتدخلين في أعمال برعاية دقيقة إلى درجة مضايقتي . آه إن
شهر العسل لم يدم طويلاً بالنسبة إلى « ولا » بالنسبة إلى أربطة عنتي .
والآن صرت تحت رحمة سلطة مدنية خاصة هؤلاء الناس الذين يسخرون
بجدياً مني .

— خذ . هالك مندبيل . ألم تمر بالصالحون ؟

— لا .

— كان يمكن أن تأتي هناك بلورده « جرينفيل » .

— أهو موجود بباريس ؟

— يبدو هذا .

— آوه ! سأذهب إلى هناك . هذا الطبيب الطيب .

صاحت « جولي » : ولكن لعله وحل الآن ؟

وكان الماركيز حينذاك في وسط غرفة زوجته قد غطى رأسه بالمندبيل ،

وهو ينظر إلى نفسه في المرآة بإعجاب ورضى .

— لا أدري أين هم شغالة البيت ؟ لقد دققت الحرس « لشارل »

ثلاث مرات ولم يحضر . أنت أيضاً إذن بدون الخادمة ؟ دقتي لها الحرس

لأنني أود اللبلة غطاء إضافياً لسريري .

أجابت الماركيزة بخفاف : لقد ذهبت « بولين » للترهة .

— في منتصف الليل !

— لقد آذنت لها بالذهاب إلى الأوبرا .

قال الزوج وهو يخلع ملابسه : هذا شيء « فريد » . لقد حيل إلى أنني

رأيتها عند صعودي السام .

قالت « جولي » وهي تتكلم عديم الصبر : لقد عادت إذن

بلا شك .

ثم لكي تنحاشي الماركيزة إيقاظ أي شك لدى زوجها سحبت

حيل الحرس شدة أخفياً .

ولم تعرف أحداث تلك الليلة تماماً . ولكن لاشك أنها كانت

جميعها غاية في البساطة . وغاية في الشناعة . على نحو ما كانت عليه

الأحداث المبتذلة البيتية السابقة .

وفي اليوم التالي وقعت الماركيزة « ديجليمون » في سريرها جملة أيام .

سأل السيد « ديرونكرو » السيد « ديجليمون » بعد أيام قليلة

من ليلة الكوارث : ما الحدث الغريب الذي وقع بينك حتى يتحدث

المجتمع كله عن زوجتك ؟

قال « ديجليمون » : صدقي .. واني عزيزاً . لقد أمسكت النار

بستائر النمرير الذي كانت تنام فيه « هيلين » وفجعت زوجتي للحدث

حتى أصابها مرض يستغرق عاماً كاملاً حسب إشارة الطبيب . . . تتزوج

من امرأة جميلة فتصير قبيحة . وتتزوج فتاة مليحة بالصحة . فتتحول إلى صاحبة نقاهة . وتعتقد أنها شديدة الروع فإذا بها باردة . أو أنها باردة في المظهر ثم تكون في الحقيقة شهوانية بحيث تقتلك أو تترى بشرفك . أحياناً تصير المخلوقة الشديدة الرقة مخلوقة ذات أهواء . ولن تكون ذات الأهواء رقيقة الحال . وأحياناً تبسط العطفلة ، التي احترتها حواء ضعيفة ، عندك إرادة من حديد أو روح شيطان . لقد تعبت من الزواج .

— أو من زوجك .

هذا صعب . بالمناسبة ، هل تحب أن تحضر معي إلى كنيسة القديس « توما الاكوييني » للمشاهدة دفن « لورد » جرينفيل ؟ قال دير ونكروول : هذه فرصة فريدة لإضاعة الوقت . ولكن هل عرف سبب وفاته على وجه التحديد ؟

— زعم تخادمه أنه بقي ليلة بأكلها على الإفريز الخارجي من الشباك إنقاداً لشرف عشيقته . وكان الليل بارداً برذاً قارساً هذه الأيام ! هذه التضحية كانت تصير محل تقدير كبير لدينا نحن المدرسين أيضاً . غير أن لورد « جرينفيل » شاب و .. إنجليزي . هؤلاء الإنجليز يريدون دائماً التفرد في كل شيء .

أجاب « ديجليسون » على أي حال تتوقف ملامح البطولة على المرأة التي توحى بها . ومن المؤكد أن « أرنيز » المسكين لم يمت من أجل زوجتي !

آلام مجهولة

يمتد فيما بين « تهر » اللوان « الصغير » و « السين » سهل فسيح تحفه غاية « فرنسيسلوه » وثلاث مدن هي « موريه » و « ليندور » و « مونتيروه » ولا يرى البصر في ذلك الإقليم المجلد سوى نلال فادرة . وترى أحياناً وسط الحقول بعض الحثور الخشبية التي تأوي إليها طرائد الصيد . ثم ترى في كل مكان تلك الخطوط المحدودة الرمادية أو الصفراء الخاصة بآفاق « سولوى » و « يوس » و « بيرى » . و يرى المسافر وسط ذلك السهل بين « موريه » و « مونتيروه » قصرأ قديماً اسمه « سالي لانج » الذي لا تخلو منافذ الوصول إليه من عظمة وجلال . إنها كلها من المنزهات الرائعة ذات شجر الدردار على الجانبيين . وذات الحفريات والحوائط الطويلة حول الأخواش . والحداثق الشاسعة . والمباني الواسعة الخاصة « بالأشراف » التي احتاجت في بنائها إلى جباية الضرائب غير القانونية . وكذلك إلى ثمرات المزارع العامة . وسرقات وكيل الخزانة لمال الحكومة المشروعة . أو الثروات الضخمة الأرستقراطية التي هدمتها الآن مطرقة القانون المدني . فإذا ناد بعض الفاتنين ،

أو بعض الخاملين متصادفة في الطرق ذات آثار العجالات العميقة أو الأراضي الصلبة التي تحصى مدخل الإقليم ، فإنه يتساءل عن النزوة التي دفعت إلى الإلقاء بهذا القصر الشاعري إلى تلك السهول المشوشة بالقمح ، وتلك الصحراء المليئة بالطباشير والسجيل والرمال ، حيث يموت المرح ، وتشتأ التعاسة حتماً ، وتتعب الروح بلا توقف بسبب العزلة التي لا يخرج بها صيوت ، والآفاق الرتيبة ، والمظاهر السلبية للجمال ، وإن كانت مناسبة للآلام التي لا تطمح في عزاء .

وجاءت امرأة شابة اشتهرت في « باريس » بطفها وحسنها وروحها ، وكانت ذات وضع اجتماعي وثروة متناسبتين مع شهرتها العريضة ، جاءت تقيم ، مثيرة اقلعهاشاً كبيراً ، في القرية الصغيرة الواقعة على بعد ميل تقريباً من « سان لانج » في حوالي آخر سنة ١٨٢٠ . ولم يكن المزارعون والفلاحون قد شهدوا أي « مائدة » بالقصر منذ أجيال لا تذكر . ولو أن محصول الأرض كان وفيراً فإن الأرض قد تركت في رعاية وكيل أعمال ، وفي حراسة « أمراء » قداماء . وأثارت رحلة السيدة الماركيزة نوعاً من الفلق في الإقليم ، واجتمع أشخاص عديدون عند طرف القرية في فناء فندق رديء واقع عند مفترق طرق « نيسور » و « موريه » لكي يشهدوا مرور المركبة المتباطئة ، لأن الماركيزة جاءت من « باريس » بخيولها وفي مقدم المركبة كانت الخادمة تمسك فتاة صغيرة أميل إلى الانحلام منها إلى الانقسام . في حين كانت الأم تجلس مضطجعة في داخل

القرية مثل مختصر في النزاع الأخير أرسله الأطباء إلى الريف . ولم يعجب عجا تلك المرأة الشابة الرقيقة المتنوعة دهاة القرية الذين رأوا في وصولها إلى « سان لانج » أملاً في حركة ما بالمقاطعة . ومن المؤكد أن كل نوع من الحركة كان غير أثير كما هو ظاهر لدى تلك المرأة المصابة بالأوجاع .

وأعلن أكبر شيوخ القرية في « سان لانج » مساء بالمهني الليل في زكن الحانة التي يقدم فيها الوجهاء على الشراب ، أن مظهر التعاسة المطبوع على سمات وجه السيدة الماركيزة هو دليل على أنها أصبحت بالإفلاس . إذ تغيب السيد الماركيز بناء على تعيينه - كما أشارت الصحف - مرافقاً لدوق « دانيجوليم » في إسبانيا . وعليها أن توفر في أثناء بقائها في « سان لانج » المبالغ الضرورية للوفاء بالتسويق المعزوة إلى مقاربات خاطئة بالبورصة . فقد كان الماركيز أحد كبار المضاربين ، وقد تباع الأرض حصصها صغيرة ، وسيكون ثمة فرص طيبة لمن يشاء . ولعل كل مستمع قد شرع يفكر في حصر ذراعه . وفي سجنها من مخبتها ، وتعداد ممتلكاته ، حتى يكون له نصيبه من خنظام « سان لانج » وهذا ذلك المستقبل تجميلاً إلى الحد الذي دفع كل وجه من الوجهاء إلى التشوق لمعرفة واقع الأمر والتفكير في وسائل الإنقاذ بالحقيقة عن طريق العاملين في القصر . غير أنه لم يكن في إمكان أي واحد منهم أن يلقي أي أضواء على تلك الكارثة التي قادت سيدتهم إلى قصرها

العتيق في ، سان لانج ، في مطلع الشتاء ، في حين أنها تملك أراضي
أخرى معروفة ببهجة معالمها وجمال حدائقها . وجاء السيد عمدة القرية ،
لتقديم تحياته واحتراماته إلى السيدة ، ولكنه لم يقابلها . وجاء الوكيل
بعد العمدة ، وقدم نفسه ، ولكن حظه لم يزد شيئاً على حظ الأول .

لم تكن السيدة الماركية تخرج من غرفتها إلا لكي تقوموا بتزيينها ،
وفي الانتظار تبقى داخل صالون صغير مجاور كانت تتناول فيه العشاء ،
إذا صحح تسمية الجلوس إلى المائدة والنظر إلى ما عليها من طعام في
قرف . ثم تناول القدر الضروري منه على وجه التحديد . كي لا تقضى
جوعاً . . . عشاء . وبعد ذلك ترجع في الحال إلى مقعد قديم مغطى بوسادة
حيث تجلس منذ الصباح في كوة الشباك الوحيد الذي كان يميز الغرفة .
ولم تكن ترى ابنها إلا في أثناء المحطات القصيرة التي تتناول فيها
عشاءها المكروب . وحتى لحظات رؤيتها تلك كانت تدفعها فيما
يبدو إلى معاناة الألم .

ليس من الضروري أن تشعر امرأة شابة بالآلام خارقة كي تخرس
فيها عاطفة الأمومة ؟

ولم يوفق أحد هؤلاء الناس في التقرب إليها ، وكانت خادماتها الشخص
الوحيد الذي يقبل منه الخدمات . وفرضت صمتاً مطلقاً على القصر ،
بحيث كان على ابنها أن تلعب بعيداً عنها . وكان يصعب عليها أن
تتحمل أقل ضوضاء حتى صار أي صوت إنساني — بما في ذلك صوت



طفلتها مصدر حزن ممت بالنسبة إليها - وشغل أهل الإقليم أنفسهم بأحاديثها الغريبة . ولكن عندما استنفدت كل الافتراضات الممكنة لم يجد أهل المدن الصغيرة المحاورة أو الفلاحون يفكرون إطلاقاً في تلك المرأة المريضة .

واستطاعت الماركةزة ، وقد حنت إلى نفسها ، أن تمكث إذن صامتة تماماً وسط الصمت الذي ضربته حول نفسها . ولم تجد قرينة إطلاقاً حتى تغادر العرقة المغطاة بالسجاد ، حيث ماتت جدتها . وحيث جاءت هي تحترق موتاً رقيقاً بلا شهود وبلا مرعجات . وبدون أن تعانى مظاهر الأثنية الزائفة المحلاة بالمعاطفة التي تجعل موت الأموات في المدن مزدوجاً .

كانت هذه المرأة في السادسة والعشرين من عمرها . وتستعذب الروح عذابة - وهي لا تزال مليئة بأوهام شاعرية - أن تستطعم الموت عندما يبدو لها نافعاً مفيداً ، غير أن للموت دلالة بالنسبة إلى الشباب . إذ يقدم الموت ويترجع ، ويظهر ثم يختفي ، حتى يصبح لبطاؤه ميباً في زوال أوهامه . بل يؤدي ما بعد الموت إلى عدم اليقين ، ويستهي إلى أنه يلقي بهم إلى العالم حيث يلتقون بالألم . وهو أقل شفقة من الموت فيضربهم دون أن يترك لهم فرصة انتظاره . والواقع أن هذه المرأة التي حرمت نفسها الحياة ، كانت في طريقها إلى تجربة مرارة ذلك التواني في أعماق العزلة . وإلى أن تتلقى فيها - في أثناء فترة احتضار حائقي

لا يلقى عليها الموت - درساً فاسياً في الأثنية يخلع منها القلب ويشكلها حسب المصنوع .

ويشأ هذا الدرس التعليمي القاسي الحزين عن الآلام الأولى - وأهل الماركةزة قد تأملت ، وعاشت حقيقة المرة الأولى والوحيدة في حياتها . ليس من الخطأ حقيقة الاعتقاد بأن مشاعرنا تتوالد ؟ ألا تغفل بمجرد تفريغها موجودة في فاع القلب ؟ فتسكن وتصحح حسب أحداث الحياة ، وتبقى كامة فيه بحيث تؤثر إقامتها على الروح بالضرورة . وعلى ذلك يخص كل شعور يوم كبير واحد . هو يوم غاصفته الأولى الطويل إلى حد ما . ولا يكون أكثر الآلام ثباتاً من بين مشاعرنا قوياً إلا في حجمه الأول . على حين تواصل إصاباته الأخرى سيرها آخذة في الضعف ، إما بسبب تعودنا أزمانه . وإما بسبب أخذ قوانين طبيعتنا التي تسعى إلى البقاء . فتعارض تلك القوة الهدامة بقوة مساوية مدفونة في حالة نكون في تدبيرات الأثنية . ولكن إلى أي نوع من أنواع تلك الآلام ينسب اسم هذا الألم ؟

لقد أعدت الطبيعة الناس لحزن فقدان الوالدين في حين يعد الألم العنصري عابراً ولا يلحق بالروح . وإذا دام فليس هو بالألم . وإنما هو الموت . وعندما تفقد امرأة شابة مولودها سرعان ما يعطيها حب الزوجية مولوداً آخر . وهذه الآلام وأخرى غيرها مشابهة هي ضربات وجروح بشكل عام ، ولكن ليس من بينها ما يصيب الحيوانية في جودها .

ولا بد من أن تتابع هذه الآلام بشكل عجيب ، كما تمثل الشعور الذي يحدثنا على البحث عن السعادة . فالآلم الحقيقي لا بد أن يكون إذن داء فتاكاً إلى حد ما حتى يعانق الماضي والحاضر والمستقبل معاً ، ولا يدع أي جزء من أجزاء الحياة في تكامله ، ويغير معالم التفكير إلى الأبد ، ويرغم على الدوام فوق الشقاء وفوق الحزن حتى يحطم أو يرخي فوايض الله بأن يغرس في الروح مبدأ القرف من كل شيء في الحياة ، ولا بد أن يحدث هذا الألم حتى يستكمل ضخامته ، وحتى يتقل على الروح والجسد . لا بد أن يحدث في لحظة من لحظات الحياة عندما تكون كل قوى الروح والجسد لا تزال شابة ، أن يصعق القلب في ديعانه ، وعندئذ يشق الألم ندباً كبيراً ، إذ أن المعاناة شاقة ، ولا يكاد يغت أحد من هذا المرض دون تغيير شعري في . فإما أن يأخذ طريق السماء ، أو يبقى ها هنا أرضاً ، على أن ينقذ إلى العالم حتى يكذب على المجتمع ، ويلعب فيه دوراً ويعرف الطريق إلى « الكواليس » حيث ينسحب من أجل التدبير واليكاء والمزاج . وبعد هذه الأزمة الضخيمة لا توجد أي أسرار في الحياة الاجتماعية التي تصير منذ ذلك الحين محكوماً عليها نهائياً . وتنشأ هذه الأزمة الأولى أو أشد الآلام جرحاً عند النساء الشابات في سن المازكيزة عن واقعة بعينها ، إذ لا يفوت المرأة ، وبخاصة المرأة الشابة الكبيرة الروح والكبرة القدر من الجمال . لا يفوتها إطلاقاً أن تبذل حياتها حيناً تدفعها الطبيعة والعاطفة والمجتمع على القذف بها

كاملة . أما إذا كانت تنقصها تلك الحياة ، وكانت تعيش على الأرض ، لم تأخذ في تجريب أقصى الآلام فيها لتسبب نفسه الذي يجعل من الحب الأول أجمل العواطف جميعاً .

لماذا لم يوهب قط هذا الشقاء مصوراً أو شاعراً ؟ ولكن هل يستطيع أن يصور نفسه ؟ وهل يستطيع أن يتغنى بالآلام نفسه ؟ لا . فطبيعة الآلام التي يولدها هذا الشقاء لا تستسلم لأي تحايل أو لأي الوان غنية . وفضلاً عن ذلك لا يمكن أن تروى هذه الآلام إحاطة إلى أحد ، ولكنها يمكن التسرية عن إحدى النساء بصددها ، لا بد من القدرة على تخمينها ، لأن العلم بها يحاط دائماً بمرارة ، ويعاقب عليها دينياً ، وتأوى إلى الروح ككتلة هابطة من الجليد تنفث كلها في أثناء سقوطها في الوادي قبل أن تبلغ مكانها في قاعه .

كانت المازكيزة إذن فريسة لآلامها التي كان مقدراً لها أن تمكث طويلاً مجبولة ، لأن كل ما في الحياة يحكم عليها بذلك في حين تقوم العاطفة بملامسة تلك الآلام كما يقوم وعي المرأة الصادق بتسويقها جميعاً دائماً . ومن تلك الآلام ما يشبه الأطفال الذين يمجدهم الحياة عمداً أو الذين يستمسكون بقلوب أمهاتهم بروابط أقوى من روابط الأطفال الموهوبين بتوفيق . ولعل تلك الكارثة المزعجة التي تقضي على كل ما هو حياة لخارجنا لم تكن على هذا النحو من القوة والتمام قط ، ولم تنضجهم بقسوة بواضطة الظروف مثلما جرت في حياة المازكيزة . فقد مات

رجل معشوق شاب كرم لم تستجب قط لرغباته كفى تطيع قوائين المجتمع بسبب حرصه على أن ينفذ لها ما اصطاح المجتمع على تسميته باسم الشرف المرأة ، وإن تستطيع أن تقول : إننى أعانى ٢٠ ولو بكت لساعات زوجها دموعها ورغم أنه السبب الرئيسى للتكية . ولا عطلت القوائين وصوت العرف شكواها . ولا استفادت من وراثتها صديقة ، وضارب عليها عنيق . لا .. لم يكن لهذه المكروبة المسكينة أن تبكى بدون الزعاج إلا فى الصحراء . بحيث تلهم هناك ألها ، أو بحيث ياتيهما ألها ، أو بحيث تموت ، أو تقتل شيئاً فيها . وليكن ضميرها مثلاً .

وبقيت مثلك بضعة أيام بنظراتها معلقة على أفق دنسك ، حيث لم يكن ثمة ما يبعث عند كمالها بالنسبة إلى حياتها المستقبلية . ولم يكن ثمة ما يبعث على الأمل ، حيث كان كل شئ ، ظاهراً مكشوفاً فى نظرة واحدة . وحيث كانت هى تلتقى بصور حزنها البارد الذى لا يكف عن تمرير قلبها .

وكانت الأصباح الغيابة ، والسماء ذات النور الخافت . والسحب المنخفضة الداكنة البخارية بالقرب من الأرض ، كأنها أروقة رمادية كان ذلك كله يلائم أطوار مرض الماركيزة النفسى . إذ لم يكن قلبها يتقبض . ولم يكن يتنوى تقريباً ... لا .. ولكن طبيعتها الناضرة المزدهرة كانت تتعجز بفعل ألم لا يحتمل . لأنها لم تكن محددة الهدف ، فقد عانت طبيعتها من الألم كما عانت من أجل الألم ، ولكن ليست

المعاناة انتقالاً إلى الأناثية ٢

وكذلك كانت أفكار مفرقة تمر بضميرها فتختلش . ونساءلت ، فى إيمان صادق . فوجدت نفسها فى حالة ازدواج . إذ كان فيها امرأة تستخدم البرهان ، وامرأة تستخدم العاطفة . امرأة تعانى . وأخرى لا تريد المعاناة أكثر من ذلك . وتذكرت مباحث طفولتها التى حوت دون أن تحس بسعادتها . والنسب أخذت تتوافد صورها الذهبية الصافية فى ازدحام كأنها تريد أن تؤلبها على خديعة الزواج الذى يظهر مناسباً فى نظر المجتمع . ويكون شديداً فى الحقيقة . فم أفادها التعفف الجميل فى شبابها ٢ وفيم أفادها المبادئ المكتوبة . والنصحيات المؤداة نحو المجتمع ٢ وبرز غم أن كل ما فيها غير عن الحب وثوقه ظلت تنساءل : لماذا الآن هذا الناسق فى حرمانها وإسعادها ولطمها ٢ فلم تعد تحب أن تشعر بالنضارة والشهوة أكثر مما يكون مكروهاً سماع لحن متكرر بلا غرض . وكان جماها نفسه غير محتمل بالنسبة إليها كأي شئ لا جدوى منه . واستشغلت فى قزع ألها ورغم ذلك لم تعد قادرة على أن تصبح مخلوقة كاملة . ألم يفقد (الأنا) الداخلى فيها ملكة تذوق الانعطافات فى هذا الوضع الجديد الخلو الذى يهب الحياة مقادير طائلة من السرور والفرح ٢

وتستحي أكثر الأحاسيس فى المستقبل غالباً بمجرد تلقائها ، وسيصبح كثير من الأحاسيس التى كانت تثيرها لو مرت بها فى الزمن

التقديم — بلا قيمة أو أهمية بالنسبة إليها ، إذ تنبع طفولة الخلق طفولة القلب . والواقع أن عشيقها قد حمل معه إلى القبر تلك الطفولة الثانية ، ولو أنها لا تزال شابة من حيث رغباتها ، لكنها لم تعد بتوافر لها ذلك الشباب الكامل في الروح الذي يعطى كل ما في الحياة قيمته ونكهته . ألم نحفظ في نفسها مبدأ الحزن والحذر الذي يسلب انفعالاتها عنفوانها المفاجئ ، والنداءات لأنه لم يعد شيء يستطيع أن يهبها السعادة التي تمنيتها ، والتي حلت بها أحلاماً جميلة . وأطفأت دموعها الأولى الحقيقية هذه النار السماوية التي تثير انفعالات القلب الأولى ، وكان عليها أن تقاسى على الدوام ألا تكون على نحو ما كان يمكنها أن تكون . ومن هذا الاعتقاد كان لابد أن يتشأ قرف مريب يدفع إلى إدارة الرأس كلما ستحت متعة جديدة . وتصورت الحياة على ذلك تصور المسن الهرم الذي يوشك أن يفارقها . وبرغم إحساسها بشيائها أثقل روحها حجم أيامها الخالية من المنع ، وضغط عليها ضغطاً أحالها إلى عجوز قبل الأوان .

وطلبت إلى المجتمع بصراحة بأس ما كان المجتمع قد رده إليها بدلا عن الحب الذي أعانها على أن تعيش والذي فقدته . وتساءلت : أليس الفكر أقسى من العمل في غرامها الضائع الذي كان على قدر كبير من العذرية والنقاء ؟ وظهرت بمظهر المذنية عن خطيئة ، كي تسب المجتمع ، وكى تجدد هي العزاء عن أنه لم يحدث بينها وبين الذي يكنه

ذلك الاتصال الكامل الذي يعتمد إلى وضع الأرواح بعضها فوق بعض ، بحيث يخفف من ألم الروح التي تبقى بيقين استمتاعها المطلق بالسعادة ويبقى أنها عرفت تماماً كيف تعطيها . ثم يبقين احتفاظها في ذاتها بالطباع من تلك الروح التي ولت . وكانت غير راضية عن نفسها مثل المشكلة التي فاتها دورها ، لأن الألم كان بها جم كل وشائج بدنها وقلبها وعقلها . وإذا كانت الطبيعة قد انقبضت في تمنياتها الودية الخالصة ، فإن الغرور لم يكن جرحه بأقل من جرح الطبيعة التي تحمل المرأة على التضحية بنفسها . ثم عمدت إلى إثارة كل الأسئلة وإلى تحريك جميع قوى الموجودات المختلفة التي تهنا إياها الطباع الاجتماعية والأخلاقية والحسية ، ولكنها أحملت تماماً قوى الروح ، بحيث لم تعد تلوك شيئاً وسط أشد الأفكار تناقضاً . وأحياناً عندما كان الضباب يغم الأرجاء كانت تفزع نافذتها . وتظل أمامها بلا فكر ، وهي مشغولة بتنفس الرائحة الرطبة الترابية الماثورة في الأجواء آلياً ، وتبقى واقفة ساكنة بلهاء في مظهرها لأن ملين ألمها أحالها أيضاً إلى آلة صماء بالنسبة إلى استجابات الطبيعة وفئات الفكر .

وفي أحد الأيام قرب الظهر ، في لحظة أضاعت الشمس فيها الجو دخلت خادماتها بغير إذن وقالت لها : هذه هي المرة الرابعة التي يحضر فيها السيد التمسيس لرؤية السيدة المازكبة . وهو يلح اليوم بإصرار حتى لم تعد تعرف بماذا تجيبه ؟

— إنه يطمع بلاشك في بعض النقود ، من أجل الفقراء في الدائرة
فخلى خساً وعشرين ليرة ذهبية وأعطيه إياها من قبل .
قالت الخادمة وقد عادت بعد لحظة : سيدي : السيد القسيس
يرفض تسليم النقود ، ويريد أن يخاطبك .
— فليحضر إذن !

أجابت الماركييزة بذلك وقد أفلتت منها حركة تم عن مزاج منحرف
يضيء باستقباله تيسر للقسيس الذي تمت بلا شك لو أمكنها أن تتقاضي
كل الحاجات بتقديم شرح مختصر صريح إليه .
كانت الماركييزة قد فقدت أمها وهي طفلة ، وبطبيعة الحال تأثرت
تربيتها بالفتور الذي دمع الروابط الدينية في فرنسا في أثناء الثورة .
وتعد التقوى من فضائل المرأة التي تستطيع النساء وحدها أن تنقلها
تقلاً طيباً . وقد كانت الماركييزة طفلة من أطفال القرن الثامن عشر
الذي كانت عقائده هي عقائد والدها ، ولم تكن تباشر أى عبادات دينية ،
وكان القسيس في نظرها موظفاً أهلياً غير معترف بمجدها ، ولم يكن
يستطيع صوت الدين أن يؤدي إلا إلى استفحال الشرور بحال الموقف
الذي تردت فيه ، ثم إنها قلما كانت تعتقد في مساوئ الأدياف
أو في شموعهم . ولذلك عزمت على أن تعرف هذا القسيس حليوته دون
خشونة ، وأن تتخلص منه ببعض الحبات على طريقة الأغنياء .
حضر القسيس . ولكن مظهره لم يؤثر على أفكار الماركييزة ،

لقد رأت رجلاً قصيراً سميناً ذا بطن بارز ، وذا وجه محمر ، ظاهر
الشحونة ، وظاهر التجاعيد ، ويتكلف الابتسام دون أن تفلح
ابتسامته في شيء . وكان رأسه أصلع مخططاً بتجاعيد عديدة بالعرض
كما كان يسقط في ربيع دائرة على وجهه ويصغر ، وكانت يضع شعرات
بيضاء تزين أسفل رأسه فوق الرقبة ، وتمتد إلى الأمام نحو الأذنين .
وبهذا يكن من شيء فقد كانت هيئة وجه هذا القسيس أشبه بهيئة
وجه رجل مرجح بالطبع ، وكانت شفاه الغليظتان ، وأنفه الخفيف
القلص ، ودقنه الذي توارى وراء ثنيات التجاعيد ، كان كل ذلك يدل
على طبع سعيد . ولم تلمح الماركييزة أول الأمر سوى ملامحه الرئيسية ،
ولكن بمجرد لطفه أول كلمة أدهلتها دقة صوته : فتأملته بانتباه أكبر ،
ولاحظت عينية من تحت حاجبيه اللذين وخطهما الشيب ، وقد بللتهما
الدموع . وكانت خطوط خده من ناحية الجناح تسبق على وجهه تعبيراً
جليلاً للألم ، بحيث اكتشفت الماركييزة إنساناً وراء هذا القسيس .

— سيدي الماركييزة . إن الأغنياء لا يتسبون إلينا إلا حين يتألمون .
ويمكن تخمين نوع الآلام التي تتلذذ بساحة امرأة متروجة شابة جميلة
غنية لم تنفد أطفالاً أو أقارب . فهذه الآلام تنشأ عادة عن جروح
لا تخفف أوجاعها الشديد سوى الدين ، وروحك يا سيدي في خطر .
وأنا لا أحدثك الآن عن الحياة الأخرى التي تنتظرك ! لا . قلت
أمام كرسى الاعتراف ، ولكن أليس من واجبي أن ألقى لك الأضياء

على مستقبل وجودك الاجتماعي ؟ لعلك تغفرون لرجل عجوز إزعاجك بقصد سعادتك .

— لم يعد ثمة سعادة بالنسبة إلى يا سيدى . سوف أكون منكم عما قليل : كما تقول ، ولكن على الدوام .

— لا ، يا سيدتى . أنت لن تموتى من الألم الذى يثقل عليك ويرسم على ملامحك . لو كان عليك أن تموتى بسببه لما جئت إلى « سان لانج » فنحن نموت تحت تأثير الندم الأكيد ، أقل مما نموت من آثار الآمال التى تخيب الظن . لقد عرفت آلاماً أشد قسوة ، وهما لا يجتمعا ، دون أن تؤدى إلى الموت .

أدأت الماركية حركة من لا يصدق ...

— سيدتى أنا أعرف رجلاً كان مثقاه عظيم حتى ابتدأ آلامك خفيفة إذا قورنت بآلامه .

ولعل عزلتها الطويلة بدأت تثقل عليها أو لعل اهتمامها قد آثاره احتمال تمكنها من أن تصب أفكارها المولدة فى قلب صديق ، ومهما يكن من أمر فقد نظرت إلى القسيس بتعبير الاستفهام الذى لا يخطئه المرء .

عاد القسيس يقول : « سيدتى ، كان ذلك الرجل أياً لأسرة تحولت من أسرة عديدة الأبناء إلى أسرة ذات ثلاثة أطفال فقط ، إذ أنه فقد أقرابه على التوالى . ثم ابنته وزوجته اللتين كان يحبهما حباً جماً ، وبقي بمفرده فى أقصى أقاليم الريف على أرض صغيرة يمتلكها ، حيث

كان سعيداً مدة طويلة ، وذهب أولاده الثلاثة إلى الجيش ، واحتفظ كل منهم بالمرتبة المناسبة مدة خدمته . وفى فترة المائة يوم من ٢٠ مارس إلى ٢٢ يولية سنة ١٨١٥ عند عودة « نابليون » إلى « باريس » دخل الابن الأكبر الجيش ، وصار برتبة مقدم . وكان الصغير رئيس فرقة مدفعية كما كان الابن الأوسط ذا رتبة رئيس كتيبة من فرسان الحياة . وكان هؤلاء الأولاد الثلاثة — يا سيدتى — محبوبين والدهم بقدر ما كان هو يحبهم ، ولو كنت تعرفين عدم مبالاة الشبان الذين يندفعون مع عواطفهم الجارحة فلا يتوقع لهم وقت على الإطلاق للشاعر الأسيرة ، لفهمت مرة واحدة قوة هذه العاطفة بالنسبة إلى عجوز مسكين معزول لم يكن يعيش إلا بهم ومن أجلهم . ولم يمر أسبوع دون أن يتلقى رسالة من أحد أولاده ولكنه لم يكن هو أيضاً ضعيفاً نحوهم مما ينقص احترام الأولاد ، ولم يكن أيضاً قاسياً فى ظلم مما يدفعهم إلى الانتفاض ، ولم يكن فوق هذا وذاك بخيلاً عليهم بالنصححة مما يدفعهم إلى التفكك . لا ، بل كان أكثر من والد ، لأنه جعل من نفسه أخاً لهم وصديقاً . وفى النهاية ذهب يودعهم فى « باريس » عند سفرهم إلى « بلجيكا » . إذ كان يود أن يرى أين يكون خيراً لحياته ! ألا ينقصهم شيء ؟ .. وعندما رحلوا عاد الوالد إلى بيته ، وبدأت الحرب ، فتلقى الرسائل مكتوبة من « فلير » ومن « لوى » وسار كل شيء سيراً حسناً ، ثم تقع معركة « ووترلو » وأنت تعرفين النتيجة ، إذ فى نفس واحد كانت فرنسا

كلها في خداد ، وتماثلت الأسر جميعها في أعرق قلق : أما هو يا سيدتي فقد كان ينتظر ، ولم يعرف مسحة أو راحة ، وكان يقرأ صحف الأخبار ، ويذهب كل يوم بنفسه إلى مكتب البريد . وفي إحدى الليالي أبلغ بزيارة خادم ابنه المقدم ، فإذا الرجل يقود الحصان الخاص بسيدته ، ولم يكن ثمة موضع للسؤال : إذ كان المقدم قد مات ممزقاً إلى نصفين برصاصة . وقرب نهاية السهرة وصل خادم الابن الأصغر على قدميه ، وكان الابن الأصغر قد مات عدة المعركة : وأخيراً عند منتصف الليل جاء أحد رجال المدفعية يعلن وفاة الابن الأخير الذي كان الأب المسكين قد وقف حياته بأكملها فوق رأسه منذ وقت قصير . نعم يا سيدتي سقطوا جميعاً موتى !

وبعد فترة سيكون غالب القسيس انفعالاته . وأضاف هذه الأقوال

في صوت رقيق :

— وبقي الأب حيناً يا سيدتي ، وفهم أنه إذا كان الله قد تركه حيناً على الأرض فعليه أن يواجه العذاب فيها ، وهو يتعذب فيها فعلاً . ولكنه ألقى بنفسه وسط الدين . ماذا يستطيع أن يصيح ؟

ورفعت الماركييزة عينيهما نحو وجه القسيس الذي صار مجللاً بالحزن والفراغة ، وانتظرت هذه اللفظة التي انتزعت دموعها انزعاجاً :

قسياً يا سيدتي . فقد ظهرته الدموع قبل أن يظهر عند أقدام

المتابع .

بساد القسيسة لحظة . وصارت الماركييزة . والقسيس يتأملان الأفق الغيبي من النافذة كما لو كانا يريان هناك أولئك الذين لم يعودوا أحياء . ثم قال القسيس : « لا قسيساً في مدينة ، وإنما مجرد خوري بسيط . »

سألت وهي تمسح دموعها : في « سان لانج »

— نعم يا سيدتي .

ولم يظهر جلال الألم قط كبيراً على هذا النحور في نظر « جولي » . ولوارة الرجل : « نعم يا سيدتي ، وقعت من قلبها كوقع أنقال ألم لا نهائي . وكان هذا الصوت الذي يرن بركة في الأذن يؤدي إلى مغص في الأحشاء . آه ! لقد كان نفس صوت الشقاء . ذلك الصوت المليء الرعيب الذي يبدو كما لو كان يجمع في حلقاته سوائل نقادة . »

قالت الماركييزة فيما يحمل تقريباً معنى الاحترام : « سيدتي : وإذا لم أمت فماذا أصبح إذن ؟ »

— سيدتي : أليس لك طفل ؟

قالت ببرود : « بلى . »

ألقى القسيس نحو تلك المرأة نظرة شبيهة بالنظرة التي يلقاها الطبيب نحو مريضه في حالة الخطر ، وعزم على أن يعمل كل ما يوسعده كي يترجمها من الروح الحبيثة الشريرة التي وضعت اليد عليها سلفاً .

— كما ترين ، يا سيدتي . لا مندوحة عن أن نعيش بالامناء ولا

يعطينا العزاء الحقيقى سوى العبادة الدينية ، فهل تسمحين بأن أعود
أسمعك صوت إنسان يستطيع أن يتعاطف مع كافة الآلام ، ولا يحمل
فيما اعتقد أى فزع ؟

— نعم يا سيدى .. عذ .. وأشكرك لأنك فكرت فى ..

— على ذلك إلى لقاء قريب يا سيدتى .

أرحت هذه الزيادة روح الماركيزة . إن صنع هذا التعبير ، وكان
الحزن والعزلة قد أثارا قواها بعنف شديد ، وتختلف لما القسيس فى قلبها
ذلك الأريج الهلسى ودوى الخلاص عبر الأقوال الدينية . ثم إنها
أصبت بذلك النوع من الرضا الذى يسعد السجين عندما يتلقى — بعد
أن يتعرف على عمق الوحدة وثقل قيودها — طرقات جاز يطرق الحائط
داغماً إياه إلى الرد عليه بصوت آخر يتناقلان به التعبير عن أفكار
مشتركة . وهكذا عذرت على لحي لم تكن تتوقعه ، ولكنها لم تلبث أن
عادت إلى أعماق تأملاتها المربرة وقالت لنفسها مثل السجين : إن رفيق
الأم لا يخفف من القيود أو من المستغل . ولم يشأ القسيس أن يجعلها
تفعل أو تفرك كثيراً من ألم كله أنانية وأثرة منذ زيارته الأولى ، ولكنه
تعلم أن يجعلها يفضل منه وطريقته — تفترت من الدين بتقدم فى أثناء
اللقاء الثانى .

وعاد فى الرفع غداة اليوم التالى ، فبرهن استقبال الماركيزة له على
أن زيارته كانت مطلوبة .

قال العجوز : وعلى أى حال ياسيدتى الماركيزة ؟ هل فكرت قليلاً
فى كل الآلام البشرية ؟ هل رفعت عينيك نحو السماء ؟ هل رأيت
هناك عظيمة العوالم وضخامتها التى تنقص من أهميتها وتسحق غرورتها
فقلل آلامنا ؟

قالت : لا يا سيدى ، إذ تنقل القوانين الاجتماعية بشدة على قلبى
وتمزقه لى تمزيقاً قوياً حتى أستطيع الارتضاع بتسنى إلى السموات ،
ولعل القوانين ليست فى قسوة آداب المجتمع . أوه ! المجتمع !
— علينا ، ياسيدتى أن نطيع هذه وثلك ، فالقانون هو الكلمة
والآداب هى أفعال المجتمع .

عادت تقول الماركيزة مبادئ حركة الثمراز « طاعة المجتمع » ؟ ..
هيه ! يا سيدى إن شروطنا جميعها تنشأ عنه . لم يضع الله أى قانون
للشقاء ، ولكن عندما تجتمع الناس بعضهم مع بعض أفسدوا عمله .
ونحن .. نحن النساء .. لقد عاملتنا المدنية بأسوأ مما عاملتنا الطبيعة به ،
فالطبيعة تفرح علينا الآلام البدنية التى لم تخفوها ، فى حين أضافت
المدنية المشاعر التى نخزونها باستمرار ، إذ تحق الطبيعة الكائنات
الضعيفة ، على حين تحكمون عليها أنتم بأن تعيش حتى تقوموا بتسليمها
إلى شقاء دائم . ويؤدى الزواج ، وهو نظام يرتكن إليه المجتمع ، إلى
إشعارنا نحن وحدنا بأننا ناله ، فالرجل الحريه ، والمرأة الواجبات . علينا أن
نهيكم حياتنا بأكملها ، وليس عليكم من حياتكم نحونا إلا لحظات غادرة

ثم إن الرجل يختار هنالك حيث يرضخ نحن عن عني ، أوه ! يا سيدي :
 نعلني أستطيع أن أقول لك كل شيء . فالزواج على نحو ما يطبق اليوم يبدو
 لي دعارة مشروعة . هذه تتبع كل آلامنا . ولكن على أنا وحدتي من
 بين كل المخلوقات النعيسة التي عقدت قرانها قضاء وقدراك أن ألزم الضمت
 أنا وحدتي كنت مصدر الشر لأنني أردت هذا الزواج .

وتوقفت وذرفت دموعاً مريرة وبقيت صامتة . ثم عادت تقول :
 « في هذا الشقاء العتيق ، ووسط هذا المحيط الشاسع من الألم بعثت على
 بعض الرمال ، حيث لخطوبت بقدي ، وحيث تعذبت بغير أدنى لزجاج ،
 ثم هبت عاصفة أودت بكل شيء . وهأنذا وحدتي بلا سند ، أضعف
 من أن أفهم هذا العواصف . »

قال القسيس : « لآنكون ضعفاء فطحيما يكون الله معنا . وعلاوة
 على هذا إذا لم تكن لديك عواطف ترقيتها هنا على الأرض أفليس
 عليك واجبات تطلب الأداء ؟ » صاحبت هي بشيء من نفاد الصبر :
 دائماً واجبات ! ولكن أين لي العواطف التي تهينا قوة أدائها ؟ سيدي ،
 لا شيء في لا شيء . أو لا شيء من أجل لا شيء . هو أعدل قوانين الطبيعة
 والأخلاق والأبدان . هل تريد أن تعطر هذه الأشجار أوراقها دون
 ماء النبات الذي يجعلها تورق ؟ والأشواح رحيقها أيضاً . وقد نصب
 الروحاني عندي في منبعه ؟ ! »

قال القسيس : « لم أكن أتكلم معك عن العواطف الدينية التي تولد

الإذعان . ولكن الأمومة إذن يا سيدي . . .
 قالت الماركييزة : كفى يا سيدي سأصدق في كلامي معك . وأسفاه !
 ورغم ذلك لا أملك أن أصدق لإنساناً القول : إنه محكوم على بالزيف .
 ونقتضي منا الدنيا التظاهر المستمر . وترغمنا على قبول العرف السائد .
 وإلا زمنا بالعار . هناك أمومتان يا سيدي . وكنت في الزمن القديم
 أجهل مثل هذه القرائق . لكنني أعرفها اليوم . ولست إلا نصف
 أم . وكان الأفضل ألا أكونها إطلاقاً . وليست هيلين ، ابنته !
 أوه ! لا ترتعف ! إن « سان لانس » هوة مسخفة تبتلع العواطف
 الزائفة ابتلاغاً . ومنها تشبه ومضات شريفة . وفيها تنهار الأبنية
 الراضنة من القوانين المناقضة للطبيعة . فعندي طفل . وهذا يكفي .
 إنني أم . وهذا هو ما أراده القانون . ولكن أنت يا سيدي . . يا من
 تملك روحاً رديفة رقيقة . لعلك تهم صرخات امرأة مسكينة لم
 تدع لأي عاطفة مصطنعة سيلا إلى قلبها . وسيحكم الله على ولكنني
 لا أظن أنني أقصر في تنفيذ قوانينه عندما أستسلم لعواطف وضعها في
 روحي وهأنذا أجد نفسي بينها . أليس الطفل يا سيدي صورة كائنيتين
 ومكرة عاطفتين متزجنتين في حرية ؟ فإذا لم يتعلق الطفل بكل وشائج
 الجسم . وبكل حنا القلب . . إذا لم يكن ذكرى لحب لذيذ . وللألمنة
 والأمان التي كان الشخصيان سعداء فيها . وكانت لغيرهما بلأني
 بالموسيقى الإنسانية ، وبأفكارهما العذبة الحلوة . فذلك الطفل إذن خلق
 غير موفق . نعم فبالنسبة إليهما يجب أن يكون ذلك الطفل تحفة ساحرة

تجمعت فيها أشعار حوائها المزدوجة الحفية : إذ عليه أن يكون بالنسبة
إليها منبع انفعالاتها الخصبية : فيمثل ماضيها بأكمله : ومستقبلها
بأكمله : وطفلي الصغيرة المسكينة ، هيلين ، هي ابنة أبيها : لأنها ابنة
الواجب والمصادفة : وليس لها عندى سوى غريزة المرأة أى القانون الذى
يدفعنا دون أن نقوى على مقاومته إلى حماية المخلوقة المولودة بين قبالينا .
أنا لا أستحق المواجهة من الناحية الاجتماعية : ألم أصبح بحياتى وسعادتى
من أجلها ؟ وصباحها يثير شجن أحشائى ؟ وإذا وقعت فى الماء
فما جرى مسرعة كى أخذ بيدها ، ولكنها ليست فى قلبى . آه !
لقد جعلنى الحب أحلم بأمومة ضخمة معقدة : وقد لأمست برقة
ذلك الطفل الذى انطلوت عليه رغائى قبل أن يولد : أو تلك الزهرة
المحلوة النابتة فى الروح قبل أن تخرج إلى الحياة فى أثناء حلم صباغ .
وإننى بالنسبة إلى هيلين ما يجب أن تكون عليه أم نحو ذريتها فى النظام
الطبيعى ، وسيتبنى كل شىء حين نصبح بغير حاجة إلى : إذا انطفأ
النسب انتهت آثاره ! وإذا رزقت المرأة بالمزوجة الرائعة التى تجعلها تمتد
بأمومتها فتشمل كل حياة طفلها .. أفليس ينبغي إرجاع ذلك الاستمرار
الإلهى العاطفى إلى إشعاعات مشيئتها الأخلاقى ؟ وإذا لم يوجب الطفل
روح أمه كمطاء أول : توقفت الأمومة بالتالى فى قلبها كما تتوقف عند
الحيوانات . وهذا صحيح وأنا أشعر به . وكلما تكبرت ابنتى تقلص
قلبى ، وأدت التصحيحات التى قسمت بها نحوها سائلاً إلى انفصالى عنها .

فى حين كان يمكن أن يصير قلبى معيناً لا ينضب بالنسبة إلى طفل آخر
وأنا أحس بذلك ، فبالنسبة إلى هذا الطفل الآخر كان كل شىء
سيصبح متعة بدلاً من أن يكون تضحية . وهذا يأسى يقف العقل
والدين وكل شىء فى عاجزاً ضد عواطفى . أهدى لحظة تلك المرأة حين
تطمع فى الموت وهى ليست أمّاً أو زوجة مع أنها استعادت - وذلك لشقاها -
أن تختص رشفة حب فى مفاتنه غير المتناهية ، وأن تعيش لحظة أمومة
فى مياهاها التى لا حدود لها ؟ ماذا تصبح تلك المرأة ؟ سأقول لك
بنفسى ما سوف تعافيه ! رعدة بهز رأسى ، وقلبى ، وجسدى مائة
مرة فى النهار ، ومثلها أثناء الليل ، كلما حملت إلى بعض الذكرى التى لم
تحسد صدور الهناء التى أراه أكبر مما هو عليه . وتدفع هذه الأوهام
القاسية عواطفى إلى الشحوب . وأقول لنفسى : ماذا كانت تصير
حياتى لو ... ؟ وغطت وجهها بين يديها وسالت دموعها ثم استعادت
كلامها : هاك أعماق قلبى طفل منه كان يجعلنى أقبل أبشع النكد !
والهنا الذى مات محملاً بجميع خطايا الأرض سيغفر لى هذه الفكرة
الديوية الغائية عندى . ولكننى أعرف أن المجتمع حقود . وأقوالى فى نظره
تجديفات . وأنا ألعن قوانينه . آه ! كم وددت أن أقوم بحرب ضد
هذا المجتمع كى أعطمه ! ألم يجرح المجتمع كل أفكارى : وكل وشائئى
وكل عواطفى . وكل رغباتى وآمالى فى المستقبل والحاضر والماضى ؟
قال يوم بالنسبة إلى مشجون بالظلمات ، والفكر فصل حاد ، وقلبى

نذب عيني . وطفلي لا شيء . نعم . عندما تخاطبني . هيلين . أنتي
لها صوتاً غير صوتها . وعندما تنظر إلى أنتي أن تكون لها عين أخرى
إنها موجودة لكي تؤكد لي كل ما كان ينبغي أن يكون . وكل ما لا
يوجد له . إنها لا تعمل بالنسبة إلى ! إلى أين لها وأحاول أن أعوضها
العواطف التي تفوتها . إنني أعذب أوه ! يا سيدي . إنني أعذب عذاباً
أكبر مما يجب لكي أعيش . وسيعدني الجميع امرأة فاضلة ! وأنا لم
أرتكب أخطاء ! وسوف يشرفوني ! فقد صارت الحب غير الإرادي
الذي لم يكن لي الحق في الاستسلام له . ولكنني إذا كنت قد احتفظت
بإيماني الحسني فهل حافظت على قاي ؟ إنه لم يكن قط إلا فلق واحد .
قالت ذلك وهي تستند يدها اليمنى إلى صدرها . ثم اضطردت :
« ولا تكاد أنتي تحطئي ذلك . فهناك نظرات وصوت وحركات أم
تعين يقوتها روح الأطفال . وطفلي المسكينة الصغيرة تشعر بذراعي
تهتز . ولا بصوتي يرتعد أو بعيني تلتفتان عندما أناملها وأكلمها
وأخذها . فهي تلتقي إلى نظرات أمهم لا أحمل أعباءه ! وأحياناً يرتعد
لمرأي محكمة في شخصها يحكم على قبحها دون الإصغاء لأقوال . لتأمر
السماء بأن يذهب الحقده فلا يقوم له مقام بيننا في أحد الأيام . يا إلهي
العظيم ! افتح لي قيري ودعني أفضي في (ساند لاندج) ! أريد أن
أذهب إلى العالم الذي أعثر فيه على روعي الأخرى والذي من كان
فيه أمماً تماماً ! أوه ! اغفر لي يا سيدي فأنا مجتنة . هذه الألفاظ كانت

تخفي . وقد قلها . آه ! أنت أيضاً تنكي ! أنت لا تحترقني .
وصاحت في شيء من اليأس حين سمعت ابنها وهي عائدة من
الزوجة . هيلين ! ! هيلين ! ! تعالى يا ابنتي !
وجاءت الصغيرة ضاحكة باكبة . فقد جاءت بفراشة أمسكتها .
ولكن عندما رأت أمها تنكي سكنت . وجلست إلى جوارها . وأعطتها
جربتها لتقبلها .

قال القسيس : « ستكون جميلة تماماً .
أجابت الماركييزة وهي تقبل ابنها بتعبير حار كما لو كانت تسدد
ديماً وتود أن تزيل تأنيب الضمير : « إنها تشبه أباه تماماً .
- أنت محرورة يا أمما .

أجابت الماركييزة : « هيا . دعينا بادلناكي .
وانصرفت الطفلة غير نادمة . ودون أن تنظر إلى والدتها . بل لعلها
كانت سعيدة لتجاسها . وجهها الحزين . كأنما أدركت سلفاً أن
العواطف التي ارتسمت عليه كانت ضارة . فالابتسامة هي نصيب
الأمومة ولسانها وتسيرها . ولم تكن الماركييزة تستطيع الابتسام . واحمرت
حجلاً وهي تنظر إلى القسيس . فقد شاعت أن تبدو أمماً ولكنها لم تستطع .
لما لم تستطع ابنها أن تكذب . الواقع أن قبيلات المرأة المتخلفة ذات غسل
إلى بيت الروح في الملامسة والتربيت أو يخلق نارا دقيقة تحرق القلب
إذا خلت قبيلات من هذه الطلاوة الشهية ظلت مرة جافة . وأخس القسيس

بهذا الاختلاف ، فقد استطاع أن يستكشف الهوة التي تفصل أمومة
البلد وأمومة القلب . وبعد أن ألقي نظرة فاحصة نحو تلك المرأة قال لها :
- سيدي .. إنك على حق ، فقد كان الأول بالنسبة إليك

أن تكوني مينة ...

آه أنت تفهم عذابي .. إنني أرى ذلك ، مادمت كنفيس
مسيحي قد استطعت أن تستج وأن تزيد القرارات المنكودة التي أوجت إلى
يها الآلام . نعم ، لقد أردت أن أنتحر . ولكن تقصصتي الشجاعة الضرورية
سكى أعم عظمي ، وكان جسمي جباناً حين كانت روحي قوية ،
وعندما كفت يدي عن الارتعاد تذبذبت روحي .. إنني لا أعرف شيئاً
عن سر هذا الصراع وهذه النوبات . إنني لاشك امرأة - مع الأسف
العبيق - خالية من الثبات في رغباتي ، وقادرة على الحب فقط . إنني
أحتقر نفسي ! وفي المساء عندما كان الجميع في البيت ينامون
- كنت أذهب إلى دورة المياه بشجاعة . وبمجرد وصولي إلى أطرافها
كانت طبيعتي أفشة تفرغ من الغناء .. أنا أعترف لك بتواحي ضيعتي ،
وبمجرد وجودي في السرير كنت أتحجل من نفسي . وأعود أشعر
بالشجاعة . وفي إحدى هذه اللحظات تناولت « اللودانوم » غير أنني
تأملت كثيراً دون أن أموت . واعتقدت أنني تناولت كل ما كان موجوداً
في الثنية في حين كنت قد توقفت عند منتصفها في الحقيقة .

قال القسيس بصوت جهم تحفته العبرات : « لقد ضعت يا سيدي »

إذ أنك تقدمين إلى الحياة ثم تخوفينها ، وتبحثين فيها ثم تعثرين فيها على
ما تنظرين إليه كتعويض عن ثروتك ، ثم إنك ستحبلين في يوم من
الأيام ألم لذلك ...

صاحت هي : « أنا سوف أذهب لأسلم آخر وأتمن ثروات قلبي
إلى أول عشاق يعرف كيف يلعب الملهاة الخاصة بالأهواء ، ثم أفسد
حياتي ، من أجل لحظة لذة غير مؤكدة ؟ لا .. سوف تضني روحي
شعلة نقية . سيدي ، كل الناس يملكون خواص الجنس عندهم ،
أما من يملك روحه ، ويرضى على هذا النجو كل مقتضيات طبيعته
ذات الانسجام التغمي ، فلا يفعل إطلاقاً إلا تحت ضغط العواطف ،
وهذا لا يلحق به المرء مرتين في الحياة . إن مستقبلتي شنيع .. أنا أعرف
ذلك ، فالمرأة لا تساوي شيئاً بغير الحب ، والجمال لا يساوي شيئاً
بدون اللذة والمتعة . ولكن ألن يعيد المجتمع إثبات سعادتي إذا تقدمت إلى مرة
أخرى ؟ إن من واجبي نحو ابنتي أن تكون لها أم شريفة . آه ! لقد
وقعت في دائرة حديدية لن أخرج منها خالية من عار . وسوف تضايقي
واجبات الأسرة المؤداة بلا مشوية ، وسألعن الحياة ، ولكن ابنتي ستحظى
على الأقل بمظهر لائق للأُم . وسأودعها كنوز التفضيلة كي تحل محل
كنوز العاطفة التي حرمتها إياها ، ولا أريد حتى أن أعيش سكي أندوق
المتع التي تبها معادة الأولاد للأُم . إذ أنني لا أعتقد في السعادة .
وماذا سيصبح مضير ، هيلين ؟ نفس مضيري بلاشك . فبأي الوسائل

تضمن الأمهات لبناتها أن يصبح الرجل الذي يستسلم له زوجاً وفقاً لقوانين ؟ إنكم تفصحون المخلوقات المسكينة التي تباع نفسها في مقابل بعض الدراهم لرجل غابر ، فالجوع والحاجة تحللان هذه العشرة العابرة . هذا في حين يفكر المجتمع ، ويشجع الرياح المباشرة ، برغم بشاعتها بين فتاة ساذجة ورجل لم ترو أكثر من ثلاثة أشهر : فتباع طوب حياتها . لاشك أن الثمن مرتفع ، إذا كنتم عندما تسمحون لها بالمكافأة على آلامها تقومون بتشريفها . ولكن لا .. إذ أن المجتمع يفتري على أفضل الفاضلات من بيننا : ذلك مصيرنا في وضوح من كلال وجهيه : الدعارة العامة والخزى والفضيحة ، أو الدعارة الخفية والشفاء . أما البنات المسكينات اللاتي لا يملكن المهر فإنهن يصبحن محنونات ، ويمتن .. لا شفقة بالنسبة إليهن .. وليس الجمال أو الفضائل قسماً في سوق البشرية ، وأنتم تسممون مجتمعنا ذلك العرين الجاحش بالأناث . على الأقل حرموا الميراث على المرأة : على الأقل آثروا بذلك قانون الطبيعة باخبار رفيقاتكن ، وبالأزواج منهن بفضل آمنيات القلب .

— سيدتي : أحاديثك تثبت لي أن روح الدين وروح المجتمع لم يبلغاك ، وكذلك أنت لا تترددين بين الأناثية الاجتماعية التي تشينك ، وأناثية المخلوق التي ستدفعك إلى تمحي الميع ..

— هل توجد الأسرة يا سيدتي ؟ إنني أفكر الأسرة في المجتمع يقسم الأملاك عند موت الأب أو الأم ، ويرصى كلاً بالذهاب إلى حيث

يشاء . فالأسرة هيئة وقتية عرضية يحلها الموت بسرعة فائقة ... لقد هدمت قوانيننا البيوت والتركبات وخلود النماذج والتقاليد . لا أرى سوى خرائب من حوق .

— سيدتي : لن تعودى إلى الله إلا حين تلج عليك يده في الأثقال ، وأنعمم أن تحدى الوقت الكافي كي تصلحى ما بينك وبينه . إنك تبحثين عن السلوى لنفسك ، وأنت تحفضين عينيك نحو الأرض بدلا من دفعهما نحو السماء . ولقد أحباب قلبك التماسف والضع الشخصي ، بل إنك لم تعودى تسمعين صوت الدين على نحو ما يفعل الأطفال الحاليون من العقيدة في هذا القرن . ولا تتردد لذائد العيش إلا الآلام ، وسوف تستبدلين آلاماً بآلام ، وهذا هو كل ما في الأمر .

قالت وهي تبسم بحرارة : سأكذب نبوءتك . سأكون مخصصة لذلك الذي مات من أجل .

أجاب القسيس : الألم لا يعيش إلا في الأرواح التي أعدها العقيدة الدينية .

وخفض عينيها بإجلال كي لا يدع لنفسه فرصة يرى خلالها الشكوك التي ارتسمت في نظره : إذ أحزنه طاقة الشكاوى الصادرة عن الماركيزة وبتعريفه على : الأنا ، الإنسانية تحت آلاف الأشكال والصور يشن من أن يلين هذا القلب الذي كان الشر قد جفقه بدلا من أن يرققه . والذي لم يكن ثمة أمل في أن تنبت فيه بذرة اليافز السهاوى ظالما كان حينها اناعم قد خففته فيه ضوضاء الأناثية الرهيبة ، وبرغم ذلك

فقد بسط أمام عينيه مثابرة الحوارين والرسول ، وعاد مستأنفاً عدة مرات ، وهو دائم الأمل في أن يدبر تلك الروح النبيلة المزهوة نحو الله ، ولكنه فقد الشجاعة يوم أدرك أن الماركيزة لم تكن تحب التحدث إليه إلا لكي تجد التعلل في الكلام عن ذلك الذي مات ، ولم يكن يجب أن يجعلها تبتلع من جديد وساطته وهو يقوم بدور الملائكة للأهواء ، فكف عن محاوراته ، وعاد شيئاً فشيئاً نحو قوالب العبارات المعتادة المألوفة ، والأماكن المشتركة في المحادثة .

وجاء الربيع ووجدت الماركيزة بعض العزاء عن حزنها العميق ، وشغلت نفسها بحكم البطالة بأرضها ، وأدخلت على نفسها التسلية بتوزيع الأوامر الخاصة ببعض الأعمال . وفي شهر أكتوبر هجرت قصرها العتيق في « سان لانج » حيث صارت ناضرة جميلة من جديد ، في فراخ الألم الذي كان أول الأمر عنيفاً مثل الأسطوانة المقلدقة بشدة ثم صار يخف على صورة اكتئاب على نحو ما تتوقف الأسطوانة بعد ذبذبات أضعف فأضعف تدريجياً ، ويتألف الاكتئاب من سلسلة من الذبذبات النفسية المتشابهة التي تلمس أولها اليأس وأخيرتها اللذة ، في الشباب يكون الاكتئاب فجر الصباح ويكون في الشيخوخة الليل .

وعندما عبرت مركبتها القرية تلقت الماركيزة تحايا القسيس الذي كان عائداً من الكنيسة نحو بيته ، ولكن عندما ردت عليه التحية خفت عينيها ، وأدارت رأسها كيلا تراه مرة أخرى ؛ إذ كان القسيس على حق ضد هذه المسكينة « أرتيميز ديفيز »

في سن الثلاثين

كان في حفل السيدة « فيرميان » شاب من الشباب المتألق الذي ينتظر له مستقبل باهر وكان ينتمي إلى أحد البيوت التاريخية ذات الاسم المرتبط ارتباطاً وثيقاً بمجد فرنسا برغم القوانين نفسها ، وقد أعطته هذه السيدة بعض رسائل تركية إلى صديقتين أو ثلاث من صديقاتها في مدينة « ناييل » بإيطاليا ، وكان السيد « شارل ديقاندينيس » - وهذا اسم ذلك الشاب - قد حضر لكي يشكرها ذلك ، ويستأذنها في التغيب وبعد أن أدى « ديقاندينيس » جملة مهام باقتدار ، عيَّنه أخيراً ملحقاً مع أحد وزرائنا المفوضين المسلمين إلى مؤتمر « ليباخ » وأراد أن يتهيز فرصة رحلته لكي يدرس إيطاليا .

كان هذا الاحتفال إذن نوعاً من الوداع للمباهج الباريسية ، ولثلك الحياة المريعة ، ولذلك الإعصار من الأفكار والمفاهيم التي تنجني عليها غالباً ، ولكن كم يحلو الانسجام لها وعلى الرغم من أن « شارل ديقاندينيس » قد اعتاد منذ ثلاث سنوات أن يزور العواصم الأوروبية ، وأن يهجرها بفضل نزوات مصيره الدبلوماسي ، كان يأسف لمغادرة « باريس »

بسبب بعض أشياء قليلة . ولم يعد للنساء تأثير عليه إطلاقاً ؛ إما لأنه نظر إلى العاطفة الصادقة كما لو كانت تحتل مكاناً أكثر مما ينبغي في حياة رجل السياسة . وإما لأن المشاغل الحفيرة خلال الغزل السطحي كانت تبدو في نظره أفرغ مما ينبغي بالنسبة إلى الروح القوية . ولدينا جميعاً ادعاءات ضخمة فيما يتعلق بقوة الروح . إذ لا يوافق أي رجل في فرنسا - مهما كان مستواه العادي - على أن يعد مجرد روحاني .

وهكذا كان « شارل » ورغم صغر سنه يكاد يكون في الثلاثين من عمره قد تعود سلفاً للفلسفة أعنى الأفكار ونتائج والوسائل في حين كان الرجال في مثل عمره يشغلون بالعواطف والمآثيل والأوهام . فكبح جماح الحرارة والطموس الطبيعيين لدى الشباب . ودفعهما إلى أعماق روحه التي أسيغت عليها الطبيعة الكرم والأرجية . وكان يجتهد في أن يكون مديراً ورئياً . وفي أن يصب الثروات الأخلاقية التي كانت من نصيبه في أنماط وفي أشكال محبة وفي حيل مغرية ؛ وهي المهمة الحقيقية للطموحين . ويجرد دور بائس أو مشغولية بقصد بلوغ ما يطلق عليه اسم : المركز المرموق . وأخذ يلقي نظرة أخيرة على صالونات الرقص . وقبل أن يغادر الخفل . أراد بلا شك أن يحمل معه صورة ذهنية للمكان ، مثل أحد نظارة الأوبرا الذي لا يخرج من « اللوح » دون أن ينظر إلى اللوحة الأخيرة ولكن - بنوع من الخيال المتطرف الذي يسهل فهمه - كان السيد « ديفاندلين » يدرس الحركة ذات الطابع الفرنسي البحت . والوجه المثاقفة الضاحكة

في ذلك الاحتمال الباريسي . مع مقارنتها في الفكر بالسحنات الجديدة والمناظر الرائعة التي تنتظره في (فابول) حيث عقد العزم على أن يمضي عدة أيام . قبل أن يتسلم عمله . وبذا كأه يقارن فرنسا المتغيرة . التي تستغرق دراستها أمداً طويلاً . بل لا يمكن يعرف عاداتها ومواقفها إلا عن طريق المعلومات السمعية المتناقضة . أو عن طريق كتب معظمها سيئ الإعداد . ومرت حيثئذ برأسه بعض الأفكار الشاعرية إلى حد ما . من تلك الأفكار التي أصبحت اليوم عادية جداً . وأجابت على غير علم منه عن تمنيات قلبه الخفية الذي كان شديد التقصى أكثر مما كان مدفوعاً بدافع الملل . كما كان خالياً أكثر مما كان ذابلاً .

كان يقول لنفسه : « هاك أكثر السيدات أفاقه وغنى ومكانة في (باريس) ها هنا توجد شهرات العصر . وذائعات الصبب المربوقات وذوات السمعة الأرستقراطية والأدبية . ها هنا فنانون ها هنا رجال السلطة . ورغم ذلك لا أرى سوى حيل صغيرة وألوان من القرام الذي يولد مينا . والابتسامات غير الناطقة . وازدراء بلا مسوغ ونظرات خالية من الالتهب . وفكر عسقم يبتدر بلا هدف . كل هذه الوجوه البيضاء والوردية تبحث عن السرور أقل مما تبحث عن النسيء ؛ إذ لا يوجد اتفعال واحد صادق . وإذا شئت فقط الريشات الموضوعة وضعاً جيداً والكريشات الشفافة الناصرة . والتربيل الجميل . والنساء النحيفة .

إذا كانت الحياة في نظرك هي مجرد واجهة سطحية تمس مساً خفيفاً ، فهناك إذن عدالك . هل ترضى بهذه العبارات الحالية من المدلول ، وتلك التصنعات الساحرة ، ولا تعينك عاطفة في القلوب ؟ عن نفسي أشعر بالاشتزاز من كل هذه الحيل النافعة التي تنسج بزواج ، ومنصب مساعد محافظ أو مدير محلي للضرائب ، وإذا كان ثمة حب فمن طريق الترتيبات السرية طالما كانت أمثال هذه العاطفة مصدر خجل . إنني لا أرى واحداً من هذه الوجوه القصبية يكشف عن روح تحلو إلى فكرة كما تحلو إلى تأنيب الضمير ، فالندم والشقاء يحتضنان في خجل وراء المداعبات والملح ، ولا أكاد ألحظ واحدة من تلك النساء اللاتي كنتم أحب نزالهن واللأني يستمن المرء إلى هاوية . وأين نجد المرء هذه الدفعة في باريس ؟ فأنحجر تحفة تعلق فيها على مسمار ذهبي ويزين بغلاف جميل ، وكل النساء والأفكار والمواطف تتشابه ، ولم تعد هناك أي ميول ، لأن الفرديات اختفت ، وتساوت كل الرتب والعقول والثروات ، وليسنا جميعاً الملابس السوداء كأننا نلبس الحديد على قرنا الميتة . إننا لا نحب الأقران ، وبين عاشقين من العشاق لا بد أن تكون ثمة فوارق تزال وأبعاد تغطي ، ومعجز الحب ذاك قد اختفى منذ ١٧٨٩ ! وليس ملأنا وعاداتنا الباغية إلا نتيجة النظام السياسي . وفي إيطاليا كل شيء على الأقل مرسوم بشكل قاطع ، والنساء هناك لا تزال حيوانات مؤذية ، أو غنائيات خطيرة ، ليس لها من العقل أو المنطق إلا ما يتصل بأذواقهن ورغباتهن ، وينبغي الحذر منهن كما يحذر المرء من الثور ..

وجاءت السيدة « فيرماني » تقطع هذه المناجاة ذات الألف فكرة من الأفكار المتناقضة المضطربة غير المستوفاة ، وكل قفيل الأحلام يتركز في غموضها .. أليست الأحلام ضرباً من البخار الذهني ؟ قالت وهي تأخذ بذراعه : « أريد أن أقدمك إلى السيدة التي ترغب رغبة كبيرة في التعرف عليك ، بعد كل ما سمعته عنك . » وقادته إلى « صالون » مجاور ، حيث أشارت بإمالة وبانسيامة ، وبنظرة باربسية محضة نحو امرأة بجالسة عند ركن المدفأة .

سأل الكونت « ديفاند ينيس » بقوة : « من هي ؟ »

— هي امرأة من المؤكدة أنك حاولت نفسك بشأنها أكثر من مرة لكي تفتي عليها ، أو تلعنها .. امرأة تعيش في العزلة .. سر حقيقي .

— لم كنت بحاجة مرة واحدة في حياتك عن قفيل فأخبريني باسمها ؟

الاركيبة « ديجليسون » .

— سوف أذهب لأخذ درساً بالقرب منها ، فقد جعلت من زوج ضئيل القدر رجلاً لا مثيل له في فرنسا . بل جعلت من رجل نافذ كفاية سياسية . ولكن أخبريني .. هل تعتمدين أن لورد « جريفتيل » مات من أجلها . كما زعمت بعض النساء ؟

— من الخنسل : فمنذ تلك المعامرة الضخيمة أو غير الضخيمة تغيرت المرأة المسكينة . لم تعد تدخل المجتمعات . لاشك أن هذا حدث امرأة في اللاتين

من أحداث باريس أن تبقى فيها أربع سنوات . وإذا كنت تراها هنا .
وتوقفت السيدة « فيرمياي » ثم أضافت في تعبير رقيق . إنني أنسى أنه
ينبغي علي أن أصمت . اذهب وتحدث إليها .

بقي « شارل » لحظة مناسكتاً ، وقد أسند ظهره إلى إفرير الباب وهو
مشغول تماماً بفحص امرأة صارت مشهورة . دون أن يلم أي شخص
بالدواعي التي بنيت عليها شهرتها . والمجتمع يقدم عادة الكثير من هذه
النواذر الغريبة . ومن المؤكد أن شهرة السيدة « ديجليتون » لم تكن أكثر
غراية من شهرة بعض الرجال العاملين دائماً في عمل مجهول . فرجال
الإحصاء يقال إنهم متحققون في الإيمان بالخصاب الذي يحرصون على
إذاعته . . . والسياسيون الذين يعيشون على مقال صحيفة . . . والمؤلفون
أو المصنفون الذين يظل عملهم دائماً محصوراً في الأوراق المالية ورجال
علماء مع أولئك الذين لا يعرفون شيئاً في العلم . كما كان « استجانا
ريل » متخصصاً في اللاتينية مع أولئك الذين لا يفقهون حرفاً في اللاتينية
ورجال تعزى إليهم قدرات وكفايات متفقة في نقطة واحدة سواء كانت
هذه النقطة هي إدارة الغنم أو مهمة ذات شأن كبير فهذه العبارة
الرائعة : « ذلك تخصص » يبدو أنها ابتكرت لهذه الأنواع من الحيوانات
عامة الرأس في السياسة والأدب .

وبقي « شارل » مدة أطول في تأمل لم يكن يريد ، ولم يرض عن كونه قد
قد الشغل بالمرأة إلى هذه الحد القوي . لكن حضور هذه المرأة أيضاً

دليل على مدى خطأ الأفكار التي كان الدبلومايني الشباب قد اعتنقوها
منذ لحظة سابقة عن مظهر الحفل .

وكانت الماركيزة حينذاك في سن الثلاثين ، وكانت جميلة برغم
تخافت شكلها وبرغم رقها المتناهية . وكان أكبر عوامل جاذبيتها يتركز
في مضاء وجهها الذي كان هدوءه يتم عن عمق عجيب في الروح . وكانت
عيناها ممتلئة بالبرق ولكن كأنها محجوبة بفعل فكر دائم . فتفصح عن
حياة محمومة وعن استسلام عريض . ونادراً ما كانت جفونها ترتفع
بعد أن انخفضت على الدوام . نحو الأرض في تعفف . وإذا كانت
تلقى بعض النظرات حينها فقد كانت تؤديها في حركة حزينة . لم
رأيتها لقلت إنها تحفظ نار عيناها من أجل تأملات غيبية . كذلك كان
كل رجل منسحب يشعر بأنه محبوب جداً غريباً نحو هذه المرأة
الرقيقة الضامنة .

وإذا كان يحلو للفكر أحياناً أن يستطلع أسرار رد الفعل المستمر
الذي كان يحدث بداخلها للحاضر نحو الماضي ، والمجتمع إذاء عزلتها .
فإن الروح أيضاً لم يكن اهتمامها أقل بالتعرف على أسرار قلب مغرور
بالألمة بشكل ما . وليس فيها فضلاً عن ذلك ما يكذب الأفكار التي
كانت توحى بها في مبدأ الأمر . وكل النساء تقريباً من ذوات الشعر الطويل
جداً . كانت شاحبة اللون . كما كانت بيضاء بياضاً ناصعاً . . .
وكانت بشرتها ذات النعومة العجيبة تنبئ بما لا يدع مجالاً للخطأ عن مساسية

حقيقية تعززها طبيعة ملاحظتها التي تميزت بتلك الكمال الرابع الذي يسكنه المصورون الصييون على أوجههم الوهمية . ولعل رقبها كانت طويلة بعض الشيء . ولكن هذه الأنواع من الأعناق هي الأكثر رقة . وتهب زعموس النساء منشأيات غامضة مع مجموعات الدعابين الخدابة . ولو لم توجد علامة واحدة من آلاف العلامات التي تكشف بها أشد الطباع خفاء على الملاحظ فكان يكفي أن يفحص بانتهاء حركات الرأس والتواءات العنق الشديدة التنوع والشديدة التعبير معاً لكي يحكم على امرأة .

وكانت أنيقة زينة السيدة « ديجايون » متسجمة مع الفكر المسيطر على شخصها . وكانت خفائر شعرها المعقوفة تنشيء فوق رأسها تاجاً عالياً لا يتداخله أي زينة لأنها كانت قد فارقت العجز الذي كانت تهم فيه بدراسة زينة تجميلها وودعته إلى الأبد . كذلك لا يأخذ عليها المرء إطلاقاً تلك التدييرات الصغيرة في الدلال التي تشوه نساء كثيرات . ولكن مهما كان تواضع الصديري الذي كانت تلبسه فلم يكن يخفي تماماً رشاقة خصرها . ثم كانت فخخة « قستانها » الطويل تبدو في تفصيلاته الرفيعة الشأن . ولو كان مباحاً للمرء أن يبحث عن الأفكار في تنسيق القماش لأمكن القول أن الثياب العديدة البسيطة في رداءها كانت تبلغ بها مصاف أعلى البلاء . وعلى الرغم من ذلك كانت تفتضح ضروب الضعف الثابتة عند المرأة من مدى العناية الدقيقة التي تبذلها

في يدها وقدمها . ولكن إذا كانت تكشف يدها وقدمها في بعض المناسبات ، فلهذا كان يصعب على أشد المناهضات دهاء أن تكشف في حركاتها أثر عناية أكثر مما يلزم حينها بنيت عفوية أو كانت راجعة إلى عادات طفولية . وكانت هذه البقية من الدلال تغتر مع شيء من التفاضل الرقيق .

ولا يستطيع المرء أن يعبر ماراً بهذه الكومة من الملامح . وهذه المجموعة من الأشياء الصغيرة التي تؤدي إلى جمال المرأة أو قبحها ، وإلى فنسها أو عدم قبحها ، دون أن يأخذ في بيانها ، وبخاصة عندما تكون الروح كما هو الحال عند السيدة « ديجايون » واسطة العقد بين كل التفاصيل بحيث فرضت عليها وحدة شبيهة : كذلك كانت هيأتها متناسبة تماماً مع ظايع وجهها ومع أنيقة زينتها . في بعض السن فقط تعرف بعض النساء المتقاة وحدها كيف تنسق لفتها مع وضعها . فهل الحزن أو الجفاء والسرور هو الذي يعبر المرأة في من الثلاثين - المرأة السعيدة أو الشقية - سر ذلك الحجاب القصيص ؟ سيظل ذلك دائماً لغزاً حياً يفسره كل وفقاً لرغباته أو آمانيه أو نظامه . وكان كل شيء - الطريقة التي تحفظ بها مرقعها مستلدين إلى ذراعتي مقعدها - ونصل أطراف أصابعها في كل يد على طريقة اللاعب ، واستدارة رقبته ، وعدم الاعتناء بجسدها الضعيف المرن في وقت معاً الذي كان يبدو مكسوراً برشاقة فوق المعقد ، وتخلية ساقها - وعدم البلالة بوضعها - مع حركاتها

المليئة بالتعب - كل شيء كان يوحى بامرأة لا تجد أية منعة في الحياة ، ولم تعرف أي لذائذ الحب ، ولكن عاشتها في الأحلام ، وتتخفى تحت الأثقال التي تحم بها الذائبة فوقها .. امرأة يتست مثل وقت طويل في المستقبل ، وفي نفسها .. أو امرأة خالية من المشغوليات تأخذ الفراغ على أنه عام .

وأعجب « شارل ديفاندينيس » بهذه اللوحة الرائعة ، ولكن بوصفها نتاج صناع أكثر براعة من السيدات العاديات ، وكان يعرف « ديجليمون » ومن أول نظرة يلقيها على تلك المرأة - التي لم يكن قد رآها من قبل - استطاع الدبلوماسي الشاب حينذاك أن يتعرف على اختلال النسب والتناقضات الشديدة إذا شئنا استخدام اللفظ القاتوني بين الشخصيتين ، بحيث صار من المستحيل بالنسبة إلى الماركيزة أن تحب زوجها ، ورغم ذلك تمسكت السيدة « ديجليمون » بساوك لا لوم عليه ، ولا تهريب وبقيت فضيلتها مشار تقدير أعلى من كل الأمور التي يستشعرها فيها من يلاحظها . وبمجرد انقضاء حركة الاندهاش الأولى بحث « ديفاندينيس » عن أفضل طريقة للاقترب من السيدة « ديجليمون » وأراد بحيلة تافهة من حيث الدبلوماسية أن يربكها لكي يعرف كيف تستقبل إحدى البلاغات .

قال وهو يجلس بالقرب منها : سيدتي ، لقد علمت عن طريق فضول موفق أنني حصلت - لا أدري بأي صفة - على حظ التفاتك . إنني أدين

لك بشكراتي بالتقدير الذي يناسب ما لم أحظ به إطلافاً من التفضل المماثل ، ولعلك تحسبن على أيضاً أحد أخطائي . ورغم ذلك فلا أود أن يكون من أخطائي ..

قالت وهي تضحك : لاشك أنك عظمى يا سيدي إذ يجب أن يترك الغرور لأولئك الذين لا يملكون حواه يضعونه على واجهتهم .

وبدأت محادثة حينذاك بين الماركيزة والشاب اللذين طرفاً - وفقاً للعرفان الجاري - في لحظة واحدة جملة من الموضوعات : التصوير والموسيقى والأدب والسياسة والناس والأحداث والأشياء . ثم أدركا في منجدر غير محسوس الموضوع الأبدى للمحادثات الفرنسية والأجنبية وهو موضوع الحب والعواطف والنساء .

- إننا عبيد .

- إنكن ملكات .

ومن الممكن أن تخلص العبارات اللطيفة المتبادلة بين « شارل » والماركيزة إلى هذا التعبير البسيط عن كل الأحاديث الحاضرة والمستقبلية الحارية على هذا النحو . ألا تعني هاتان الحملتان دائماً أن تقولاً في وقت واحد « اجعلي حيلك لي .. سوف أحبك » .

صاح شارل « ديفاندينيس » برفقة : سيدتي ، إنك تجعليني أندم دائماً شديداً لمغادرة باريس ، فمن المؤكد أنني لن أجد في إيطاليا ساعات تمثل هذه الطاقة التي بهرت الآن .

— من المحتمل أن تعثر على السعادة بامسئدي ، وهي أفضل بكثير من كل هذه الأفكار الذميمة ، صادقة كانت أو كاذبة ، التي يقال كل ليلة في باريس .

وحصل ، شارل ، قبل أن يحكي الماركيزة — على الإذن بزيارتها من أجل تقديم تحيات الوداع ، واعتبر نفسه سعيداً جداً لأنها أعطت رجاءه شكلاً من أشكال الإخلاص عندما راح يخط في نوم في نفس الليلة أو في أثناء النهار في اليوم التالي ، إذ استحال عليه أن يعطد ذكرى تلك المرأة ، فأحياناً كان يتساءل : فم تمييز الماركيزة له ؟ ماذا كانت أغراضها عندما طلبت روثيه ؟ وبني على ذلك تعليقات لا تعدد ، وأحياناً كان يعتقد أنه وجد الدافع إلى هذا الفضول فيتنشئ عند ذلك بالأمل أو يبرد ، وفقاً للتفسيرات التي كان يفسر لنفسه بها هذا التمي المذهب الشائع في باريس ، وأحياناً كان ذلك هو كل شيء ، وأحياناً لم يكن ثمة شيء . وفي النهاية أراد أن يقاوم ذلك الميل الذي كان يجذبه نحو السيدة « ديجاييسون » ولكنه ذهب إليها ، فإن هناك أفكاراً نطبعها دون أن نعرفها ، فهي توجد فيما دون أن نعلم ، وبرغم أن تلك الفكرة كان يمكن أن تبدو متناقضة أكثر مما تبدو صحيحة فإن كل شخص ذي إيمان صادق يجد فيها ألف دليل في حياته .

وعندما ذهب إلى بيت الماركيزة وضع ، شارل ، لإحدى العبارات القائمة سلفاً ضمن تجربتنا : وليست غزوات فكرنا في النهاية إلا تطورات

حسية . « فامرأة في سن الثلاثين ، نجد ميولاً لا تقاوم نحو شباب ، ولا شيء أكثر طريعية وأشد تسبجاً وحكمة وأفضل في التعيين سلفاً من الارتباطات العديدة التي تعرض لها زوجها في المجتمع بين امرأة مثل الماركيزة وشباب مثل « ديفاندونيس » . والواقع أن « الفتاة » تكون عادة ذات أوهام جملة وعديمة التجربة أكثر مما ينبغي ، وذات جنس يبالغ في تعالقه مع حبها إلى درجة أن الشاب لا يمكن أن يرضى غروره بسببها في حين تعرف المرأة ، عادة كل مدى التصحيحات الضرورية ، فهناك حيث تنقاد لإحداهما ، للفضول والإغراءات الغريبة على إغراءات الحب تكون « الثانية » مطيعة لعاطفة واحدة ، « الأولى » تستسلم و« الثانية » تختار أليس هذا الاختيار نفسه سلفاً تعلقاً ضحماً ؟

وتكون « المرأة » التجربة فيما يبدو مؤودة بمعرفة تكاد تكون دائماً قد دفعت عنها غالياً من تعالمتها ، فتعطى أكثر حين تعطي من نفسها ، في حين لا تستطيع « الفتاة » الجاهلة السريعة التصديق في عدم علمها بشيء ، أن تقارن وتوازن ، أو أن تقدر شيئاً قدره ، إذا أنها تتقبل الحب وتدرسه . فلإحداهما ثقافتنا وتنصحن في السن الذي نعيش فيه بأن نرعى أنفسنا لثبات ، حيث تكون الطاعة نفسها متعة ولذة ، على حين تريد الأخرى أن تتعلم كل شيء . وتكشف سداً حبها حيناً أظهرت الأولى رفقها . وبينما لا تعطيك تلك فرصة الانتصار غير مرة واحدة ، ترغمك هذه على النزول المتصل . والأولى لا تملك سوى الدعوى

والمنع - في حين تملك الفتاة الشهوات وتائب الفسيفسار .

ولكني تصبح فتاة عشيقة لابد أن تكون فاسدة إلى حد كبير ،
وعندئذ يفارقها المرء . شمساً . أما المرأة فتجد ألف وسيلة للاحتفاظ
بقدرتها وكرامتها معاً في وقت واحد . وبما تكون الأولى خاضعة خضوعاً مطلقاً .
وهي تبذل ضحايا الراحة النفسية . تتنازل الثانية عن الكثير من أجل
ألا تتطلب من الحب آلاف التحولات الخاصة به . فالواحدة تتحلل
عن شرفها تحتض إرادتها في حين ترتكب الأخرى جناية قتل أسرة
بأسرها لمصلحتك . ولا تملك الفتاة سوى دلالة : وتعتقد أنها عجزت
عن كل شيء . حين تخلع ملابسها : في حين تملك المرأة العليل من التعبيرات
والأقوال وتتخفى وراء آلاف الأقنعة . فهي تتحسس وتريث على كل ألوان
الزهو والغرور . أما المستجدة فلا تملك سوى لون واحد حسب من هذه
الألوان .

ويجيش بانفعالات المرأة في سن الثلاثين تردد ورجب وخوف واضطراب
بما لا يطاق المرء إطلاقاً في حب الفتاة . وعند بلوغ هذه السن تسأل
المرأة الشاب أن يرد إليها التقدير الذي ضحيت به من أجله : إذ أنها
لا تحب إلا من أجله . وتشغل نفسها بمسقبله . وتزيد له حياة
جميلة . وتنظفها له على أروع صورة . وتطعم وترجو وتأمّر . تطع
من نفسها وتعلو بنفسها . وتعرف كيف تواسي في آلاف
المناسبات . حيث لا تعرف الفتاة سوى التأؤ . وفي النهاية تستطيع المرأة

في سن الثلاثين - بالإضافة إلى كل الخاسن التي يتميز بها وضعها - أن
تعمل من نفسها فتاة . وأن تلعب كل الأدوار . وأن تتميز بالحياء والخضوع
وتحل حتى بالشقاء . فبين كل منها ذلك الاختلاف الذي يصعب قياسه
عادة بين ما يكون متوقعاً وما لا يتوقع . أو بين القوة والضعف . فترضى
المرأة في سن الثلاثين كل شيء . وليس ضرورياً أن ترضى الفتاة شيئاً
ولاً المتحدث بكيانها .

وتتميز هذه الأفكار في قلب الشاب . وتؤلف لديه أقوى العواطف
والأهواء . لأن هذه هي التي توجد لديه بين العواطف المصطنعة الصادرة
عن انحراف الأخلاق وبين عواطف الطبيعة الحقيقية .

ويكون عادة الإجراء الرئيسي الخاسن في حياة النساء على وجه الدقة
هو الذي تنظر إليه المرأة دائماً بوصفه غير ذي دلالة . فإذا تزوجت
المرأة لم تعد تنتمي إلى أحده . وإنما تصبح ملكة المسكن البني وعبدته .
ولا تثق قداسة النساء مع واجبات المجتمع وحرياته . وتحرير النساء
إفسادهن . وعند الموافقة على حق تفاد غريب إلى محراب الأسرة .
أليس في ذلك خضوع ونزول عند رغبته . وعندما تحل به المرأة إلى
الداخل . أليس ذلك خطأ . أو بتعبير دقيق أليس ذلك ابتداء للخطأ ؟
لابد من قبول هذه النظرية في كل صرامتها أو نبرتها الأهواء .

ولقد عرف المجتمع في فرنسا حتى اليوم كيف تبقى في وسط المسافة
إذ لا يعا أهل فرنسا بالشقاء . وكأنهم أهل (إسبارطة) الذين كانوا

يعاقبون عدم الخلق كما لو كان هو سبب السرقة . ولكن قد يكون هذا النظام حكيمًا جدًا ، ذلك أن الاحتقار العام ينشئ أشنع العقوبات جميعاً في أنه ينال من المرأة في قلبها . وينبغي أن يتحسك النساء كلهن بأن يكن موضع تشريف لأنهن لا يستطعن العيش بدون الاحترام والتقدير . إنهن كذلك يطلبن من الحب أول عاطفة ، فأشد النساء قسداً من يمتن بشرط قبل كل شيء عفواً وغفراناً عن الماضي ويتبعن مستقبلهن ويسعين لإفهام العشيق الجديد أنهن يستبدلن التكريمات التي يأباهن عليهن المجتمع بالهاء الذي لا يقاوم . وليست بامرأة تلك التي تستقبل شاباً لديها لأول مرة ، ولا تدرك بعض هذه الأفكار عندما تكون بمفردها معه ، وعلى الخصوص إذا كان ذلك الشاب مثل « شارل ديفاندينيس » . قام التكوين ولطفاً ، وبالمثل قليل جداً من الشبان تنقصه إقامة بعض أمانيه الخفية فوق واحدة من ألف فكرة مما يسوق حبه الفطري للنساء الجميلات اللطاف السخيات البائسات على نحو ما كانت السيدة « ديجليتون » .

كانت الماركييزة مضطربة ، وهي تنتظر الإخطار بوصول السيد « ديفاندينيس » وأوشك ذلك أن يكون محرجاً برغم التأكيد الذي يكاد يكون نوعاً من العادة لدى الدبلوماسيين ، غير أن الماركييزة لم تلبث أن أعطت نفسها تلك المسحة العاطفية التي تحمي تحتها النساء ضد تفسيرات الغرور . ونسجعت هذه الهيئة كل فكرة خلفية ، وتجعل

الأمر من نصيب العاطفة ، إن صبح هذا التعبير ، مع تلطيفه بأساليب من الآداب العامة . وتبقى النساء في ذلك الوضع المبهم عندئذ أطول مدة يرغبن فيها كأنهن عند تقاطع الطريق الذي يؤدي إما إلى الاحترام أو إلى عدم المبالاة أو إلى الهوى الشديد .

وفي سن الثلاثين فقط تستطيع المرأة أن تعرف حيل هذا الموقف ، فهي تعرف كيف تضحك فيه ، وكيف تمزح ، وكيف تترقق دون أن تعرض نفسها لأية شبهة . وهي تعلم عندئذ الكياسة اللازمة ، لكي تهجم كل خيوط الحساسية في الرجل . ولكي تدرس الأصوات التي تستخرجها منها ، فصمتها على نفس مستوى خطورة أقواها . ولا تستطيع إطلاقاً إذا كانت في تلك السن أن تعتمد على تخمين أصريجة هي أم زائفة ؟ أهي تسخر أم أنها ذات إيمان صادق في أمانيتها ؟ فبعد أن تكون الواحدة منهن قد أعطتك حق التزال أمامها ، تستطيع فجأة بكلمة أو بنظرة أو بإحدى الحركات التي يعرف مدى قوتها أن تنهي التزال ، وأن تهجر ، وأن تبقى عشيقة سرك مع احتفاظها بخبرتها في أن تضحي بك في « دعابة » وفي أن تشغل بك محمية بضعفها وبموتك . وبرغم أن الماركييزة احتلت مكانها في أثناء هذه الزبارة الأولى ، فوق تلك الأرض المحايدة ، عرفت كيف تحافظ ذلك على أعلى كرامة للمرأة . فقد كانت آلامها الخفية دائماً فوق مرجحها المصطنع كسحابة خفيفة تحجب الشمس بطريقة ضعيفة وتخرج « ديفاندينيس » بعد أن كان قد استعذب خلال تلك المقابلة لذات

مجهولة ، ولكنه بقي مقتنعاً بأن الماركيزة كانت من تلك النساء اللاتي يكلفن عزوهن عمالياً إذا أراد المرء أن يشرح في حينه .

قال بعد خروجه : سوف تكون تلك عاطفة من العواطف الطويلة المدى ، أو تجاوباً يجهد « نائب رئيس » طسوح مثلي ، ورغم ذلك لو أنني أردت حقاً .. إنه أمر مقدور .

لو أنني أردت حقاً ! قد أطاحت أمثال هذه العواطف دوماً بأصناف المراجع العنيد . وفي فرنسا يؤدي حب الذات إلى الهوى الشديد .

وعاد « شارل » مرة أخرى إلى السيدة « ديجليمون » وأدرك أنها تجد متعة في مخادعته ، وبدلاً من أن يستسلم عندئذ بسذاجة إلى هباء الحب ، أراد أن يلعب دوراً مزدوجاً ، فحاول الظهور بمظهر العاشق ، ثم حاول تحليل سير هذه الحيلة الماكرة بهرودا ، أي أن يكون محباً وديبلوماسياً معاً . ولكنه كان كريماً وشائماً ، وكان لابد أن يسوقه هذا الاختبار إلى حب غير حدود . وذلك لأن الماركيزة كانت مواء مصطنعة أم طبيعية أقوى منه دائماً . وفي كل مرة يخرج « شارل » من بيت السيدة « ديجليمون » كان يقصر على حذره ، فيخضع مواقف التقدم التي كانت روحه تمر بها لتحليل صارم يؤدي إلى بتير انفعالاته الخاصة .

قال لنفسه في الزيارة الثالثة : اليوم أدركت من كلامها أنها كانت شقية جداً ، ووحيدة في الحياة ، ولولم تكن ابنها لفرغت في الموت بملهف شديد . لقد كانت في حالة إزعاج كامل . والواقع أنني لست أنا لها

ولا فليس الاعتراف ... فلماذا أمرت إلى بكل أحزانها ؟ إنها تحبني . وبعد يومين لعن الأخلاق الحديثة وهو في الطريق إليها ، وسجل يحدث نفسه : « يأخذ الحب لون كل قرن . في ١٨٢٢ كان مذهيباً : وبدلاً من أن يثبت نفسه على نحو الزمن السالف بوقائع ، صار موضع نقاش ، وموضع تعليق . وموضع خطب المنابر . وخلصت النساء بشأنه إلى ثلاث وسائل : فمن أولاً يحاول أن يقنع عاطفتنا موضع التساؤل ويرفض أن يمنحنا القدرة على الحب بقدر ما يحسن ، دلالاً بل ثملة حقيقى مختلفة لي الماركيزة هذه الليلة . ثم لهن يظهرن بمظهر الشديديات العاسية كمن يترن أربعيناتا الطبيعية أو حينا اللاتي ، ألا يدعو إلى ملق الشاب أن يجد نفسه يسرى عن لكة كبيرة ؟ وفي النهاية هن مصابات بهوس العنصرية أو الكارثة ؟ ولا بد أنها ظنت أنني أنظر إليها على أنها غزاة لم تحس . لاشك أن ثقتي الصادقة تستحق أن نصير نظرية راقية . »

وفي يوم من الأيام بعد أن أجهد أفكاري عن التحدي تساءل : « إذا كانت الماركيزة مخلصة ، كانت كل هذه الآلام في مقدور بشر . فلماذا تظهر بهذا الإزعاج ؟ لقد كانت تعيش في عزلة عميقة ، وثقبات في صمت أحزانها التي جعلته يستنجد بها ويدركها بصعوبة ، من حجة مقصورة في الوثائق . »

ولقد تلك اللحظة أهم ، شارل « انهماكاً جاراً بالسيدة « ديجليمون »

وبرغم ذلك وجد ، ديفانديسيس - وهو في طريقه إلى مرقد لقاء معناد صار بالنسبة إليهما ضرورياً كأنها ساعة مخجوزة يغريزة متبادلة - وجد أن عشيقته لا تزال بارعة أكثر مما هي صادقة ، وكانت قوله الأخيرة هي : « هذه المرأة بالتأكيد ماهرة جداً » .

دخل ووجد الماركييزة في وضعها المفضل ، وهو وضع « على » بالاكشابل ، ورفعت عينيها نحوه دون أن تبدر منها حركة ، وألقيت إليه واحدة من تلك النظرات المليئة التي تشبه الابتسامة ، وعبرت السيدة « ديجليسون » عن ثقة وصدقة حقيقية ، ولكن لم يصدر أي تعبير عن الحب ، وجلس « شارل » ولم يستطع أن ينطق بكلمة ، فقد كان متعللاً بأحد تلك الإحساسات التي يعجزها التعبير .

قالت ببرة صوت عطفوف : « ماذا بك ؟ »

— لا شيء . . . بلى . . أفكر في شيء لم يشغلك إحلافاً إلى الآن .

— وما هو ؟

— ولكن ... لقد انتهى المؤتمر .

— فيه ... هل يجب إذن أن تذهب إلى المؤتمر ؟

وكانت الإجابة المباشرة أكثر بلاغة وأشد رقة من كل التصريحات ، غير أن « شارل » لم يؤدها . وأبدت هيئة السيدة « ديجليسون » صراحة وسلامة نية في صداقتها لم تحلم كل تدبيرات الغرور ، وكل الآمال في الحب ، وكل التحديات الدبلوماسية . وكانت تجهل — أو تظهر بمظهر

من تجهل تماماً — أنها مريض بحب . وعندما رجع « شارل » إلى نفسه « ريتيك » قام اضطراب إلى أن يعترف بأنه لم يأت بفعل ، ولم يتبجح بقول يسمح لتلك المرأة بأن تفكر في ذلك . ووجد السيد « ديفانديسيس » الماركييزة في أثناء تلك السهرة كما كانت دائماً : بسيطة ، عطفواً صادقة في ألمها ، سعيدة بأن يكون لها صديق ، فخورة بأن تلقى روحاً استطاعت أن تصغي لروحها . لم تكن تذهب إلى أبعد مما هو موجود أمامها ، ولم تكن تفترض أن امرأة تستطيع أن تقع في إغواء مرتين . ولكنها عرفت الحب واحتفظت به الآن . وهو لا يزال يلعب في قاع قلبها . ولم تكن تتخيل أن السعادة تستطيع أن تحمل إلى امرأة مرتين هذه النشوات ، لأنها لم تكن تعتقد فقط في التفكير ، ولكن في الروح أيضاً . ولم يكن الحب عندها ضرباً من الإغواء ، لأنه كان يطابق كل الإغواءات النبيلة .

وعندئذ عاد « شارل » شاباً وقهره رونق ذلك الطبع العظيم ، وودّ لو يتقدم في معرفة كل هذه الأشرار الخاصة بهذا الوجود الذي أذهلته المصادفة أكثر مما أذهلته خطيئة ما . ولم تلق السيدة « ديجليسون » سوى نظرة إلى صديقتها وهي تسدعه يستغمر عن تزايد الحزن الذي زود جماعها بكل تناسقات الشقاء ، ولكن كانت هذه النظرة العميقة كخاتم يمسح به عقيداً على .

— لا تسلي مثل هذه الأسئلة بعد الآن ... منذ ثلاث سنوات ، وفي يوم مثل اليوم ، مات ذلك الذي كان يحبني . . الرجل الوحيد الذي

كنت أزعج أن أضحي من أجل سعادته وهنائه، ولو كان ذلك على حساب قدرتي وكرامتي ... مات لينفذ سمعي وشرفي . . . ولقد انتهى ذلك الحب شاباً بريئاً مليئاً بالغرور . . . لقد جرفتني الغواية بما يدفع بنات عديدات إلى الضياع . . . برجل ذي أشكال مقبولة ولكنه لا يساوي شيئاً . قبل أن أمتسلم لعاطفة مشبوبة دفعني إليها قدر فريد . . . وقد جردني الزواج من آمالي واحداً بعد الآخر . . . واليوم فقدت السعادة المشروعة . . . كما خسرت السعادة التي تسمى إجرامية، دون أن أعرف ما هي السعادة، ولم يبق لي شيء . . . وإذا كنت لم أعرف كيف أموت فعلى أن أفل على الأقل محبسة لذكرياني .

ولم تبك وهي تقول هذه الكلمات ، وحفظت عينها . . . ولست أصابعها التي كانت قد شبكها وفقاً لحركتها المعتادة لقدأ خفيفاً . . . وقالت ذلك ببساطة . . . ولكن لجة صوتها كانت لجة بأس عميق بالدرجة التي تبدو في عيني حجباً . . . ولم تدع أي أمل . . . لشارل . . . واستهوى ديفالدينيس ذلك الوجود الرهيب مترجماً في ثلاث عبارات . . . ومعلقاً بحايه في صورة لغة يد . . . ثم ذلك الألم القوي في امرأة ضعيفة . . . وتلك القوة الحقيقية داخل رأس جنيل . . . وأخيراً الكلمات ودموع حلاوة ثلاث سنوات استهزأ ذلك كله . . . وبقي صامتاً في تواضع إزاء تلك المرأة العظيمة النبيلة . . . ولم يعد يرى أي جمال مادي من ضروب الجمال اللذيذة الكاملة . . . ولكنه صار يرى الروح الحساسة على هذا النحو من أعلى

درجات الكمال . . . ولا في النهاية ذلك الوجود المثالي الذي طالما حلم به وهماً ، وطالما ناداه بشدة . . . كل أولئك الذين يثبون الحياة في العشق . . . ويبحثون عنه في حماس . . . وشوق . . . وغالباً ما يموتون قبل أن يستطيعوا التمتع بكل كنوزها التي حلموا بها .

ووجد شارل أن أفكاره كانت ضيقة الأفق وهو يسمع لغة كلامها . . . أمام ذلك الجمال الرفيع . . . وإزاء عدم قدرته حيث كان على قياس تلك الأقوال بالنسبة إلى سمو ذلك المشهد ورغم كل ما فيه من بساطة ورفعة . . . أجاب بأفكار مبتذلة حول مصير النساء . . . — سيدي . . . لا بد من معرفة كيفية نسيان الآلام أو خنق مقبرة لصاحبها .

ولكن العقل ضئيل دائماً بالقياس إلى العاطفة . . . فالعقل محدود بطبيعة الحال ككل ما هو وضعي . . . في حين أن العاطفة غير نهائية . . . والتفكير العقلي حينها واجب الإحساس . . . من أنصص صفات الأرواح العالية من الإدراك . . . وقد بقي « ديفالدينيس » صامتاً . . . وظل يتأمل السيدة « ديجاليسون » ثم انصرف . . . وكأنما وقع فريسة أفكار جديدة جعلت تكبر من المرأة ، فصار أشبه ما يكون بالمصور الذي ظل يتعامل مع أنماط عادية كماذج في مرسمه إلى أن لقي فجأة « ميندوزين » (١) أم عرائس المتحف . . . أكثر التماثيل القديمة جلالاً ، وأقلها من حيث

(١) أم العرائس في المتحف القديمة وأبنة أودانوس وأخت الخلة .

التقدير . وصار ، شارل ، مولها ، ولها عميقا . وأحب السيدة ، ديجليسون .
بذلك الإيمان الصادق الذي يتميز به الشباب مع تلك الحمية التي
تمنع العواطف الأولى سخاء لا يوصف ، وسلامة لينة لا يستعيد لها الرجل
إلا وهي حطام . عندها بحب مرة أخرى فيما بعد : عواطف لذيذة ،
وتشبهها بالذرة في الغالب النساء اللاتي يبتعننها . لأنهن يستعلن في سن
الثلاثين الجميلة . وقد بلغت ذروة الشاعرية في حياتهن . أن يحتضن كل
خط السير . وأن يرين أيضاً الماضي كال مستقبل . فتعرف النساء إذن
كل قدر الحب ، ويستمتعن به خشية فقدانه . عندئذ تكون روحيتهن
لا تزال حلوة من الشباب الذي يشرع بهجرهن . وتقوى عواطفهن
بالمستقبل الذي يخيفهن .

قال « ديفاندينيس » هذه المرأة وهو يفارق الملاكيزة : « انني أحب .
ولسوء حظي أفع على امرأة مقيدة بذكرياتها . ويصعب الصراع إذا
كان قصد ميت لم يعد موجوداً ولا يستطيع أن تصدر عنه حماقات ،
فلا يسيء إلى أحد إطلاقاً . ولا يعود ترى منه إلا أنبل الصفات .
أليس معنى ذلك الرغبة في الطوط بالكذال . أكثر من محاولة قتل
مفاتيح الذاكرة والآمال التي تظل حية بعد عشيق ضائع ، مجرد أنه لم
يوقف على التحديد سوى الرغبات ، وهي أجمل ما في الحب ، وأشد ما فيه
فتنة وإغراء ؟ »

وقد كانت هذه المفكرة الحزينة الناجمة عن التهييط ، وعن الخوف

الفتل ، مما يندأ به عادة حب صادق ، آخر تدبير لدبلوماسيته المختصرة
ومنذ ذلك الوقت لم تعد لديه أية فكرة خلفية . وصار لعبة في يده حبه .
وضاع في عقاهات تلك العادة غير ذات . التفسير التي تغذي من كلمة
ومن سكوت ومن عشم منهم . وقد أراد أن يكون حبه « أفلاطونياً »
وجاء كل يوم يستنشق الهواء الذي تستنشق السيدة ، ديجليسون ،
منتخداً من بينها قشرة صدفية ومصاحباً لها في كل مكان ، وأمسوراً
بطغيان عاطفة شديدة تخرج أنانيته بتفانيه المطلق . فلحبه غريزته ،
وهو يعرف كيف يجد طريقته إلى القلب كما تضعف الحشرات عندما تمشي
نحو زهرتها بإرادة لا تقاوم ولا يخيفها شيء .

كذلك ألا يكون المصير غير محدد عندما تصدق العاطفة ؟ أليس
تمة مسوخ لإلقاء المرأة في كل مقلقات الفراع ، إذا صارت تظن أن
حياتها تعتمد — على الأكثر أو على الأقل — على حقيقة أو طاقة أو ثبات
ما يضعه عاشقها في رغبته ؟ الواقع أنه من المستحيل على المرأة وعلى
الزوجة أو الأم ، أن تصون نفسها ضد حب أحد الشبان . كل ما في
قدرتها أن تمنع عن الاستمرار في لقائه في اللحظة التي تستخلص فيها
من القلب ، ذاك الذي تحبسه المرأة دائماً . غير أن ذلك الدور يبدو
حاشياً جداً كي تستطيع امرأة أن تقطع به في سن يتقل فيه الزواج ،
ويصير مصدر قلق وميل ، وتصبح فيه العلاقة الزوجية في مرحلة أكبر
من مرحلة الفتور : إذا لم يكن زوجها قد هجرها سلفاً .

فإذا كانت النساء قبيحات مبرهن وأرضاهن حب يجعل منهن
جميلات . وإذا كن شابات جذابات فلا بد أن يكون الإغراء من
نفس مستوى مفاصلهن . أى أن يكون الإغراء كبيراً . وإذا كن فاضلات
فإن العاطفة الأرضية السامية الحليمة تجعلهن على أن يجدن أى غفران .
في عظمة التضحيات نفسها التي يقدمنها إلى عشاقهن . وفي عهد الدخول
في ذلك الصراع الشاق . وفي كل موضع شريك . كذلك مامن درس
أشد مما ينبغي إذا قيس بمثل هذه الإغراءات القوية . والوقاية الوحيدة
للأخلاق السيئة هي الحبس الذي كان مأخوذاً به قديماً إزاء المرأة في
اليونان وفي الشرق . وصار شائعاً اليوم في إنجلترا . ولكن تحت سيطرة
هذا النظام نعدم كل زخارف المجتمع . فلا تصير المجتمعات أو الآداب
أو الأنظمة في الأخلاق ممكنة . وعلى الأتم أن تختار .

وعلى ذلك وجدت السيدة « ديفاندونيس » حياتها عقب بعض الشهور
من لقائها الأول مرتبطة ارتباطاً شديداً بحياة « ديفاندونيس » فتعجبت
بغير حيرة . بل تكاد تكون بلذة خاصة . في أن تشاركه أذواقه وأفكاره .
وهي استقت حتى أفكار « ديفاندونيس » أم أن « ديفاندونيس » قد صار
متعصباً لأصغر ترواتها ؟ وكانت تلك المرأة الرائعة التي تملكها تيار
العاطفة سلفاً قد قالت لنفسها بالنسبة السامية الزائفة عند الخوف : أوه !
سأكون مخلصة لذلك الذي مات من أجله .
وكان « باسكال » قد قال : « إن الشك في الله إيمان بوجوده » .

وعلى نفس الوتيرة لا تدخل المرأة في عرائك مع نفسها إلا حين تكون قد
انشغلت . وظلت الماركة في اليوم الذي اعترفت لنفسها فيه بأنها كانت
محبوبة تظفر بين ألف من العواطف المتعارضة . وتكلمت المحرافات
في التجربة بلغتها . هل تصبح سعيدة ؟ هل يمكنها أن تعبر على السعادة
خارج القوانين التي أقام بها المجتمع أخلاقه بالحق أو بالباطل ؟ حتى
اليوم لم تكن الحياة قد أعطتها سوى المرارة . هل كان ثمة نهاية سعيدة
ممكنة للارتباطات التي توحد بين كائنين منفصلين بحكم اللياقات الاجتماعية
ولكن هل نتكلف السعادة ثمناً باهظاً ؟ وهذه السعادة التي يطلبها الناس
في حماس . والتي يعد البحث عنها طبيعياً . قد تصادفها في النهاية .
ومن شأن الفضول أن يدافع دائماً عن قضية العشاق .

ووصل « ديفاندونيس » وهي قائمة وسط هذه المناقشة المبرية .
وأخفى حضورها شيخ العقل « الميتافيزيق » (عقل فلسفة ما وراء
الطبيعة) . وإذا كانت هذه التحولات المتتالية التي تقع في سياقها
عاطفة مبررة لدى الشاب أو لدى المرأة في سن الثلاثين على هذا النحو .
فقد تأتي لحظة تلغى فيها الاستدلالات مع فكرة واحدة أخيرة تختلط بإحدى
الرغبات وتقويها . وكلما طال أمد المقاومة كان صوت الحب عندئذ
أقوى وأشد . وهنا يتوقف إذن هذا الدرس أو تلك الدراسة حول موضوع
« المسوخ » (أى تقديم حيوانات يقع عنها جلدها للدراسة في الفنون
الحيلة عامة) إذا كان من المسموح به استعارة أحد هذه التعبيرات

الشائقة من فن التصوير لأن هذه القصة تشرح مخاطر الحب وآلية تطوره أكثر مما تصوره .

غير أنه منذ تلك اللحظة كانت نفسي بعض الألوان على هذا الهيكل العظيم فتكسوه بنعماء الشباب ولطافته ، وتنبعث الحياة في اليدين ، وتبث الحب والقدرة في حركاته ، وترد إليه اليريق والجمال والإغرائات العاطفية وميول الحياة .

ووجد «شارل» السيلة «ديجيمون» مشغولة الفكر . وموجود أن قال لها بهذه النغمة النفاذة التي ملأها فتح القلب الرقيقة بقدرة أكبر على الإقناع : « ماذا بك ؟ » تحنطت تماماً في إجابتها ، إذ يروح هذا السؤال الحلو بتفاهم روي كامل ، وفهمت الماركة بغيرية المرأة المدهشة أن الشكاوى ، أو التعبير عن الشقاء الشخصي الباطني ، سيكون بشكل ما لونا من ألوان المقدمات ، وإذا كان لكل من هذه الأقوال دلالة مفهومة من الطرفين غاية هوة لن تضع فيها قدميها ؟ وقرأت في ذاتها بنظرة واضحة مشرقة ثم سكمت وقلدها « ديفانديتيس » في سكوتها .

قالت أخيراً وقد دغرت من مدى الطاقة العالية التي تمثلت في لحظة حلت فيها لغة العيون تماماً محل العجز عن الحديث : « انتهى سريضة » . أجاب « شارل » بصوت خنوق شديد الانفعال : « سيدتي ، الجسد والروح كلاهما يمسك أحدهما بالآخر . ولو حظيت بالسعادة لصرت شابة قاهرة لماذا ترفضين أن تطلي من الحب كل ما حرمك

الحب إياه ؟ هل أعتقدين أن الحياة قد انتهت في اللحظة التي أوشكت أن تبدأ فيها بالنسبة إليك ؟ خصي ثقتك في رعاية صديق . فكم يكون حاراً أن يكون المرء محبوباً !

— لقد صرت عجوزاً سلفاً . ولا شيء يغفر لي — إذن — ألا أستمر في الألم مثلما كنت في الماضي . وفضلاً عن ذلك يجب أن يحب المرء ، أليس هذا ما نقوله ؟ هيد !! لا حتى لي في الحب ، ولا قدرة لي عليه ولا يعجبني شخص فيما عداك أنت . بعد أن صارت صداقتك تفيض بالوداعة على حياتي . ولن يستطيع إنسان أن يحسو ذكرياتي . وقد أقبل الصديق ، ولكني أهرب من العاشق . وهل من انكرم في شيء أن أبادل قلباً ذاوياً بقلب شاب . وأن أتلقى غوايات الحب دون أن أستطيع اقتسامها ، وأن أكون سيباً في معادة لا أعتقد فيها إخلافاً أو ارتعد إذا فقدتها ؟ قد أقابل نفسيه وإخلاصه بالأمانة وأخلل أحكم العقل عندما يكون هو غارقاً في المشاعر والأحاسيس كما أنني قد أبىء بذكرياتي فورة لذائذه . لا ... كما ترى ... الحب الأول لا يخل محله حب أبداً . ثم لي النهاية أي رجل يقبل قبي بهذا الفن ؟ وكانت هذه الأقوال التي انطبعت في دلال شديد آخر جود حكيم . فلما تراجع ووهن عزمه فسأطل وخجدة مخلصه . وزدت هذه الفكرة على قلب تلك المرأة وكانت بالنسبة إليها بمثابة فرغ الصفايف المثل في تراخ شديد ، والذي يمسك به من يسبح قبل أن يعمل التيار .

وعند الاستماع إلى هذا القرار أفهنت من «ديفاندينيس» احتلاجة غير إرادية كانت أقوى على قلب الماركييزة من كل ما حدث قبل ذلك من ملاحظات الماضية. فما يحس قلب النساء حساً قوياً هو ما تلقاه لدى الرجال من رقة لطيفة. ومن مشاعر لذيذة يقدر ما لديهن أنفسهن. لأنهن يعتقدن أن اللطف والرفقة هما علامتا الصدق. وكانت حركة «شارل» تفصح عن حب حقيقي. وعرفت السيدة «ديجليمون» قوة حب «ديفاندينيس» من قوة ألمها. فقال الشاب يبرود: «لعلك على حق». فالحب الجديد حزن جديد.

وغير موضوع الحادثة، فأخذ يتبادل الكلام في أميائه بلا غرض، ولكنه كان واضح الأفعال. وينظر إلى السيدة «ديجليمون» بانتياء مركز كأنه يراها لأول مرة. وأخيراً فارقتها وهو يقول لها في انفعال:

— «وداعاً يا سيدتي».

— «إلى اللقاء».

قالت ذلك بتدلل قاعم لا يدرك منه منوى صفوة النساء. ولم يجب وخروج.

وأحست بأنفسها عندما لم يعد موجوداً وعندما حصار مقعده الفارغ يتكلم بدلا منه، وأخذت تغمض لنفسها الأعطاء. وتتقدم العاطفة تقدماً خصباً لدى المرأة حين ترى أنها قد عملت عملاً غير كريم، أو أنها جرحت روحاً نبيلة إذ لا ينبغي إطلاقاً تحدى الشاعر

السينة في الحب. لأنها تكون ملائمة تماماً. ولا تدعن المرأة إلا إذا وقعت تحت ملائمة الفضيلة. وقول: «الحكيم معبد بالنيات الطيبة» ليس مجرد مفارقة من أحد الرعايا.

وظل «ديفاندينيس» لا يحضر عدة أيام. وكانت الماركييزة تنتظره أثناء كل ليلة في ساعة الموعد المعتاد بصبر ناعق مليء بتوبيخ الضمير. والكتابة اعترافاً، فضلاً عن أن غريزتها كانت تقول لها إنه سوف يعود. وأنحضر الخادم بقدميه في اليوم السادس، ولعلها لم تسمع اسمه قط يمثل هذا السرور. وقد أرجحها أن تفرح إلى هذا الحد.

قالت له: «لقد عاقبتني عاقباً حسناً!»

ونظر إليها «ديفاندينيس» بتعبير أبله. وقال:

— «عاقبتك؟! ... ولكن علام؟!»

وكان «شارل» يفهم الماركييزة فهماً تاماً. ولكنه شاء أن يتهم

لآلامه التي كان قريبة لها منذ اللحظة التي اشتبهت فيها.

سألته وهي تبسم: «لماذا لم تأت لزيارتي؟»

— «لعلك لم ترى أسطفاً إذن؟»

قال ذلك لكي يتفادى السؤال المباشر.

— «لقد بقي السيد «ديرونكيرول» والسيد «مارسييه» أوديسيجرينيون»

الصفير ما هنا، أحدهما بالأمس، والآخر أثناء هذا الصباح قرابة

ساعدين . ورأيت أيضاً فيها أعنقد السيدة و فيرمياي وأختك السيدة
« دليستومير »

ألم جديد ! ألم غير مفهوم عند أولئك الذي لا يحبون في نوح من
الطغيان المكتسح الضاري الذي تكون أبسط آثاره غيرة وحشية ورغبة
متصلة من أجل الاختلاس الكائن المحيّر بعيداً عن كل مؤثر غريب
عن الحب .

قال « ديفاندونيس » لنفسه : « ماذا ؟ تستقبل وترى أشخاضاً راضين .
وتحدثهم في حين أبني أنا وحيداً تعيساً ! »

ودفن حزنه ، وأبقى قلبه في أعماق صدره كتابوت الموتى في البحر .
وكانت أفكاره من النوح الذي لا يقال ، ومن النوح السريع الشبيه
بالأحداض التي تغفل وهي تتبخّر ، ويرغم ذلك غطت السحب جبينه ،
وأطاعت السيدة « ديجليسون » غريزة المرأة ، وهي تشاركه هذا الحزن
دون أن تلاحظ ذلك . ولم تكن متواطئة مع ذلك الألم الذي أحدثته .
وأدرك « ديفاندونيس » ذلك .

وتحدث عن موقفه . وعن غيظه . كما لو كان ذلك اقتراضاً مما
يسر العشاق مناقشته . وفهمت الماركية كل شيء ووقع ذلك من قلبها
موقعاً قوياً بحيث لم تستطع مقاومة دموعها . وعند تلك اللحظة نفذا
خلال أعتاب فرعون الحب . والجنة والنار ليسا سوى قصيدتين
طوبلتين مختلفان صيغ وعبارات التقطتين الوحيدتين اللتين يدور حولهما

وجودنا : السرور والألم . أليست الجنة وسفلى دائماً صورية من لاهائية
عشاعرنا التي لن تصور إلا خلال تفصيلاتها طالما كانت السعادة
واحدة ... ألا تمثل النار تعذيب آلامنا غير المتناهي ، التي نستطيع
أن ننظمها في عمل شعري . لدى الاختلافات الكبيرة بين كل
منها ؟

وكان العاشقان جالسين في إحدى البالي أحدهما إلى جوار الآخر
صامتين مشغولتين بتأمل مسحة من مسحات السماء ... هي مسحة السماء حين
تكون صافية تأتي فيها أشعة الشمس الأخيرة أصباغاً ذهبية وأرجوانية
خفيفة . وفي تلك اللحظة من اليوم ينمو انخفاض النور ببطء شيئاً
فشيئاً كما لو كان يوقظ مشاعر رقيقة . فتتذبذب عواطفنا ورغباتنا
يتراخ ، وتستعذب الاضطرابات ذات الطابع العنيف وسط السكون
الحادى . ونحن نرى الطبيعة السعادة خلال صور مبهمه فلما ندعونا
إلى أن نستمتع بهذه السعادة حين تكون دالية منا . وتدفعنا إلى
الندم من أجلها إذا هربت .

ومن الصعب في تلك اللحظات الحسية في تشواتها تحت مظلة من
ذلك الوجه الذي تتحد انسجاماته الرقيقة في إغراءات قلبية . من الصعب
عندئذ أن يقاوم المرء رغبات قلبه ذات الفن العديدة ! ويلتلك يتضاءل
الحزن ويستشئ الفرح ويحجم الألم . وأية الليل هي علامة الرغبات التي
تشجعها . وبصباح الصمت أخطر من القول وهو يبلغ العيون بكل قوة

لا نهائية السموات التي تعكسها . فإذا تكلم المرء صارت الكلمة ذات قوة لا تقاوم . أليس ثمة نور في الصوت وحمرة في النظرة ؟ وكما لو كانت السماء في باطننا نحن . أو كما لو لم يكن يبدو في السماء ؟ ورغم ذلك كانت « جوليت » و « فاندونيس » ... لأنها امتلكت لنفسية نفسها على هذا النحو المألوف على لسان ذلك الذي كان يصرها أن تناديه « شارل » كأنه إذن يتكلمان في موضوع بدائي خلال مجادتهما ، بعيد كل البعد عنهما . وإذا لم يعودا يعرفان معنى أقوالهما فإنهما كانا يصغيان بالتداذل للأفكار الخفية التي كانت تغطيها تلك الأقوال . وبقيت يد الماركيتر في يد « فاندونيس » وتركها له دون أن يكون في اعتقادها أنها كانت متفصلة بذلك عليه .

وانعظنا معاً حتى يريا أحده تلك المناظر المهيبة المائية بالخليد ، وبأكوام الثلج . وبالظلال الرمادية التي تخضب أضلاع الجبال الغربية . وكانت إحدى هذه اللوحات ملأى بمتاهلات مفاجئة بين اللهب الأحمر وبعض المسات السوداء التي تزين السماء في شاعرية غابرة لا مثيل لها ، وأخيرة رائعة تبدو في وسطها الشمس كالأكفان الحميلة التي تحيط بها وهي تلتقط النفس الأخير .

في تلك اللحظة عرفت شعور « جوليت » على خدي « فاندونيس » وأحست هي بهذا الاحتكاك الخفيف . وانفضت بقوة بسببه . وأرضاها ذلك أيضاً : لأن كلامهما كان قد وصل شيئاً فشيئاً إلى إحدى هذه

الأزمات التي لا تنسى . حيث يبلغ الهدوء الخواص أمام مشهد رقيق حتى إن أقل صدمة تؤدي إلى ذرف الدموع . وإلى طفح الشقاء ، إذا كان القلب ضائعاً بين هذه الكتابات ، أو يزودها بلذات لا توصف ، إذا كان ضائعاً بين دوار الحب . وضغمت « جوليت » لا إرادياً تقريباً على يد حديقها ، وأعطى هذا الضغط الغريبي جعل العاشق متجاعاً . وانصهرت كل أفراح هذه اللحظة . وكل آمال المستقبل ، في هذا الانفعال ... انفعال البريئة أو الملامسة الأولى ، وتلك القبلة البريئة البسيطة التي تركها السيدة (« ديجليسون ») تقع على خديها . وكلما كانت الملاحظات حادثة كان الخطر أكبر وأقوى . ولسرعة حقلهما معاً لم يكن ثمة ادعاء أو تزييف . لقد كان ذلك تفاهماً بين وحين حلوتين يفصلهما القانون . ولكن يربطهما لغواء الطبيعة . وفي هذه اللحظة دخل اللواء « ديجليسون » يقول :
— لقد تغيرت الوزارة ... وشارك عملك في مجلس الوزراء الجديد .

وهكذا أمالك فرض كبيرة لتصبح صغيراً يا « فاندونيس » . ونظرت « جولي » و « شارل » كل إلى الآخر في حمرة الخجل . فكان لدى كليهما نفس الفكرة ونفس تأنيب الضمير . رباط عتيق وقوي جداً بين نصين قتلا رجلا . كما هو تماماً بين عاشقين مذهيين بسبب قبلة . وكان لابد من رد على الماركيتر .

قال شارل « فاندونيس » : لا أريد أن أغادر باريس بعد اليوم .

عناد اللواء يقول متكلفاً رقة الرجل الذي يكتشف سرّاً : « نحن نعرفه
السبب » إذ أنك لا تريد أن تتعمد عن عمك كي يعانك وارثاً لإقطاعيته »
وهربت الماركة إلى غرفتها وهي تقول عن زوجها هذه العبارة
الخفيفة : « إنه حقاً لشديد الغباء ! »

أصبح الرب

بين « رواية إيطاليا » و « شارع » النصيحة « وعلى » البولفار « الداخلي
الذي يؤدي إلى حديقة النباتات » منظور جدير بأن يسحر الفنان
أو المسافر المتعب من كثرة مباحج الإبصار : فإذا وصلت إلى بروز
تخفيف ينحني « البولفار » المنتزه الكبير « من عنده في رقة الممشى
القائم وسط الأحراش الخضراء الضامة » ويصيح مقللاً بأشجار كبيرة
مورقة : وجدت أمامك عند قدميك وادياً عميقاً تحدد فيه مصانع نصف
ريقية ، تتأثر فيها الخضرة - وتصفها مياه قاتمة من شهر (البيقر) أو من
مصانع « الحويلان » « السجاء » . وكان يرى فوق السطح المقابل بعض
آلاف من أسطح البيوت المتراصة كالزعرور في الزحام ، والتي تأوى
فقراء ضاحية « سان مارسو » وتطل « في الباشيون » مقابر العظماء «
والقبة الخزينة الأميانية الخاصة » يقال حتى جرائس « (مدرسة الطب
العسكرية ومستشفاهها) في زهو وخيلاء كمدينة بأكلها متدرجة العلو
ذات مراق (مصاطب) مرسومة بشكل غريب في طرق متعرجة .

ومن هناك تلبو السبب بين معالم الأثرين التاريخيين ، هائلة فتسحق

البيوت المشية وأعلى أشجار « الحور » العالية على الوادئ الصغير .
ويظهر إلى ناحية اليسار « المرصد » خلال النوافذ والممرات التي ينفذ
منها الضوء مكوناً خيالات متطرفة لا تفسير لها كأنه شبح أسود هزيل .
وعن بعد كان يرق المصباح الأنيق الخاص « بالأنفاليد » (مقبرة نابليون)
بين كتلة مائلة إلى الزرقة في حدائق « اللكسمبور » والأبراج الرومانية
لكنيسته « سان موليس » وكانت هذه الخطوط الهندسية ترى من
هناك مختلطة بأوراق الأشجار وبالظلال . وهي تخضع بلا توقف
لتغيرات مياه متغيرة الألوان أو الضوء أو المنظر . فعلى بعد منك توالت
الآنية الخضراء ومن حولك تتلوى أشجار متموجة وطرق ضيقة ريفية
كالتعابين . إما إلى النيمين فيمكنك أن تلمح خلال قطاع ضيق من هذا
المنظر الفريد بركة ماء طويلة يغشاء هي قناة (سان مارتن) ذات
الإطار الحجري المائل إلى الحمرة والمزين بأشجار « الزيزفون »
والذي تحف به أبنية رومانية حقيقية خاصة بشواني الوفر . وهناك في
آخر المسطح تطلت نلال (بلبل) الملية بالأشجار والحجارة بالبيوت
والطواحين ، تطلت أهدائها بما يجري في السحب .

وبرغم ذلك توجد مدينة لا تراها بين صف الأسطح التي تحف
الوادي الصغير وذلك الأفق الذي يشبه في إبهامه ذكرى الأطفال ...
مدينة ضخمة ضائعة كما لو كانت في هوة بين أطراف قسم « لايتيه »
وذروة مداخن « ليست » .. أي بين الألم والموت . وتضاعف منها أصوات

هدير أصم يشبه بهدير الخيط الذي يزجر وراء صخور عالية كما لو كان
يقول : « إني هنا » . وإذا كانت الشمس تلبى أمواج ضوئها على هذا
الوجه من أوجه باريس وتنقيه وتذيب خطوطه . وإذا كانت تضفي عليه
بعض نوافذه . وتغسل حجارتها وتشعل الصلابات الذهبية . وتجعل لون
الخوائط أبيض وتحيل الجوارح حجاب شفاف من شاش الحراصة ...
وإذا كانت الشمس تخلق شتى المتغيرات الفنية من الظلال الخيالية ، وإذا
كانت السماء صافية والأرض تصطفق ، وإذا كانت الأجرام تنطق ،
يمكنك إذن أن ترى من هناك جمال واحدة من هذه الإبداعات الفنية
البليلة المعبرة التي لا يستطيع الخيال أن يتساها إطلاقاً ، والتي ستجعلك
متعباً محوياً بها كأنها أحد مشاظر « نابول » أو « أسطبول » أو « فلوريانا »
الرائعة ، إذ لا ينقص هذه المعزوفة أي ضرب من ضروب الانسجام .
فهناك تهمس ضوضاء الناس وهدوء العزلة الشاعرى وصوت ملايين
الكائنات وصوت الله . هناك ترقد عاصمة نائمة تحت أشجار السرو
الماكنة في مداخن « بيرلاشير » .

في صباح أحد أيام الربيع . وفي لحظة كانت الشمس تسبح فيها
بريقاً على شكل جمالات المنظر . وقفت أنأمتها مستنداً إلى شجرة
ضخمة من أشجار « اللوز » التي تسلم إلى الرياح زهورها الصفراء ،
ثم فكرت بمראה أمام مرأى هذه التروات . وهذه اللوحات الجميلة ،
بشأن الأزدهاء الذي نهديه نحو بلادنا اليوم حتى نخلل صفحات كتبنا .

ولعلنا هؤلاء الأثرياء المساكين الذين أصابهم انحراف خيال بلادنا ..
فرنسا الجميلة ، فيذهبون لشراء حتى مهانة وطنهم بسعر الذهب حين
يرودون خطفاً أو عدواً . مواقع إيطاليا التي غدت عمادية إلى حد بعيد ،
وحين يفحصونها من خلال نظاراتهم .

وقامت باريس الحديثة بحب ، وذهبت في أحلام إلى آلة موتى
قجاة صوت قبة ، فأزعج وحده . ودفع بقلبي إلى الطرب ، وفي
المشي المقابل الذي يتوج المتحدر السريع الذي تهذر المياه عند
أسفله ، وعند النظر إلى ما وراء جسر «جويلان» .. اكتشفت امرأة
بلدت في كأنها لا تزال شابة ، وفي هدام بسيط من أعلى لون في الأناقة .
وكانما كان عينا وجهها الرقيق يعكس السعادة المرححة التي تتخلل
المنظر .

وأزول شاب وسيم إلى الأرض طفلاً صغيراً من أجل ما يمكن رؤيته
من الأطفال . بحيث لم أتمكن أستطيع أن أعرف ما إذا كانت القبة
قد دوت فوق حدة الأم أم فوق حدة الطفل . وكانت تلعب في عيني الشاب
وحركاته وإتسامه وإتسامه الشابة فكرة واحدة بعينها ، ناعمة جارة .
وتشابت أذرعهما في لحظة مريحة ، متزايدة . وكانا يقتربان أحدهما من
الأخر بفنهم رائع في الحركة . بحيث انشلا بنفسهما ، ولم يلحظا
وجودي إطلاقاً . ولكن طفلاً آخر بدا غامضاً ظاهراً الاستياء ، وأدار لهم
ظهره بحيث أتى نظراته نحوي وجابها انطباعات تعبير أخاذ . وقد ترك

هذا الطفل أخاه يخبر بمفرده . فأحياناً يتخلف وأحياناً يسبق والده
والشاب .. وبدأ هذا الطفل في ملبسه كالأخ في رقة بالغة . ولكن
الأشكال كانت أكثر طلاوة .. وكان صامتاً ساكناً وفي وضع التعال
المخدر . لقد كانت هذه فتاة . وكان ثمة ما يشبه آلية الأفعال الغريبة
في نزهة السيدة الجميلة ورفيقها . وقد سعدنا من أجل اللهو بأن
جاءا أرباع المكان البسيط الذي كان موجوداً بين الحس الصغير وبين
عربة واقفة عند منعطف الطريق . وكانهما يبدآن من جديد دوماً
أعوام حياتهما . فيتوقفان ويتأمل أحدهما الآخر ضاحكين تحت
تأثير نزوات الحديث الذي كان يتبدل مرة بعد مرة . فيصير مليئاً
بالحياة أو سقيماً أو مجنوناً أو وقوراً .

واختفيت وراء شجرة «الدردار» الغليظة أقرب لي إعجاب ذلك
المشهد اللذيذ . وكنت جديراً بالاشك بأن أشعر باحترام نحو الأسرار
ما لم أتمكن قد رأيت من وجه البنت الصغيرة الحاملة الصامتة آثار فكر
أعمق كثيراً مما يخبر في سلوك تلك السن . وعندما استدارت أمها
والشاب . بعد أن أصبحا بالقرب منها . أخذت تميل غالباً برأسها
في مداراة . وقدقتهما كما قدقت أخاها بنظرة مهزبة شاذة حقة .
ولكن ما كان ثمة . . . يستطيع أن يعبر عن الرقة التفاد ، والسذاجة
الحبيثة . والانتباه الشرير ، الذي كان يتبصر في ذلك الوجه الطفولي
حتى العينين الغاملتين بدائرة زرقاء حين تربت السيدة الجميلة أو رفيقها

على خصالات الولد الصغير الشقراء . وحين تصطفان يرفق على رقبتيه الطرية . أو على الحزمة البيضاء التي كان يلصقها . وهو يحاول في ذلك الوقت بصبيانية الطفولة أن يمشي بجوارهما . لاشك أنه كان ثمة عاطفة رجل على هيئة الوجه الخزيل الذي كانت تمنع به تلك الفتاة الصغيرة الغريبة . لقد كانت تعالي أو تنكسر .

والواقع من ذا يتنبأ بتأكيد أكبر عن موت هذه المخاوف المزهرة ؟
أعن المرض الكامن في الجسد ينجم ذلك ، أم عن الفكر المبكر الذي يلتهم أرواحهم التي لم تكد تنبت ؟ من المحتمل أن تكون الأم على إلمام بتلك . أما أنا فلا أعرف الآن شيئاً أبشع من فكرة شيخ مسن مطبوعة فوق جبهة طفل . ولعل التعديف يكون أقل وحشية أيضاً على شفهي عذراء . ولعل كل شيء . . الموقف الذي يكاد يكون مليئاً بالحق لتلك الفتاة المفكرة في تلك السن وندرة حركاتها . كل شيء كان يهمني فيها فأخذت أتأملها بغرابة . وجعلت بشيء من الخيال المنطرف الطبيعي عند الملاحظ . عادة أقارن بينها وبين أخبها مع تعمد أن أواجه العلاقات والاختلافات التي كانت توجد بينهما . فالأولى كانت ذات شعر أسمر وعيون سوداء وقوة سابقة على الألوان مما كان ينشئ تعارضاً غنياً مع شعر الرأس الأشقر والعيون الخضراء بلون البحر والضعف المدلل لدى الأصغر وكانت سن الكبرى بين السابعة والثامنة في حين أن الآخر يكاد يكون في السادسة . وكانا يلبان على نحو واحد ، ورغم ذلك لاحظت - وعندما

نظرت إليهما بإمعان . فوق حوامل قمعنا هما اختلافاً طفيفاً . ولكنه كشف لي فيما بعد رواية طويلة في الماضي . وبأساة درامية عامة للمستقبل . وقد كان ذلك قليلاً جداً .

كانت تطر زحمة الفتاة الصغيرة السمراء حاشية ثوب بسيطة في حين دافقت تزيين حزمة الابن الأصغر تطريزات جميلة تفضح سرّاً قليلاً وهو التفصيل المصغر الذي يقرؤه الأطفال في أرواح أمهاتهم كما لو كان عقل الله فيهم . وكان الابن الأشقر لامبالياً مرحاً وأشبه ما يكون بيئت صغيرة إذ كانت بشرة البيضاء ذات نضارة . كما كانت حركاته ذات دلالة . وهيئة وجهه ذات رقة . في حين كانت الكبرى أشبه ما تكون بعلام مقيم ورغم قوتها وجمال ملامحها ويريق لونها وجهها . وبدت عيناها الحادتان الخجذتان من ذلك البخار الرطب الذي يهب نظرات الأطفال قسراً من الجاذبية كما لو كانا عيني واحد من حاشية الملوكة . جففتهما لارياطنة .

وفي النهاية كان لبياضها بعض الفروق الدقيقة في عدم التألق مع الميل إلى اللون الزيتوني . وهو عرض من أعراض الطابع الشخصي القوي الحازم . وجاء آخرها الأصغر مرة بعد مرة يقدم إليها في دلال مؤثر . وفي نظره جميلة . ويسحنة معبرة . كانت تأسر قنانياً وكشارلية . (١٧٩٢ - ١٨٥٥) توفي الصيد الصغير الذي كان ينضج فيه بعض لحظات . ولكنها في كل مرة لم تكن تحببه إلا بنظرة متوحشة على

عبارته : « خذى يا (هيلين) . . هل تريدني ؟ » ينطقها بصوت حنون . وكانت البنت الصغيرة قائمة ومزعجة في ساحتها اللامبالية في المظهر ، فلا تثبت أن ترتعد ويحمر وجهها بقوة ملحوظة . عندما كان أخوها يقرب . ولكن لم يكن الطفل الأصغر يبدو كمن أدرك المزاج السوداء الذي تميزت به أخته . وعدم اهتمامها المزوج بالمصلحة . فأجهز بذلك على معارضة طابع العنصرية الحقيقي بعلم الإنسان الدال على الاهتمام . والذي كان مسجلاً من قبل على وجه البنت الصغيرة بحيث دفعها إلى الغوص بتسوية القائمة .

صاح الصغير وقد اتهم فرصة جلوس أمه والشاب صامتة على حجر « جوبلان » لكي يشتكى : « ماما . . هيلين ! لا تريد أن تلعب . . » - « دعها يا شارل » . أنت تعرف أنها دائماً متلهمة .

واستطاعت هذه الأقوال التي نطقها الأم بالمصادفة . واستدارت بعدها فجأة نحو الرجل الشاب . أن تتزعج من « هيلين » دموعها ، فابتلعتها في سكون ، وقلقت أعينها بإحدى نظراتها العميقة التي بدت في غير مفهوم . ثم تأملت أولاً بكاءه شديداً المنحدر من فوق أعلى قمة حيث كان واقفاً ثم نحو ظهر « اليسر » والمظهر ونحوي أنا . وتخشيت أن يلمحني الثنائي السعيد الذي لا شك أنني كنت أعكر صفو الحديث بينهما فانسحبت بهدوء . وذهبت آوى خلف صنف من « البيلسان » الذي أخطى فروعها المشجرة تماماً عن كل الشجرات .

وجلس في اطمئنان عند رأس المنحدر قاضياً في ضمت ، ومرة بعد أخرى ، إما إلى مفاتيح المربع المتغيرة . وإما إلى البنت الصغيرة المقترنة التي كان لا يزال في إمكان أن ألحظها من خلال الفجوات الموجودة بين صنف « البيلسان » وبين فاعله حيث استند رأسي في مستوى « البولفار » تقريباً .

وحينما لم تعد « هيلين » الراني ظهر عليها القلق . وظلت تبحث عني بعينها السوداء على بعد المسمى خلف الأشجار بقصول غير محدد . ماذا صرت إذن بالنسبة إليها ؟ وفي تلك اللحظة حدث صحنكات « شارل » البرينة في السكون كغناء عصفور . ذلك أن الشاب الوسيم الأشقر مثله بجلة يراقص بين ذراعيه وقبله وهو يسبحو عليه بالكلمات الصغيرة غير المسلسلة والحائدة عن معناها الحقيقي مما توجهه إلى الأطفال في ود . وابتسمت الأم لهذه الألعاب ، وأخذت تقول من وقت لآخر وبصوت منخفض بلا شك أقوالاً صادرة من القلب ، لأن رفيقها كان يتوقف بسعادة تامة وينظر إليه بعين رقاء مليئة بالقصود والخيال . وامتزج صوتهما بصوت الطفل في حنان غريب . وكان ثلاثتهم في غاية الروعة .

وأشاع هذا المشهد الجميل وسط ذلك المنظر الرائع في كل ما حوله علوية لا يمكن تصورها ، امرأة جميلة بيضاء ضاحكة ، وطفل حبيب ، ورجل خلل شاب وسيم ضافية . بل كل اتصالات الطبيعة كانت متوافقة لكي تبعث المتعة في الروح . ووجدت نفسي أبسم كما لو كانت تلك السعادة ملكي .

وسمع الشاب الجميل الساعة تدق الساعة - وبعد أن قبل رقيقته
بحنان أجهت وكانت تصبح حزينة ، وغاد هو نحو «عربة مظلة»
كانت تتقدم ببطء ويقودها خادم عجوز - واختلطت بقبعة الطفل
العزیز بآخر قبلاات أعطاه الشاب إياها - ثم لم يكذب هذا الشاب بصعد
إلى عربته ، وتصفى المرأة الساكنة إلى صوتها تتحرك متباعدة الأثر الباقي
فوق التراب الضبابي في الممشى المحض على «البوغاز» حتى جرى
«شارل» نحو أخته بالقرب من الحسر - وسمعته يقول لها في صوت أشبه
برنين القضة : «لماذا إذن لم تحضري لتودعي صديق الطيب ؟»

وقدفت «هيلين» أختها حين رآته فوق منحني المنحدر بأقصى
نظرة على الإطلاق تظهر بريقها في عيني طفل ، ودفعته بحركة غضب
وانزلت «شارل» فوق السطح السريع - وصادف جذورا ألقت به بقسوة
فوق الحجارة الخادة التي نبت منها الحائط - وتكسرت جبهته فوقها ،
ثم راح بهوى وهو معطى بالدماء في مياه النهر الملبئة بالطمي ، وتناثرت
المسحة في ألوان انجاس مائي غامق اللون تحت رأسه الجميل الأشقر ،
وسمعت صراخ الطفل المسكين الخاد - ولكن لم تلبث أن اختفت نغماته
مختوفة في الرجل حيث اختفى هو نفسه محدثا صوتا ثقبلا كصوت حجر
غائر ، ولم يكن البرق أسرع مما كانت تلك السقطة .

وفجأة نهضت وهبطت بطريق ضيق ، وصرخت «هيلين» مأخوذة
صرخات نفاد : «ماما ! ماما !» وكانت الأم موجودة بالقرب مني ،

فطارت كعصفور ، ولكن لم تستطع حبنا الأم أو عيناى أن تعرف
على المكان المحدد الذي دفن فيه الطفل - وكانت الفقايع تصاعد
فوق الماء الأسود في مساحة واسعة ، وفي هذا المكان يوجد في مجرى
نهر «البيفر» عشر أقدام من الطمي - ولا بد أن الطفل قد أتى حتمه
إذ كانت نجده مستجيلة - وفي تلك الساعة من يوم الأحد كان كل شيء
ساكنا ، ولم يكن في نهر «البيفر» قريب أو صياد - ولم أر أى قضية
أنجس بها مدى عمق الماء الأسن أو أى شخص على البعد .

لماذا إذن تكلمت عن هذه الحادثة المشهورة ، أو قلت سر هذه
المصيبة ؟ لعل «هيلين» انتقدت لأبيها - وكانت غيرها بلاشك سيف
الله - وبرغم ذلك فقد ارتفعت وأنا أتأمل الأم - أى استجاب عفيف
سوف تلتقيه من زوجها .. قاضيا الأبدى ؟ وقد جرت معها شاهدة
لا يرشئ - فالطولة جبين شفاف ولون وجه ينفذ منه الضوء ، والكذب
عند الطفولة أشبه ما يكون بالضوء الذي يدفع به إلى الانحدار من
نظرة - ولم تكن المرأة الشقية تذكر بعد في العذاب الذي يتطوّر بها البيت
فقد كانت تنظر إلى نهر «البيفر» وكان على مثل تلك الحادثة أن
تؤدي إلى أصداء خفيفة في حياة امرأة وهذا واحد من أكثر أصدائها بشاعة
مما كان يزجج غراميات «جولييت» من وقت لآخر .

بعد سنتين أو ثلاث من ذلك التاريخ وفي إحدى الليالي عقب
العشاء في بيت الماركيز «ديغاندينيس» الذي كان حينذاك في حداد

على والده ويصعد مبرات يتطلب التنظيم . وكان يوجد أحد محرري العقود . ولم يكن محرر العقود . هذا نفس الرجل القصير ، دبستون ، بل كان سمياً شخصاً من باريس . وكان أحد الرجال الأجلاء الذين لا يحبون إلا يندرس . ويضعون قدمهم بصعوبة فوق أى سبب مجهول من أسباب الحزن أو الغم . ويسألون لماذا الشكوى . وإذا علموا بالمصادفة سبب عبتهم القائل يقولون : « يا إلهي لم أكن أعرف شيئاً » . على أى حال كان محرر العقود سيقاً لا يرى في الحياة سوى العقود .

وكانت السيدة « ديجليسون » على مقربة من الديبالماسي . وكان اللواء قد انصرف من هناك أدباً قبل نهاية العشاء ، لكي يصحب طفليها إلى عرض تمثلي على المنصة الكبير « البولغار » في مسرح « الأميجي كوميك » أو مسرح « لاجيتيه » . ورغم أن الروايات المؤثرة تبيع المشاعر فإنها تجري في باريس لكي تكون في تناول الطفولة وبدون خطر . لأن البراعة تنصرف دائماً فيها . ولم ينتظر الوالد تناول الحلو بعد الأكل . ورجل تحت إلحاح ابنته وابنه المقلق من أجل الوصول إلى العرض قبل رفع الستار .

ولم يستطع محرر العقود . ذلك الرجل الرزين . أن يستفسر لماذا أرسلت السيدة « ديجليسون » أولادها وزوجها إلى العرض دون أن تضعهم إلى هناك . . . فبقى منذ العشاء كما لو كان قد ربط إلى مسبار لوائي فوق مقعده . وجعلت المناقشة وقت الحلو تمتد طويلاً بحيث

تواقي الحشم عن تقديم القهوة . وهذه الأحداث التي كانت تأتهم الوقت الثمن بلاشك أمكنها أن تسترخ حركات فراع الصبر من المرأة الجميلة ، فكانت في المستطاع مقارنتها بأحد الخيول الأحيلة حين يكذف ويضرب الأرض بعوافره قبل السباق . ولم يكن محرر العقود يعرف طريقه في ميدان الخيول أو في ميدان النساء ، فاكشفت بطيئة قاب في شخصية الماركييزة امرأة نشيطة قوية .

وقد انتشي بالتالي من وجوده في رفقة امرأة على أحدث الطرز ورجل من أشهر رجال السياسة فأخذ محرر العقود هذا يتخلف ويروي النكت . وفهم ابتسامة الماركييزة الزائفة على أنها رضى وتأييد ورغم أنه كان يستنفذ منهاها إلى حد كبير ويتباطأ تباطؤاً كبيراً . وأذن سيد البيت ملقاً بالانفاق مع رفيقه بأن يلزمنا نصمت مرات عديدة حينما انتظر محرر العقود رداً من ردود انشاء والمديح . ولكن حتى أثناء هذه الفترات كان ذلك الرجل الخبيث ينظر إلى الموقف كمن يفتش عن فكاهات وتكت . وبعد ذلك بلغ الديبالماسي إلى ساعته . وأخيراً كانت السيدة الجميلة قد أعادت وضع قبعتها على رأسها تأهباً لتغروج دون أن تخرج . ولم يكن محرر العقود يرى أو يسمع . بل كان معجباً بنفسه إعجاباً شديداً ومتأكداً من أنه يتمتع الماركييزة إلى حد يقوفاها كأنها مقيدة بمسبار هناك . فمما في نفسه : سوف تكون هذه المرأة بالتأكيد زبونة لي . وقامت الماركييزة واقفة . وليست فقازات اليد . ثم راحت تدور

في أصابعها . وجعلت تنظر بالتبادل إلى الماركيز ، ديفاند بنيس ،
الذي كان يقاسمها تمام عبرها أو إلى محرر العقود الذي كان يحكم
تكتيف كل واحد عن طريق اللطائف والنكت الفكاهية الخاصة به .
وعند كل فترة مسكون يقف عندها ذلك الرجل ، اعترافاً . كان كلاهما
يتنفس الصعداء ، وكأنما يقول أحدهما للآخر بالإشارة : « سوف
يرحل إذن أخيراً ! » ولكن عبثاً .

لقد كان أشبه ما يكون بالكايوس القيسي الذي ينتهي بعد إفارة
الشخصين الممثلين متخفاً وعاطفة اللذين كان محرر العقود يؤثر عليهما
حركة بحركة وثامة بامة كما يتعلل التعبان بالطائر بحيث يضطرهما
إلى شيء من التعجل ، وفي وسط الحكاية تماماً التي كان محرر العقود
الطريف ذلك يرويها عن الرسائل الحسنة التي كان يتبعها ، دينيه ،
رجل الأعمال الذي كان ذا حظوة خلال تلك الفترة في تكوين ثروته
متبعاً فضائحه في تفصيلاتها الدقيقة ، مسيح الدبلوماسية الساعة الكبيرة
تدق الساعة : ولحظ أن محرر عقود كان مستغيماً بالتأكيده بحيث لزم
ببساطة بامة صرفة ، فأوقفه بإحدى حركاته بإصرار .

فقال محرر العقود وهو يقدم (الماشة) إلى زبونته : لعلك تريد
(الماشة) يا سيدي الماركيز ؟

— لا يا سيدي : إني مضطر إلى أن أصرفك ، فالسيدة تريد
الالحاق بأولادها ، وسيشرفني أن أرافقها .

قال محرر العقود الذي كان قد انفرد بالكلام منذ ساعة : سرعان
ما ضارت الساعة التاسعة ! إن الوقت ينقضي كالظل في صحبة الناس
الظرفاء .

وبحث عن قبضته ، ثم جاء يزرع نفسه أمام المدفأة وهو يقاوم
بصعوبة صدور إحدى قوافله ، وقال لزبونه دون أن يرى النظرات
الشيبة بالصواعق التي كان ينفذها نحو الماركيز :

— فلنختصر الكلام يا سيدي الماركيز فالأعمال تأتي أولاً .
وسوف نبحث غداً إذن إلى السيد أخيك بإعلام قضائي بحيث يكون
مكلفاً رسمياً ، ثم نتقدم إلى الجرد وبعد ذلك فيما أرى .

قد فهم محرر العقود نيات زبونته فهماً سيئاً بحيث أخذ المسألة في
الإنعاده العكسي للتعلمات التي أنقأها إليه هذا الأخير منذ قليل . وكانت
هذه الحادثة من الحسامية بحيث لم يشأ « ديفاند بنيس » تعديل أفكار
محرر العقود ذلك ، ثقيل القل والفهم معاً ، بطريقة لا إرادية ، فاندفع
الرجل في مناقشة استغرقت وقتاً طويلاً .

قال الدبلوماسي في النهاية بإشارة من السيدة الشابة : اسمعني
إليك تشدح رأسي - غداً في الساعة التاسعة مع وكيل في الدعوى .
ولكنني سأتشرف بأن أدعوكم يا سيدي الماركيز إلى ملاحظة
أننا لسنا متأكدين من مقابلة السيد « ديروش » غداً ، وإذا لم يكن
التكليف الرسمي قد أرسل قبل الظهر فإن المهلة تنقضي و . . .

في هذه اللحظة دخلت عربة إلى القناء . واستدارت المرأة المسكينة بقوة لكي تحمي الدموع التي ملأت عينيها على أثر الرحلة التي أحدثتها . ودق الماركيتر الجرس لكي يبلغ عن عدم وجوده بالمنزل . ولكن الماواء كان قد عاد فجأة من مسرح . لاجئيه . فسبق الخادم وظهر ممسكاً ابنته بإحدى يديه وقد احمرت عيناها . وممسكاً باليد الأخرى ابنة الصغير الذي كان عابس الوجه غاضباً .

سألت المرأة زوجها : ماذا حدث لكم إذن ؟

أجاب الماواء وهو يتجه نحو مخدع مجاور كان باباه مفتوحاً فللمح فيه بعض الضحك : سأخبرك بذلك فيما بعد . وألقت الماركيتر بنفسها في يأس فوق إحدى الإرائك نافذة الصبر .

ورأى محرر العقود أنه مضطر إلى أن يكون لطيفاً مع الأطفال . فالتفت صوفاً طريفاً في كلامه وهو يقول للولد : حبه يا صغيري . ماذا يعرض مسرح (لاجئيه) ؟

أجاب جوستاف : في تلير : « وادي السيل » .

قال محرر العقود : أين عقيدة الرجال الشرفاء ... لقد أصبح مؤلفوا اليوم أنصاف مجائين . (وادي السيل) . وماذا لا يكون (سيل الوادي) فمن الخائز أن يكون الوادي بلا سيل . وعندما يقولون (سيل الوادي) ؟ يكونون قد أبلغوا شيئاً واضحاً محددًا ذا طابع وذا مفهوم . ولكن فلندع

ذلك . الآن . كيف يمكن العثور على الدراما في السيل وفي الوادي ؟ سوف نجيب أن الممثل الرئيسي اليوم في أمثال هذه الأنواع من العرض يمكن في (الميكور) . وهذا العنوان وحده يبين ذلك بطريقة مثلى . فهل استمتعتم يا صغيري الماكر ؟ قال الرجل ذلك وهو يجلس أمام الطفل .

عندما سأل محرر العقود أي مأساة يمكن العثور عليها في قاع السيل استدارت ابنة الماركيتر . ببطء وبكت . واحتفظت الأم بشدة كبيرة حتى لم تلاحظ حركة ابنتها .

أجاب الطفل : أوه ! نعم ياسيدي . لقد استمتعت تماماً ... لقد كان في القنبلة طفل صغير لطيف وحيد في العالم لأن أبيه لم يستطع أن يكون والده . وعندما يبلغ مرتقى الجسر فوق السيل يجي رجل كبير قبيح ذو لحية في ملابس سوداء ويقذف به إلى الماء . وعندما جعلت « هيلين » تبكي وتشفق شوقاً غالياً حتى إن كل من في القاعة حصرخ في وجهها . وعلى ذلك قادنا والدنا بسرعة إلى الخارج . وبسرعة خرجنا ...

وبقي السيد « ديفاندلينيس » والماركيتر معاً مذهولين . وكان سوفاً مسهماً وجردهما من قوة الفكر والعمل .

صاح الماواء : جوستاف .. امسكت إذن ... لقد منعتك من الكلام عما قد حدث في أثناء العرض وما أنت ذا تنسى كل تعليماتي .

قال محرر العقود : فلتغفر له جنابكم بامسدي الماركيز . . . لقد
أخطأت بسؤاله ولكنني لم أكن أعرف خطورة . . .

قال الأب وهو ينظر إلى ابته ببرود : لقد كان عليه ألا يجيب . . .
وبدا سبب عودة الأولاد وعودة والدهم المفاجئة واضحاً جداً لدى
الدبلوماسي والماركيز . ونظرت الأم إلى ابنتها ورأتها تسكي . فتهافت
لذهب نحوها . ولكن فجأة تقطعت وجهها بشدة وأظهر علامات سورة
لم يكن يخفيها شيء .

قالت لها : كفى يا « هيلين » هيا اذهبي جنني دموعك في
المخدع .

قال محرر العقود الذي أراد أن يهدي كلاماً من غضب الأم ونحيب
البت : ماذا فعلت إذن هذه الصغيرة المسكينة ؟ إنها لمن الجمال بحيث
لا بد أن تكون أعقل مخلوقة في العالم . ولأنني أوافق ياسيدي أنها لا تمنحك
سوى السرور والثناء . أليس كذلك يا صغيرتي ؟

ونظرت « هيلين » إلى أمها وهي ترتعد . ومسحت دموعها . وحاولت
أن تجعل وجهها ذا تعبير هادئ ثم هربت إلى المخدع .

قال محرر العقود وهو يواصل باستمرار كلامه : . . . ومن المؤكد
يا سيدتي أنك أم طيبة جداً حتى لتحبين كل أولادك بالتساوي .
وأنت على أي حال من الفضيلة بحيث لا يمكن أن يكون عندك تفضيلات
تعيه تتكشف آثارها المشوثة أمامنا نحن محرري العقود . فالجميع يمر بنا

فترى فيه أيضاً الميول والرغبات في صورتها البشعة . وأعني بها المصلحة .
فها هنا امرأة تريد حرمان أولاد زوجها من الميراث لصالح الأولاد
الذين تفضلهم . في حين يريد الزوج أحياناً من جهة أن يحجز ثروته
للأبن الذي حاز كراهية الأم . وعند ذلك تهب المنازعات والخلافات
والحجج والافتقادات المضادة للعقود والبيع الشكلي والودائع . ثم في
النهاية بعثرات مخزنة . . . وشرفي . . . مخزنة ! فهناك من الآباء من يقضي
حياته كلها في عمليات حرمان وراثة لأبنائهم مع سرقة أموالك وزوجاتهم
نعم . . . سرقة . . . هذه هي النقطة الصعبة . نحن نتكلم عن الأماسة .
آه ! أؤكد لكم أننا لو استطعنا أن ننظر إلى الأسرار الخاصة ببعض
المتح لأمكن مؤلفينا أن يكتبوا عنها فواجع مأساوية « بورجوازية » .
ولا أدري بأي قدرة تستعين النساء كي يحفظن ما بشأن . لأنه ورغم
كل المظاهر التي تدل على ضعفهن فإنهن يميز دائماً بذلك . آه !
مثلاً لهن لا يعزرن بي أنا . إذ أنني أحن دائماً سبب حب التفضيل
ذلك الذي يصفونه في المجتمع أدباً بأنه لا يقبل التعريف ! غير أن
الأزواج لا يحدسونه أبداً . وهذه عدالة يجب أن ترد لهم . قد تميميني
على ذلك بأنه توجد نعم وأفضال . . .

عادت « هيلين » مع والدها من المخدع إلى (الصالون) وأصغت
بانتهاء إلى كلام محرر العقود . وأدركته جيداً حتى إنها ألقت نظرة
تخوف نحو أمها وهي تستشعر بغريزة سنّها المبكرة أن هذا الظرف سوف

يضاعف من شراسة تأنيها . واضمحل وحده الماركيزة وهي تلوح للكونت في حركة قزح نحو زوجها الذي كان يتأمل زهور السجاجيد في تفكير عميق . وفي هذه اللحظة لم يعد الديبلوماسي - برغم كل خبرته بالحياة - يتألم نفسه . وقدف محرر العقود بنظرة شبيهة بالصاعقة . وقال له وهو ينحدر بقوة نحو الغرفة السابقة على (الصالون) : « تعال من هنا يا سيدي ! » وتبعه محرر العقود إلى هناك وهو يرتجف دون أن يكمل عبارته .

قال له الماركيز « ديفاندليس » في غضب متركز . وهو يقفل بقوة باب (الصالون) حيث ترك الزوجة والزوج : « سيدي منذ العشاء لم يصدر عنك إلا سخافات . ولم تفه إلا سخافات . بالله عليك انصرف من هنا . فإنك ستؤدي في النهاية إلى أكبر النكبات . إذا كنت محملاً للمعقود فابق في مكتبك : أما إذا وجدت نفسك بالمصادفة وسط الناس في المجتمع فحاول أن تكون أكثر حذراً . . . »

ثم عاد إلى (الصالون) بعد أن فارق محرر العقود دون أن يحسبه . وبقي محرر العقود بعض لحظة مذهولاً تماماً ومشلولاً دون أن يدري شيئاً من أمره . وعندما كشف الطفلين الذي كان يلقى بأذنيه تخيل أنه سمع عويلاً وحركة خطوات تروح وتجيء في (الصالون) : حيث أخذت الأجراس ترن بقوة . فأحس بالخوف من رؤية الماركيز مرة أخرى : واستعاد قوته على استخدام ساقيه حتى يقف ويبلغ السلم . ولكن عند أبواب الردهات كان يصطدم بالخدم الذين أسرعوا لتأني أوامر سيدهم .

قال لنفسه في النهاية عندما أصبح في الشارع يبحث عن عربة : « هاك حال كل هؤلاء الأسياد الكبار . . . لهم يلزمونك بالكلام ، ويدعونك إلى الاستمرار فيه بكل ما يظنونك به . فتظن أنك تسرهم ، وإذا الأمر ليس كذلك بالذلة ! فيعندون عليك بوقاحة . وينعديونك ثم يلقون بك إلى الباب دون أي حرج . لقد كنت لطيفاً جداً معهم ولم أقل شيئاً دون أن يكون معقولاً متزنأً ملائماً . ثم لا هم يوصونني بزيادة الحذر برغم أنه لا يتقصي . هيه ! يا الشيطان ! إنني محرر عقود وعضو الغرفة . آه ! إنها لتروية سفير . فلا شيء مقدس عند هؤلاء الناس . وغداً سيشرح لي كيف لم أعمل عنده إلا سخافات . وسأسأله الأسباب . أي أنني سأسأله عن سبب ذلك . وفي الحملة قد أكون غافلاً . والله لقد كنت طيباً في تكسير زأمني بالحكايات ! ولكن ماذا أجدي ذلك لي ؟ »

وعاد محرر العقود إلى بيته ووضع لغيره بين يديه زوجته وهو يروي لها كل أحداث السهرة نقطة بنقطة .

— عزيزي « كرونات » إن صاحب السعادة على حق تماماً . وهو يخبرك أنك لم تفعل إلا سخافات ولم تفعل إلا سخافات .

— لماذا ؟

— يا عزيزي سأقولك لك ، ولكن على ألا يمنعك ذلك من أن تبدأ من جديد . في مكان آخر غداً . وكل ما أوصيك به أيضاً هو

ألا تتكلم إطلاقاً إلا في الأعمال حين تكون في مجتمع .

— إذا لم تريد أن تخبرني أنت به فسوف أسأل عنه غداً ..

— يا إلهي ! إن أتفه الناس يتدارسون كيفية إخفاء هذه الأشياء ،

وأنت تعتقد أن سفيراً سيخبرك به ! ولكن يا كرونا ، إنني لم أرك

قط مجرداً من العقل على هذا النحو ...

— شكراً يا عزيزي .

اللقاءان

كان قد جاء إلى (فرساي) ضابط ياوران ثابليون ، تطلق عليه فقط اسم الماركيز أو اللواء ، وصاحب الثروة الضخمة التي كونها في عهد العبودية ، ليقتضي بعض الأيام الحميمة ، فسكن بيتاً ريفياً قائماً بين الكنيسة وسور (مونترجي) على الطريق المؤدي إلى شارع (سان كاو) ولم تكن خدمته في البلاط تسمح له بأن يبتعد عن (باريس) . وكان هذا البيت قد بنى قديماً ليكون مأوى للفتيات العابرات من أجل نزوات الحب لأحد الأشراف الكبار ، ولذلك كان هذا البيت القائم وسط بستان يضم ملحقات شاسعة ، وكانت الحدائق التي يقوم في وسطها تباعد بالنسوى إلى يمينه وإلى يساره بينه وبين أوائل منازل (مونترجي) والأكواخ المسقوفة بالطين والمبنية بالقرب من السور ، وهكذا كان أسياد البيت لا يتعزلون كثيراً فيه ، كما أنهم كانوا يستمتعون على بعد خطوتين من المدينة بكل لذائذ العزلة . ومن نقائصه القريبة أن واجهة وباب مدخل البيت كانا يطلان مباشرة على الطريق الذي يحتمل أنه كان في الماضي قليل العمار . ويبدو هذا الافتراض

صحيحاً إذا فكرنا أن هذا البيت يقود إلى البيت الجميل الوثيق الطراز الذي بناه «لويس الخامس» من أجل الآفة «دي رومان» . وقبل أن نصل إليه كان القصوريون يتعرفون هنا وهناك على أكثر من مائة (كازينو) يكشف كل ما بداخله و (ديكور) زينته عن الجحش والحلاعة اللطيفة عند أسلافنا الذين كانوا يبهجون على الرغم من المشقة الذي اتهموا به . عن بعض الظلال والعموض .

وفي إحدى ليالي الشتاء وجد الماركيز وزوجته وأولاده أنفسهم بمفردهم داخل هذا البيت المعزول . وكان الخدم قد حصلوا على الإذن بالذهاب إلى (فرماني) لحضور احتفال عرس واحد منهم . وطمعوا أن احتفالات النيجيل في عيد الميلاد قد اقترنت بهذا الظرف . فذهبهم ذلك عتراً معقولا لدى أسيادهم . ولم يكن يخافهم أي قلق عندما استبدوا وقتاً أطول قليلاً للاحتفال مما كانت قد أنعمت عليهم به الأحكام البيتية . وبرغم ذلك فإن اللواء كان معروفاً كرجل لا يقصر إطلاقاً في إخبار كلته في نزاهة لا تقي . ولذلك لم يعد العاصون للأوامر البيتية برقصون دون بعض وجر الضمير عندما انقضى الموعد المحدد لعودتهم .

ودقت الساعة الحادية عشرة منذ قليل . ولم يكن واحد من الخدم قد عاد وكان الضمت العتيق الذي يسيطر على الرقيب يسمح بسمع صفيح النسمة العائرة خلال أغصان الشجر السوداء من حين لآخر . وهي تهدر حول البيت . أو وهي تغوص بين الممرات . وكان الصقيع قد نفي

الهواء تماماً وجمد الأرض واغترى ملاط الشوارع بحيث صار لكل شيء ذلك الزفير الخاف الذي تباغتنا دائماً قهراً . وكانت خطوات سير أحد السكاري المتأخرين الثقيلة . أو ضوضاء مركبة عائدة إلى (باريس) تحدث ذوياً أقوى من المعتاد . وتسمع على مسافة أبعد من المعتاد . وكانت أوراق الشجر المتناثرة تقوم راقصة تحت تأثير بعض الزوابع المفاجئة . فترعش وتذبذب فوق حجارة القمامة بشكل يمتح الليل حمواً كلما أراد أن يكون كالأنكم .

لقد كانت - في النهاية - إحدى تلك الليالي المرسية التي تنتزع من ألبتنا شكوى جدياء لصالح الفقيم أو المسافر . ونحيل ركن المدفأة إلى ركن شهواني جدياً . في هذه اللحظة لم تكن الأسرة المجمعة في «الصالون» تعلق في شيء لعياب الخدم . أو للقدم الذين لا مأوى لهم أو للأشعار التي تتلألأ بها سهرة الشتاء . وبدون فلسفة خارجة عن القصد وثقة في الرجل العسكري القديم . امتسلم الأولاد والنساء للنمى التي ولدتها الحياة الداخلية طالما لم نجد الإحساسات أي مخرج في الأمر . وطالما كانت العاطفة والصراحة تعمران الكلام والنظرات والألعاب .

وكان اللواء جالماً أو على الأصح مدفوناً في كرمي واسع يرساة عالٍ ومسيح في ركن يقرب المدفأة . حيث كانت النار المتابعة تلمع وتنتشر حرارة لاذعة كعلامة على وجود زهورير خارج البيت . وكان هذا الأب الهمام مستنداً إلى ظهر الكرسي في وضع مائل ميلاً

خفيفاً في حين بقي رأسه في وضع يصور قراحه هادواً كاملاً وانشراحاً
حلولاً من المذمة . وأتم ذلك التعبير عن فكرة السعادة ذراعاه المخدبتين
نصف تخدير والملقأتين مفتور خارج الكرسي . وجعل يتأمل أصغر
أطفاله .. ولد يكاد يبلغ سن الخامسة .. نصف عار . ويرفض أن يدع
أمه تخلع ملابسه . وأخذ الطفل يهرب من القميص أو من غطاء الرأس
الليلي الذي اعتادت الماركيزة أحياناً أن تهدده به .. واحتفظ بحملته
المطرزة . وضحك لأمه عندما أخذت تناديه . وهي تدرك أنها هي
نفسها تضحك من هذا القرد الطفيل . وجعل يلعب حينذاك أخته
التي كانت في مثل سن حاجته . ولكن أكثر خيلاً . وتكلم سلفاً بتميز
أكبر منه . إذ أنه كان منهم الأقوال مختلط الأفكار بحيث يفهمه أبواه
بصعوبة شديدة .

« وموبنا » الصغيرة كانت تكبره بسنتين . وتير بدلاها الأثني
المبكر ضحكاً لا ينهي . يصدر مثل الطلقات . ويبدو غير متعلق
بسببه . ولكن كانت تكفي رؤيتهما معاً يتدحرجان أمام النار .
ويكشطان بلا خجل جسميهما . الجميلين الممثلين بشكليهما الأبيضين
الرقيقين . عامدين خلط خصلات شعر رأسيهما الأسود بالأسقر متضاربين
بوجهيهما الورديين حيث كانت الفرحة قد خططت فترات بسيطة .
لكي يفهم الأب وبخاصة الأم بالتأكيد هذه الأرواح الصغيرة التي
كانت بالنسبة إليهم محددة الطباع وعاطفية سلفاً . وكان هذان الملاكجان

من شدة ألوان عيونهما المبللة وحدودهما المتألقة وبشرتهما البيضاء يظهران
ألوان زهور السجاجيد اللينة الناعمة بمظهر الياخته الضعيفة حيث قام
مخرج طوهما الذي كانا يسقطان عليه وينقلبان ويتعسرعان ويتدحرجان
فوقه بلا خطر .

وكانت الأم جالسة فوق تحت الجلوس شخصيتين في الركن الآخر
بحوار المدفأة وجهاً لوجه أمام زوجيهما . وقد تجمعتم حولها الملابس المتناثرة
وظلت وهي ممسكة بخلاء أحمر في يدها في موقف مليء بالتعاضى .
وماتت قسوتها المترددة في إهتسامة عذبة تنفرت فوق شفيتها . وكانت
في قرابة سن الثلاثين لا تزال تحتفظ بحمال مريحه إلى الكمال النادر
في خطوط وجهها الذي أعارته الحرارة والضوء والسعادة في تلك اللحظة
يريقاً فوق الطبيعي . وغالباً ما كانت تتوقف عن النظر إلى أولادها
كما تعود بعينها كأنما تربت بهما فوق وجه زوجها الوقور . وعندما
كانت عينا الزوجين متلاقين أحياناً كانا تنبادلان متعاً صامتة وأفكاراً
عميقة . وكان للنواء وجه أسمر سمرة قوية . وكانت جبهة العريضة
الصافية مخططة ببعض خصلات الشعر التي وخطها الشيب . وأخذت
ومضات الحزم في عينيها الزرقاوين . وأخذت البادية في تجاعيد خديه
الذائبتين . تكشف عن أنه قد زال الشريط الأخضر الذي كان يزين
عروة ملابسه بعد أن يدل من أجله أعمالاً شاقة .

وعندئذ كانت المتع البريئة التي عبر عنها والماء تعكس على هيئة

وجههم الجمال الذي تخللته بساطة صادقة بسلامة ذية . لقد عاد هذا الضابط القديم طفلاً من جديد دون عناء كبير . أليس يتوافق للضباط دائماً قليل من الحب للطفولة بعد أن جربوا ثقافات الحياة بما فيه الكفاية وعرفوا بؤس القوة وامتيازات الضعف ؟

وعن بعد كان يجلس صبي صغير في سن الثالثة عشرة يقلب صفحات كتاب كبير في سرعة أمام متفردة مستديرة تضيق مصابيح على هيئة نجوم . فكانما تنافس أنوارها التوبة ذلك الوجه المصغر الصادر عن الشروع الموضوعة فوق المدفأة . ولم تكن صرخات أخيه وأخته تذهيه إطلاقاً . كما كان وجهه يفتى فصول الصغار . وكان يسوع هذه المشغولية العميقة روائع كتاب ألف ليلة وليلة المحبة وبخلة . اليسيه أو المدرسة . وبقي بلا حراك في وضع متأمل يستند كوعاً إلى المتفردة . ويستند رأسه بيده الأخرى ، بحيث كانت أصابعه البيضاء تشطر وسط شعر رأسه الأسود . وكان الضرب يسقط عمودياً على وجهه . وظل ياتي جسمه في الظلام . فكان يشبه وهو على ذلك النحر اللوحات السوداء التي كان رافائيل يمثل نفسه فيها متيناً مائلاً مفكراً في المستقبل .

وبين هذه المتفردة والمركيزة كانت فتاة شابة طويلة تعمل وهي جالسة أمام نول سجاد تمل فوقه رأسها تارة وتارة تباعده على التعاقب ، قصارت شعورها الخالكة السوداء النساء في تفنن تعكس الضوء . وكانت

هيمن وحدها في حده ذاتها مشهداً من المشاهد ، وتميز جمالها بطابع نادر للقوة والأناقة . ويرغم أن شعر رأسها رفع بطريقة تبرز الملامح الباهرة حول الرأس كان كثيفاً إلى حد أنه كان يستعصى على أسنان المشط ويشرح في التجدد الشديد ابتداء من الرقبة . وكان حاجبها الكتان المنسقات الأطراف يشطران بياض جبهتها النقية . وكان لديها على شقها العليا بعض علامات الشجاعة التي تثل ثلوتياً خفيفاً كالضدأ تحت أنف يوناني ذي استدارة في كمال لطيف . أما الأشكال الدائرة الآسرة ، والتعبير البريء الواضح في الملامح الأخرى ، وثقافية لون يشرتها الرقيق الناعم ، وطراوة الشفاه الشبهوانية . وحدود الشكل البيضى التي يرسمه الوجه . وبخاضة تلك القداسة في نظرتها العذراء . كل ذلك كان بطبع على هذا الجمال الصارم عذوبة الأنوثة مع التواضع الفتان الذي تتطلبه في ملائكة السلام والحب هذه . باستثناء أنه لم يكن ثمة شيء ضعيف في هذه الفتاة الشابة . ومن المؤكد أن قلبها أيضاً كان رقيقاً . وأن روحها كانت تمتاز بقوة معادلة لنسبها التي كانت رائعة . وتشكلها الذي كان ساحراً جذاباً . وكانت تقلد أخاها طالب اليسيه في صمته ، وتبدو فريسة واحدة من تأملات البنت الشابة المحترمة التي يتعذر التقاط إليها غالباً مهما تكن دقة ملاحظة الأب أو دراسة الأمهات . حتى إنه كان من المستحيل أن تعرف ما إذا كانت الظلال الحوائية المدللة التي كانت تعبر وجهها مثل السحب الضعيفة

في سماء صافية مرجعها إلى تلاعب الضوء أم إلى آلام خفية .

وكان الزوج والزوجة قد شغلا تماماً في تلك اللحظة عن الولدين الكبيرين . ورغم ذلك أحاطت نظرة الهواء - المستفسرة غالباً - بالمشهد الأصم الذي كان يقدم في المرتبة الثانية تحقيقاً لطيفاً للأمال المكتوبة في هذا الشعب الطفولي الظاهر في مقدمة هذه الصور المنزلية : إذ أننا إذا حاولنا تفسير الحياة الإنسانية بدرجات الأشياء العادية الشعور كانت هذه النماذج تؤلف نوعاً من القصيدة الحية . فترق القطع الملحقة التي تزين « الصالون » وتنوع أوضاعها وتقاربها المعززة إلى اختلاف ألوان الملابس الشديد . والتعارض بين الوجوه من حيث طابع أعمالها المختلفة ومن حيث استدارتها التي تبرزها الأضواء . كانت تشيع فوق هذه الصفحات الإنسانية كل التروات المطبوعة في السحت ولدى المصورين والكتاب . وفي النهاية أعار السكون والشتاء والعزلة والليل جلالهم هذا التكوين الرفيع الساذج الأشبه بما يكون بأثر جميل من آثار الطبيعة . والحياة الزوجية ملأى بهذه الساعات المهيبة التي قد يعزى سحرها غير المحاد إلى بعض تذكارات إلهام أفضل . ولاشك في أن أشعة سحرها تنفجر على مثل هذه المشاهد التي تهدف إلى مجازاة الإنسان عن جزء كبير من أحزانه . وإلى دفعه إلى قبول الوجود ويبدو وكأن الكون هنالك أمامنا في صورة غنائية ، وكأنه يبسط أفكاره النظامية العظيمة وكأن الحياة الاجتماعية تركى وتطوى قوانينه حين نتحدث عن المستقبل .

وعلى الرغم من ذلك ، ورغم النظرة الحنون التي ألقيها هيلين ، نحو « آبل » و « مونيكا » عندما انفجرا في إحدى مباحثتهما . . . ورغم السعادة المرسومة فوق وجه « هيلين » الواضح عندما تأملت والدها خفية كانت كمة عاطفة اكتئاب عميقة مطبوعة على حركاتها وفي عزائها . وبخاصة في عينيها المحجبتين وراء أجفان طويلة . وكانت يداها . . . هاتان اليان البيضاوان القويتان اللتان كان الضوء يعر فيكسهما حمرة شفافة تكاد تكون سائلة - هاتان اليان كانتا ترتعدان .

وفي إحدى المرات فقط تصادمت عيناها وعينا الماركة دون أن تتبرع إحداها في الكلام مع الأخرى . كانت هاتان المرأتان تفهم كل منهما الأخرى بنظرة حزينة باردة مليئة بالاحترام لدى هيلين وبمنظرة قائمة منيرة لدى الأم . وخفضت « هيلين » نظرها بسرعة فوق الدول . وجابت الإبرة في رشاقة وسرعة حركة . وظلت مدة طويلة لا ترفع رأسها الذي بدا لها كأنه صار أثقل من أن يحمل . هل كانت الأم لاهية على ابنها ؟ وهل كانت تعلم هذه القسوة ضرورية ؟ هل كانت تعبر من جمال « هيلين » التي كانت لا تزال قادرة على أن تناقشها ولكن مع بسط كل تأثير أصابع الوجه (التوايت) وسحرها ؟ أو هل استطاعت الفتاة أن تحجب كإغلب البنات حين يصيحن رائدات بصبرات على بعض الأسرار التي اعتقدت هذه المرأة التي كانت في المظهر شديدة الانحلاص دينياً أنها قد دفنتها في قلبها يعني كما لو كانت قد دفنتها في قبر ؟

كانت هيلين قد بلغت السن التي تدفع فيها نقاوة الروح وصفاتها إلى تصرفات قاسية تتخطى نطاق الاعتدال المتوسط الذي يجب أن تبقى العواطف عنده . وتأخذ الأخطاء في بعض العقول نسباً تعادل نسب الحرية . ويرتد فعل الخيال عندئذ إلى الضمير . وغالباً ما تنال النباتات الشابات في العقوبة بسبب المدى الواسع الذي يعطيه للذنوب . وبدأت هيلين كأنها لا تعتقد أنها أهل لأحد . فقد كان ثمة سر سابق قديم . لعله يكون حادثه غير مفهومة في أول الأمر . ثم تطور مع حساسية ذكائها المرهف الذي خضع لتأثير الأفكار الدينية حتى استحالت منذ وقت قصير إلى شبه ذليلة روائية أو خيالية في عينها الخاصتين . وقد بدأ هذا التغير في سلوكها منذ اليوم الذي قرأت فيه بين دفتي ترجمة خديجة للمسرحيات الأجنبية مأساة « وليام تل » (جيمس تل) الحميلة التي ألفها « شيلر » فبعد أن وجدت الأم ابتها لأنها تركت الجسد يسقط منها لاحظت أن المؤلف الناتج عن هذه القراءة في روح « هيلين » نشأ عن المشهد الذي أقام الشاعر فيه نوعاً من الأخوة بين « وليام تل » الذي أسال دم أحد الرجال من أجل إنقاذ شعب يأكله وبين « جان لوبارسيد » ولم تعد « هيلين » بعد أن صارت متواضعة وزرعة متينة تنتمي الذهاب إلى الحفلات الراقصة . ولم تكن إطلاقاً على مثل هذه الملازمة الناعمة إزاء والدها . وبخاصة عندما لا تكون الماركيزة موجودة لتشهد ملاظفها كفتاة شابة .

وعلى الرغم من ذلك كان ثمة برودة في عاطفة « هيلين » نحو أمها كان يظهر على نحو رقيق . بحيث لم يكن اللواء يلحظه مهما كانت درجة غيرة على الاتحاد الذي كان يسود أسرته . ولم يكن للرجل العين النفاذة التي يستطيع أن يحس بها أغوار هذين المتلهين النسائين : فالأول شاب كريم . والآخر حساس مفرور . الأول أكثر من السجادة والثاني على يد الرقة والعشق . وإذا كانت الأم تحزن ابنها بطفيلان المرأة الحاذق فإن أحداً لم يكن يحس به سوى الضحية نفسها . على أي حال الحادثة وحدها هي التي أظهرت هذه التحسينات التي لا حل لها . ولم يكن حتى تلك الليلة قد بدر أي ضوء فاضح بين هاتين الروحيتين ولكن كان قد برز فيما بينهما وبين الله بعض السر المشعوم .

صاحت الماركيزة منبهة فرصية تعب أو مسكون : « هيا يا « أبيل » لكن « موني » بقيت هي وأخوها ساكتين . قالت الماركيزة : « هيا : هلم يا بني » يجب أن تذهب لثنام . . . ونظرت إليه نظرة آمرة ثم أخذته بقوة فوق ركبتيها .

قال اللواء : كيف هذا ؟ الساعة العاشرة والنصف ، ولم يعد إلى البيت أي واحد من الخدم ؟ آه ! هؤلاء الخنثيون .

ثم التفت نحو ابنه وقال : « جوستاف » ، لم أعطك هذا الكتاب إلا على شرط أن تغادروا الساعة العاشرة ، وكان عليك أن تغلقه بذلك امرأة في الثلاثين

أنت في الساعة المحددة . وأن تذهب إلى النوم كما وعدتني . إذا
 شئت أن تكون رجلاً ملحوظاً فلا بد أن تجعل من وعظك ديناً ثانياً ،
 وأن تتسلك به كما تتسلك بشرفك . وكان « فوكس » أحد كبار الخطباء
 في إنجلترا مشهوراً على الخصوص بحسن طبعه ، وكان الإخلاص
 نحو الالتزامات المعقودة إحدى صفاته الرئيسية . وقد أعطاه أبوه وهو
 إنجليزي من الأشراف القدماء في طفولته - درساً قاسياً حتى يطبع عقل
 الطفل الصغير بطابع أيدي . وفي مثل سنك كان « فوكس » يحضر
 في أثناء الإجازات في بيت والده الذي كان يملك - ككل الإنجليز
 الأثرياء حديقة ذات شأن حول قصره . وكان في تلك الحديقة كوخ
 قديم يتطلب هدمه وتشييده من جديد في مكان متميز ينظر رائع
 وبحب الأطفال كثيراً رؤية مشاهد الهدم . فأراد « فوكس » الصغير
 أن يحصل على بعض أيام إجازة أكثر من المعتاد . كى يشهد سقوط
 البيت الرقيق ، ولكن والده أصر أن يعود إلى المدرسة في اليوم الموعد
 في افتتاح الدراسة . ومن هنا تخاضم الوالد وابنه . وأيدت الأم مثل كل
 الأمهات « فوكس » الصغير ، ورعد الأب ابنه عندئذ في مهابة
 أنه سينتظر الإجازات القادمة كى يهدم الكوخ . فعاد « فوكس »
 إلى المدرسة ، واعتقد الأب أن صبيّاً صغيراً لا هياً في دراساته سوف
 ينسى ذلك الطريف ، فهدم الكوخ وأعاد بناءه في المكان الآخر .
 وترك عناد الصبي في التفكير في ذلك الكوخ ، وعلمنا عاد إلى

بيت والده كان أول اهتمام له هو الذهاب لرؤية المبنى القديم . ولكنه
 عاد حزوناً جداً في ساعة الغداء وقال لوالده : « لقد خدعتني » .
 فقال السبيل الإنجليزي العجوز في ارتباك مليء بالكرامة : « هذا صحيح
 يا ولدي » ولكنني سأصحح غلطتي . لا بد من التمسك بالكلمة أكثر
 من التمسك بالثروة . لأن التمسك بالكلمة يؤدي إلى الثراء . ولا تمحور
 أعظم الروايات العجيب الذي يصيب الصغير بسبب عدم الوفاء بالكلمة .
 فأعاد الأب بناء الكوخ القديم على نحو ما كان . ثم بعد أن تم بناؤه
 أمر بأن يهدم أمام ابنه . ولعل هذا « يا جوستاف » يكون لك درساً .
 وأقبل « جوستاف » الكتاب في الحال . بعد أن أصحى بانتباه
 إلى والده . وجاءت فترة صمت أخذ اللواء « مورينا » في أثناءها قسراً .
 وقد كانت تغالب النعاس ، ووضعها برقة فوقه ، وتركت الصغيرة
 رأسها غير الثابت يتحدر على صدر أبيها ، ونامت عليه تماماً في الحال
 مغطاة بخلفات شعر رأسها الجميل الذهبية . وفي تلك اللحظة دقت
 أصوات خطوات مسرعة على الطريق فوق الأرض . وفجأة دقت ثلاث
 طرقات على الباب أيقظت أصداؤها كل البيت ، وتواصلت هذه
 الطرقات في لحظة يسهل فهمها ، كما يسهل فهم صيحة رجل في خطر
 الموت ، ونبح كلب الحراسة في صوت خفيف . وارتعدت « هيلين »
 و « جوستاف » واللواء وزوجته . ارتعدوا جميعاً بقوة . ولكن « أبيل »
 الذي انتهت أمه من تمشط شعره ، و « مورينا » لم يستيقظا .

صاح الرجل العسكري وهو يضع ابنته فوق المقعد المبطن بوسادة :
إنه متلهف هذا الطارق .

وخرج مندفعاً من « الصالون » دون أن يحمي أرجاء زوجته :
يا صديقي لا تذهب ...

ومر الماركيز بغرفة نوم « والتقط من هناك مسدسين » وأخذ
مصباحاً مكموم الضوء ، وأندفع نحو السلم ، وحمط بسرعة البرق ،
فوجد نفسه بسرعة إزاء باب البيت الذي تبعه ابنه إليه بشماعة .

سأل : من هناك ؟

أجاب صوت مخفوق تقريباً في ثلثس لاهت : افتح .

— هل أنت صديق ؟

نعم صديق .

— هل أنت بمفردك ؟

— نعم ، افتح لأهم قادمون !

وانزلق رجل إلى الرواق بسرعة خيالية أشبه ما تكون بسرعة الظل
بمجرد أن فتح اللواء الباب قليلاً ، ودون أن يتمكن من مقاومة ذلك
الجهول اضطوره هذا إلى أن يتخلى عن الباب دافعاً إياه بضربة قدم عنيفة ،
واستند خلفه بعزم كمن يحول دون فتحة . وفجأة رفع اللواء مسدس والمصباح
نحو صدر هذا الغريب كي يفرض عليه الاحترام ، فزأى رجلاً متوسط
الطول يلبس معطفاً ذا بطانة من القراء ، وملابس كبار السن الواسعة

المرسلة التي لا يبدو أنها أخذت من أجله . وكان اللاجئ - سواء بدافع
اللعنة أم بالمصادفة - يغطي وجهه تماماً بقبعة تنخفض إلى مستوى عينيه .
قال الرجل للواء : سيدي ، اخفض فوهة مسدسك . لا أرى
أني سأبقي في بيتك بغير موافقتك ، ولكنني إذا خرجت فأموت ينتظرن
عند السور . وأي موت ! وسوف يسألك الله عند . أرجوك أن تستضيفني
ليلة ساعتين . فكري الأمر جيداً يا سيدي . مهما كان تضرعني فلا بد
من أن أطلب حسب ضغط الحاجة . أريد ضيافة « عربية » أي أن
أكون ذا قداسة في نظرك ، وإلا فاقف مع لي الباب كي أذهب وأموت
لا بد لي من أمانة السر والمأوى والماء ... وأعاد بصوت محشرج : أوه !
الماء !

سأل اللواء وهو مأخوذ بهذا الاشتهاء المحسوم الذي كان يتحدث به
الجهول : من أنت ؟

أجاب الرجل في طعنة جهنمية ساخرة : آه ! من أنا ؟ هيه افصح
لي إذن . سوف أروي من هنا

وبرغم مهارة الماركيز في المرور بأشعة مصباحه لم يستطع أن
يرى سوى أسفل هذا الوجه . ولم يكن به شيء يركي هذه الضيافة
المطلوبة على نحو فريد من نوعه . فقد كان الثكان يرتعدان . وكان
أولهما شاحباً ، كما كانت الملامح مقطوعة ببشاعة ، وكانت عيناه
لوسمان في الظل الذي تسقطه حافة القبعة مثل وهجين يضعف أمامهما

هذه الشدة الخافت . ورغم ذلك كان لا يد من إجابته .

قال اللواء : سيدي ، إن لغتك غريبة جداً . وفي مكاني ...

صاح الغريب في رنة صوت مخيفة ، وهو يقطع مضيقه :
إنك تتصرف في حياتي .

قال الماركيز : ساعتان ؟

أعاد الرجل : ساعتان .

وفجأة رد فبحته إلى الوراء في حركة بأس . وكشف عن جبهته .
وأرسل نظرة ذات وضوح قوي تغتصم إلى روح اللواء كما لو كان
يريد أن يقوم بمحاولة أخيرة . وأشبعت هذه الرغبة من الذكاء والإرادة
ومضية برق . وكانت ساحقة مثل الصاعقة . إذ توجد لحظات يكون
الرجال فيها مزودين بقوة غير قابلة للتفسير .

قال رب البيت بتجههم وقد اعتقد أنه أطلع واحدة من تلك الحركات
الغريزية التي لا يستطيع الإنسان دائماً أن يفهمها . هلم . مهنا
تكن فتكون في أمان تحت سقف بيتي .

استطرد المجهول وقد أفلت منه تهديع : فليكافئك الله على ذلك .

سأله اللواء : هل معك سلاح ؟

ولإجابة عن ذلك أعطى الغريب اللواء وقتاً لا يكاد يكفي لإلقاء
نظرة على معقله وملفحه ثم أعاد عليه بخفق . ولم يكن معه سلاح ظاهر
وكان يلبس بدلة شاب غائد من حفل راقص . ومهما كان مقدار

سرعة الفحص الذي قام به الرجل العسكري المشكك فقد كان ما رآه
كافياً لأن يصبح : يحق الشيطان أين استطعت أن تذهب في هذا
البرد القارس لتقطع نفسك بالطين ؟

— إجابته في تعبير متعال : وأسئلة ثانية !

وفي هذه اللحظة رمق الماركيز ابنه . وتذكر الدرس الذي لقنه
إياه منذ قليل عن التخليد الصارم للوعد المأخوذ . فأحسن بكثرة قوى
في هذا الظرف ، بحيث قال له في نغمة غضب :

— كيف يا أيها الصغير العجيب : تكون هنا بدلاً من أن تكون
في سريرك ؟

أجاب : جوستاف : لأنتي اعتقدت أنني أستطيع أن أفعل
في الخطر .

أجاب الوالد بشكل أرق تحت تأثير رد ابنه عليه : ها . اصعد
إلى غرفتك .

وقال وهو يواجه المجهول : وأنت ابعني .

وضارا ضامتين كلاعبين يحاذر أحدهما الآخر . وبدأ اللواء يحس
مشاعر مشنومة . وصار المجهول يحتم سلفاً فوق قلبه مثل الكابوس .
ولكنه قاده وقد سيطر عليه التسليم بالعهد خلال الدهاليز وسلام البيت
إلى أن أدخله في حجرة كبيرة في الطابق الثاني فوق الصالون على وجه
الحديد . وكانت هذه الحجرة غير المأهولة تستخدم كمستشفى للملايين

شتاء : ولم تكن تحصل إلى أى مكان فى السكر : ولم يكن بها من الديكور فوق حوائطها الأربعة سوى مرآة قطرة مهيورة فوق المدفأة منذ وجود صاحب البيت القديم : ومرآة كبيرة لم تكن مستخدمة فى أثناء نقل متاع الماركيز : فوضعت فى واجهة المدفأة مؤقتاً : ولم تكن أرضية تلك الغرفة الموجودة تحت السطح مباشرة قد نظفت عن طريق الكس إطلافاً : كما كان الهواء فيها بارداً كالثلج : ففصلنا عن كرسيين قديمين نزع عنهما القش وهما كل اثاث الغرفة .

وبعد أن وضع اللواء مصباحه فوق مسند المدفأة قال للمجهول :
استلزم أمانك أن تكون هذه الغرفة تحت سطح البيت ملجأك .
ولما كنت قد وعدتك بحفظ السر فتعدي بأن تحفظ بايها مقتبلاً عليك .

وختفى الرجل رآته كعلامة على الموافقة : وأضاف : لم أطلب سوى الملاذ والسمر والماء .

أجاب الماركيز الذى أغلق الباب بعناية وحبطة متحسناً طريقته إلى الضالون : كى يبحث عن مصباح ليحضر بنفسه دورق ماء من المطبخ : سوف أحضره إليك .

سألت الماركيز زوجها بقوة : هيه ! يا سيدى ماذا هناك ؟

أجاب بصغير بارد : لا شئ يا عزيزتى .

ولكننا استمعنا برغم ذلك : فقد سمعت شخصاً ما إلى أعلى البيت

قال اللواء وهو ينظر إلى ابنته وقد رفعت رأسها نحوه : هيلين افهمي أن شرف أبيتك متوقف على كتابك للسمر : ويتبغى ألا تكونى قد سمعت شيئاً .

وأجاب الفتاة بحركة رأس معبرة : وبقيت الماركيزة مخرومة من كل شئ : ودعيلة فى قلبها من الطريقة التى اتبعها زوجها كى يفرض عليها الكتمان : وذهب اللواء بأخذ دورق ماء وكوباً وصعد إلى الغرفة التى كان فيها السجين : فوجدته واقفاً مستنداً إلى الحائط بالقرب من المدفأة ورأسه عار : فقد ألقي بقبضته فوق أحد الكرسيين : ولم يتوقع الضرب بلا شك أن يبقى عليه النور بقوة : فقد تغضن جبينه : وحمل وجهه قليلاً عندما التقى عيناه بعيني اللواء الناقدتين : ولكنه خمار رقيق الحاشية وأخذ هيئة لطيفة وهو يشكر حاميه : وعندما وضع هذا الأخير الكوب والدورق فوق مسند المدفأة قطع المجهول الضمت : بعد أن قدفه أيضاً بنظرة مشتعلة : قال بصوت رقيق لم تعد فيه أى تقلصات حلقية كما كان من قبل : ولكنه كان لا يزال يفصح عن ارتعاد داخلى : سيدي سوف أبدو لك غريباً : ولكن اغفر هذه النزوات الزمنية الضرورية : إذا بقيت هنا فإني أرجوك ألا تنظر إلى عندما أشرب : فاستدار اللواء فجأة متذكراً من أن يطعم دائماً رجلاً يستحقه : وانزع الخرب من جيبه مندبلاً أبيض لفيه حول يده اليمنى : ثم أمسك الدورق وشرب ماحواه من الماء دفعة واحدة : ويفير أن يفكر الماركيز

في أن ينكت عهده الضمى نظر آلياً في المرأة . وعندئذ سمح لناظر
المرأتين لأن يحيطا بجهول بنظره تماماً ، ورأى المتدليل يحسر فجأة بتلامس
يديه المتثلثتين دماً .

صاح الرجل عندما انتهى من الشرب ولبس المعطف وفحص
اللواء بنظرات شك : آه ! لقد رأيته . . . لقد ضعت إليهم قادمون .
ها هم أولاء .

قال الماركيز : أنا لا أسمع شيئاً .

— أنت لا يملك شيء بقدر ما يهمني للاستماع في الفضاء .

لقد تشاجرت إذن في ميازة حتى تصبح مغطى بالدم على هذا النحو ؟
قال اللواء هذا وهو منطلق إلى سجد ما عند مشاهدته بوضوح أن

اليقع الكبيرة التي بلبت ملابس خيفة .

نعم . ميازة كما تقول .

وجعل الغريب يردد هذا وقد ترك ابتسامة مريرة تجول بشفتيه .

في هذه اللحظة دوت صوت خيول علميلة تعدو في أقصى سرعتها
عن بعد : لكن هذه الضوضاء كانت خفيفة كأول أضواء الصباح .
وتعرفت آذان اللواء ذات المران الطويل على خطوات خيول مدبرة
في نظام السوارى ، وقال : إليهم عساكر « البوليس » .

والتي على سجيته نظرة تنزع نحو تنفيذ الشكوك التي ساورتها بسبب
كتمانها غير الإرادي ، وحمل المصباح وعاد إلى « الصالون » .

ولم يكلمه بفتح مفتاح العرفة العالية فوق المدفأة حتى زادت الضوضاء
التي أحدثها الفرسان وأخذت تقترب من البيت الربيعي بسرعة جعلت
يداه يتشعر . وفجأة توقفت الخيول أمام باب البيت : وهبط أحد
الفرسان من فوق حصانه . وأخذ يتبادل بعض العبارات مع زملائه ، ثم دق
الباب بشدة ، وأجبر اللواء على الذهاب لفتح الباب . ولم يتالك اللواء
انفعاله الخبيء أمام مرأى ستة جنود من جنود الدرك ذوي القبعات المطرزة
بالفضة اللامعة تحت ضوء القمر .

قال له أحد الأوباشية : يا سيادة الشريف : ألم تسمع منذ قليل

رجلاً يعدو نحو السور ؟

نحو السور ؟ لا . . .

— ألم تفتح بابك لأحد ؟

— وهل لي العادة في أن أفتح أنا بنفسى الباب ؟ . . .

— ولكن مع الاعتذار يا سيدي اللواء في هذه اللحظة يبدو لي

أن . . .

صاح الماركيز بلهجة الغضب : آه ! يا للأمر ! هل تحاول أن

تداعبني ؟ هل لك الحق . . .

عاد الأوباشي يقول بركة : لا . . . لا . . . يا سيادة الشريف .

لا شك أنك تغفر اجتهادنا في البحث . نحن نعرف جيداً أن أحد الأمراء

الفرنسيين لمن يعرض نفسه لاستقبال قاتل في هذه الساعة من الليل ؟

غير أن رغبتنا في الحصول على بعض المعلومات ..

صاح اللواء : قاتل ! ومن كان إذن ...

قال العسكري : السيد البارون دى موى قتل منذ لحظة بضربة فأس ، غير أن القاتل قد أصبح تحت خطواته تحت متابعة دقيقة . ونحن متأكدون من أنه في هذه الأماكن القريبة . وسوف نمسك به . اغفر لنا يا سيدى اللواء .

قال العسكري ذلك وهو يقفز فوق قوسه حتى إنه لم يتمكن لحسن الحظ أن يشهد وجه اللواء . وقد اعتاد الأوباشي أن يفرض كل شيء وإعلمه كان يستطيع أن يلمح الشكوك في مرمى هذا الوجه المكشوف حيث كانت تموج بإخلاص شديد كل حركات الروح .

سأل اللواء : هل تعرف اسم القاتل ؟

أجاب القارس : لا . لقد غادر المكتب ملوفاً بالذهب وبالأوراق المالية دون أن يشسها .

قال الماركيز : إنه أخذ بالنار .

— هوه ! من رجل عجوز ؟ ... لا ... لا ... لم يتمكن ذلك

الضيف من أن يقوم بتمهته .

ولحق الشرطي برفاقه الذين كانوا يعدون على مهلة . وبقي اللواء

لحظة فريسة حيرة من السهل فهمها . وسرعان ما سماع صوت خادمة

الذين كانوا عائدتين وهم يتناقشون في حرارة مما يجعل أصواتهم تدوي عند قاصية (مونترني) .

وعندما وصلوا صبا غضبته التي كان لابد لها من مسوغ لكي تظهر بهذه الحدة عليهم مثل وقع الصاعقة . وأرعد صوته مواقع الأصدا بالبيت ، ثم خفض صوته فجأة عندما اعتذر أكثرهم جرأة ومهارة . وهو بخادمه الخاص . عن تأخيرهم بإبلاغه أن الشرطة ورجال البوليس قد استوفقوه عند مدخل (مونترني) للتحقيق بشأن قاتل . وفجأة صمت اللواء . ثم تذكر بهذه الكلبة وضعه القريب . فأمر هؤلاء الخدم جميعاً بلهجة جافة أن يذهبوا ليناموا في الحال . وهم مستغربون لسهولة تضديقه أكذوبة الخادم .

ولكن عندما كانت هذه الأحداث تمر بالفناء وقعت حادثة حقيقية إلى حد ما من حيث المظهر بدلت من موقف الشخصيات الأخرى المنشلة في هذه القصة . فلم يكذ الماركيز بخروج حتى قالت زوجته بعد أن ألقت نظرات متبادلة بين مفتاح غرفة تحت السطح وبين « هيلين » — قالت بصوت منخفض وهي تحمل نحو ابنها : « هيلين ! لقد ترك والدك المفتاح فوق المدفأة .

فذهلت الفتاة الشابة : ورفعت رأسها . ونظرت في حامل نحو أمها التي كانت عيناها محتدتين فضولا .

أجاب بصوت مضطرب : هيه يا ماما ؟

إنني أريد أن أعرف ما يدور في أعلى البيت ... إذا كان
ثمة شخص فلا شك أنه لم يبق بعد . اذهبي إذن إلى هناك ...
قالت الفتاة بشيء من التزعزع : أنا ؟
هل تخافين ؟

لا يا سيدتي ، ولكنني أعتمد أنني تبينت خطوات رجل .
قالت الأم بتغصنة الاحترام البارد : لو كنت أستطيع أن أذهب
بنفسي لأرجوئك أن تصعدى يا هيلين ، إذا عاد والدك ولم يحدث في
الاحتمال أن يبحث عني ، في حين أنه لن يلفت إلى غيابك .
أجابته هيلين : عيادتى ؟ إذا كنت ترصينى بذلك فسأقوم به ،
ولكننى سأفقد تقدير والدى ...

قالت الماركيزة بالهجة ساخرة : كيف ؟ ولكن ما حدث لأخذين
وأخذ الجسد ما لم يكن سوى دعاية ، فالآن أمرك بأن تذهبي لترى
ما يجري في الطابق الأعلى . هناك المفتاح يا بنى ! إذا كان والدك قد
أوصاك بالتزام الصمت فيما يتعلق بما يدور الآن بيته فإنه لم يحرم
عليك أن تصعدى إلى تلك الغرفة . هيا اذهبي واعرفى أنه لا ينبغي
إطلاقاً أن تكون الأم موضع سوء ظن من ابنها ...

وبعد أن نطقت الماركيزة هذه الأقوال الأخيرة بقسوة الأم المهانة
إهانة كاملة ، أخذت المفتاح وأودعته يده هيلين ، التي هبت دون أن
تنطق بكلمة وغادرت « الصالون » .

« أفى تعرف دائماً كيف تحصل على عقوه ، ولكننى سأفقد مكانى
لديه ، فهل تريد أن تخوننى من الحنان الذى يحفظه لى . وأن تطردنى
من البيت ؟ » أخذت هذه الأفكار تختمر في خيالها فجأة أثناء سيرها
بغير قصد على طول الرواق الذى كان باب الغرفة الممرية في نهايته .
وعندما وصلت عندها كان اضطراب أفكارها ذا طابع مخوم ، وأدى
هذا النوع من التأمل المضطرب إلى طفق آلاف المشاعر التى كانت
حتى ذلك الوقت كامنة في قلبها . ولعلها لم تعد تتوقع سلفاً مستقبلاً
سعيداً ، فصارت الآن في هذه اللحظة الرهيبة مكشوفة اليأس من الحياة .
وارتعدت بنشيج وهي تدنو بالمفتاح من القفل . وصار انفعالها من
القوة بحيث وقفت لحظة لتضع يدها على قلبها كأنها تستطيع بذلك أن
تهبى من خربانته العميقة الرنانة .

وفي النهاية فتحت الباب . وعينها بلغ صرير المفتاح في القفل آذان
القاتل ، إذ برغم أن سمعه كان درهماً بعداً بين ملتحظاً بالحائط قريباً
بلاحرارك كما لو كان ضامناً مع أفكاره . واستطاعت دائرة الضوء التى
أسقطها المصباح أن تثير بعض الشيء . فكان يشبه في منطلقة الوسط
بين الضوء والظلمة تلك التماثيل المعنمة الخاصة بالأشراف القدماء الواقفة
دائماً عند زاوية بعض المقابر السوداء في الكنائس القوطية الصغيرة .
وكانت بعض قطرات من العرق البارد تحطط بجنبته العريضة الصفراء .
وكانت تلمع فوق هذا الوجه الشديد التعقيل جرأة لا يتصورها العقل ،

وكانت عيناك محتملتين ثابتتين جافتين تبدوان كأنه يتأمل صراعاً في قلب الظلام المائل أمامه . وممرت فوق وجهه أفكار عاصفة بسرعة . وكان تعبير وجهه الثابت المحدد يشير إلى روح عالية . أما بدنه ووضعته والأبعاد المتمثلة فيه فكانت ملاءمة لعبقريته غير الأدبية . إذ كان هذا الرجل قوة محضة . وقادرة محضة . وكان يواجه الظلمات كصورة مرئية مستقبلة .

ولما كان اللواء قد اعتاد رؤية الماذج النشيطة من العمالقة التي كانت تتعجل الخطو حول « نابليون » وكان مشغول الذهن آنفد ببعض الفضول الأدبي . فإنه لم يعط صفات هذا الرجل الشاذ الجسمية القريضة أي النباه . ولكن حين خضعت « هيلين » ككل النساء للانطباعات الخارجية أخذت بهذا الخليط من الضوء والظل وعن العظمة والنعاطفة وبهذا العباء الشعري الذي أظهر الرجل المجهول في مظهر « ليسيمير » أو الشيطان حين هب من مقعته .

وفجأة هبطت السحرة المرسومة على وجهه كما لو كان ذلك يفعل السحر . وانتشرت السيطرة غير المحددة التي كان ذلك الغريب على غير علمه مبدأها ونهيجتها في آن معاً في كل ما حوله بسرعة تقدم الطوفان . وصدر مبل من الأفكار عن سمته عندما عادت ملامحه تأخذ أشكالها الطبيعية .

وكأنما أسرت الفتاة ، سواء بغرابة هذه المواجهة أم بالسحر الذي نفذت

إليه . فأمكنها عندئذ أن تعجب بهيبة وجهه رقيقة مليئة بالحير . وبقيت بعض الوقت في صمت ساحر . وقريبة لاضطرابات لم تعهد لها روحها الشابة حتى ذلك الوقت . ولكن سرعان ما حدث أن « هيلين » إما أن تكون قد أصدرت صديحة استغراب وقامت بحركة ، أو أن يكون القائل . وقد عاد من دنيا المثال إلى دنيا الواقع قد سمع صوت تنفس غير تنفسه فالتفت برأسه نحو بنت مضيقه ولفح بغير وضوح وجهها الخليل . والأشكال المهيبة . لمخلوقة كان يمكن أن يحسبها ملاكاً بمجرد رؤيتها ساكنة ومهيبة مثل (الرؤية العلوية) .

قالت في صوت خافت : « سيدى » .

وارتعد القائل .

صاح برقة : امرأة ؟ هل هذا ممكن . ابتعدى

وعاد يقول : أنا لا أعطي أحداً الحق في أن أشكو إليه وأن يحكم لي أو علي . يجب أن أعيش وحيداً . اذهبي يا عفتى . ثم أضاف بحركة من حركات العظماء : سوف أكون عائناً للخدمة التي أؤديها إلى رب هذا البيت إذا تركت شخصاً واحداً من الأشخاص الذين يسكنون هنا يشاركني في تنفس نفس الهواء . لا بد أن أخضع نفسي لقوانين الطبيعة .

نطق بهذه العبارة الأخيرة في صوت منخفض . وبعد أن انتهى بحلمه العميق من الإلمام بالشقاء الذي توحي به هذه المفكرة الحزينة

ألقى نظرة ثعبان نحو هيلين ، وأهاج في خاطر هذه الشابة الفريدة .
 عالماً من الأفكار التي كانت لا تزال نائمة لديها ، لقد كان ذلك شيئاً
 بالضمير الذي أثار لها آفاقاً كانت لا تزال مجهولة ، وغلبت روحها وقهرت
 دون أن تجد القوة للدفاع عن نفسها ضد هذه القوة المغناطيسية في تلك
 النظرة ، على الرغم من أنه لم يلقها عن عمد ، وخرجت في حجل وارتداد
 وعادت إلى الصالون ، قبل عودة والدها بلحظة حتى إنها لم تذكر نملك
 أن تقول شيئاً لوالدها .

وأخذ اللواء يتمشى مشغولاً بهذوه ، وذراعاه متشابكتان ذاهباً آيماً
 في خطوات موحدة الهيمية بين التوافقة المطلقة على الشارع والتوافق المطلقة على
 البستان . وكانت زوجته تحفظ « بأبيل » وهو قائم . ونامت ، موبناً ،
 غير مبالية فوق المقعد المبطّن كعضفور في عشه . وأمسكت الآنث
 الكبرى بكرة من الحريز في إحدى يديها وبياض في اليد الأخرى وأخذت
 تتأمل النار . ولم يكن يقطع العنق السائد في الصالون ،
 وفي الخارج وفي بقية أنحاء البيت سوى خطوات الخدم الراحقة ، وهم
 في طريقهم إلى النوم ، واحداً بعد الآخر وكذلك بعض ضحكائهم
 المكتومة كصدي أخير لمرحهم وللاحتفال بالزواج ثم أيضاً أبواب
 غرفهم ، كلاً بمفرده ، عندما كانوا يفتحونها أو يغلونها ، وهم لا يزالون
 يتبادلون الحديث . كذلك كانت تتصاعد بعض الخلية الصماء من
 الأسرة . وسقط كرسي ، ودوى سعال مائق عربية يتصاعد ثم خبا الصوت .

ولكن لم تلبث الظلمة الرهيبة التي فاضت على العليقة الناعسة في
 منتصف الليل أن سيطرت على كل شيء وظلت النجوم وحدها تتألق
 وأمسك اليد بالأرض ، ولم يكن أحد يتكلم أو يتحرك ، النار فقط كانت
 تحس حسيباً مستمراً كأنما تريد أن تكشف مدى عمق العنق .
 ودقت ساعة (مونتريني) الواحدة .

في هذه اللحظة سوى صوت خطوات خفيفة جداً دويماً ضعيفاً في
 الطابق الأعلى ، وكان الماركيز وابسته متأكدتين من إغلاق باب قاتل
 السيد ، حتى موفى ، فعزوا هذه الحركة إلى إحدى النساء ، ولم يستغربا
 سماع صوت فتح الأبواب الخاصة بالفرقة السابقة على (الصالون)
 ولجأة ظهر القاتل وسطهم . وساحت له الدهشة الكبيرة التي غرق
 فيها الماركيز وفصول الأم الشديد واستغرب الالجنة بأن يتقدم حتى كاد
 يصبح في وسط (الصالون) ، وأن يقول للواء في صوت منغم حادى
 فريد : سيادة الشريف ، ستنهى الساعتان عما قليل .

صاح اللواء أنت هنا ؟ . . . بأي قدرة ؟

وبنظرة مشرعة سأل الرجل العسكري زوجته وأولاده ، وصارت
 « هيلين » في حمرة النار . وعاد يقول بنقمة نقادة : أنت ؟ أنت في
 وسطنا هنا ؟ قاتل مغطى بالدم هنا ؟ إنك توسخ المنظر ! وأضاف
 بلهجة حائقة : اخرج ! اخرج !

أمام لفظة قاتل أصدرت الماركيزة صرخة . أما « هيلين » فقد بدت

هذه اللقطة كما لو كانت تفرز كل شيء في حياتها . فلم يفصح وجهها عن أقل استغراب . إذ بدت كما لو كانت قد انتظرت هذا الرجل . وكان لأفكارها الممتدة إلى ذلك الحد معنى . فقد أشرفت العقوبة التي احتفظت لها بها الماء على ما اقترفته من أخطاء . وما كانت تعتقد أنها هي الأخيرة صاحبة جرعة على نحو ما كان ذلك الرجل . فقد نظرت إليه الفتاة بعين بشوش . لقد كانت رفيقته وأختها . وفي نظرها تكشف وصية من وصايا الله في هذا الظرف . وكان العقل قادراً على أن يبرز هذه الوعرات بعد ذلك بسنوات . أما في تلك اللحظة فقد جعلها مقدمة الإحساس .

بني الغريب بارداً بلا حراك . وعات ملامحه وشميد الحماراوين الكبيرتين ابتسامة استخفاف .

— إنك تجازيني مجازاة سيئة على ثبل إجرائي حيالك .

قال ببطء : لم أشأ أن ألمس يدي الكوب الذي أعطيتني فيه الماء من غلة عطيتي . بل لم أفكر في أن أغسل يدي الملتصقتين بالدم تحت سقف بيتك . وأخرج منه دون أن أدع فيه من جريمتي (الضغطة شفتاه عند النطق بهذه اللفظة) سوى الفكرة عندما أحاول العبور هنا دون أن أتذكر آثاراً . وأخيراً لم أسمع لابتك قط أن ...

صاح اللوام وهو ينظر إلى « هيلين » نظرة رعب : ابنتي ! آه ! يا مصيبتك ! اخرج وإلا قتلتك .

— لم تنقض الساعتان بعد . ولن نستطيع أن نقتلني أو أن نسلمني دون أن تفقد تقديرك الخاص . وكذلك تقديري .

وقد ذهل الرجل العسكري لسماع هذه الكلمة الأخيرة . فحاول أن يتغرم في صاحب الجريمة . ولكنه اضطر إلى خفض نظراته . لأنه أحس بأنه غير قادر على أن يقاوم طريق نظراته الذي لا يحتمل . والذي استطاع للمرة الثانية أن يشيع الاضطراب في روحه . وحتى أن تضعف قواه أيضاً عندما يعترف بأن إرادته قد وهنت سلفاً .

— تقبل شيئاً مستأناً ! لم يكن لديك إذن أسرة أبداً ؟

قال ذلك وهو يشير بحركة أبوية نحو زوجته وأولاده .

وأعاد العجول قوله الذي تعطب بسببه جبينه تعظيماً خفيفاً : نعم .

شيخ مسن .

صاح اللوام دون أن يجرق على النظر إلى ضيقه : اهرب ...

لقد نقض العهد بيتاً . ولن أقتلك . لا ! فلن أجعل من نفسي إطلاقاً مديراً للتومين المقصلة . ولكن اخرج . إنك تفرعنا .

أجاب صاحب الجريمة باستعفاء : أنا أعرف ذلك . لا يوجد مكان في فرنسا أستطيع أن أضبع فيه قدمي في أمان . ولكن لو عرفت العدالة مثل الله الحكيم على الخصوصيات ... أو تنازلت بأن نحقق من الوحش ؟ أهو القاتل أم الضحية ؟ ... لبقيت باعتزاز واختيار بين الرجال . ألا تخمنون أن الرجل المقتول بالفأس منه قليل كان هو نفسه

ذا جرائم ماثلة ؟ لقد جعلت من نفسى الحكم والملاذ معاً ، وخلت
على العدالة الإنسانية العاجزة المشردة . هالك جرمي ، وداعاً ياسيدى
وذرغم كل المرأة التى جعلتها تشوب خيافتك سأحتفظ بذكراها ،
وسبقى فى روجى مشاعر اعتراف إزاء رجل فى العالم . وهذا الرجل هو
أنت .. ولكنكم وددت أن تكون أكرم من ذلك .
واتجه نحو الباب . وفى هذه اللحظة مالت الفتاة على أمها وقالت
لها كلمة فى أذنها .

— آه ! ...

أفانت هذه الصبيحة من روعة المواء حتى جعلته هو نفسه يجفل
كما لو كان قد شهد موتاً مبرحاً . وكانت هيلين واقفة ، واستدار
القاتل غريباً مبدئياً نوعاً من القلق على وجهه نحو هذه الأسرة ...

سأل الماركيز : ماذا بك .. يا عزيزتى ؟

— هيلين : تريد أن تتبعه .

وأخبر وجه القاتل .

قالت هيلين : بصوت منخفض : مادامت أبى فرجم على هذا
النحو السيئ تعجباً لا إرادياً تقريباً فسوف أحقق أمنيته .
وبعد أن ألقت نظرة زهر وحشى تقريباً حركها أخفضت الفتاة عينيها
وظلت فى وضع رائع من التواضع .

قال المواء : هيلين . . . لقد صعدت إلى أعلى البيت فى الغرفة
التي استقيت .

— نعم يا أبى .

— فليس طبيعياً إذن أن تهبط إلى ...

إذا لم يكن طبيعياً فهو على الأقل صحيح يا والدى .

قالت الماركيزة بصوت منخفض ولكن بحيث يسمعها زوجها :
آه ! يا بنتى ؟ ... هيلين : أنت تقترين على كل مبادئ الشرع
والتواضع والفضيلة التى حاولت تسببها فى قلبك . إذا لم تكن سوى
أكلوبة حتى هذه الساعة المقدورة فإنه لا يوسف عليك إطلاقاً .
هل الكمال الأخلاقى لدى هذا الجعول هو الذى يعزبك ؟ وهل هذا
هو نوع القدرة الضرورية لدى الناس الذين يرتكبون جرائم ؟ ...
إبنى أقدرك تقديراً أكبر من أن أفرض ...

أجابت هيلين : بنعمة باردة : أوه ! الفرضى كل شئ يا سيدتى .

ولكن برغم قوة الطاع التى ألبستها فى تلك اللحظة جفف احترام
عينيها بصعوبة الدموع التى ترققت فيها . وضمن الغريب لغة الأم من
يكاء الشابة : وألقى نظرة (نسر) نحو الماركيزة التى اضطرت بقوة لانتقام
أن تنظر نحو هذا العاوى الرجيم . والواقع أنه عندما تقابلت عينا تلك
المرأة بعيني هذا الرجل الصافيتين المضيئتين أحست فى روحها برعشة

شبهة بالحياج الذي يضمننا عند مرأى الحية أو عندما نلمس رجاجة من
الخمر المعتق !

صاحت هي نحو زوجها : بازوجي ... إنه الشيطان ! فهو يستني
بكل شيء ...

وهب اللواء كنى بمسك لجبل الجرس .

قالت « هيلين » للقائل : سوف يهلكك .

قابض المجهول : وتقدم خطوة : ووقف ذراع الماركيتر ، وأرغمه
على أن يتحمل نظرة مألوفة بالذهول ونزعت منه قوته .

قال : سوف أدفع لك ثمن ضيافتك وبهذا نصيب برئى اللمة .
سوف أوفر عليك العار فأقوم بتسليم نفسي . إذ ما الذي سوف أعده

الآن في الحياة بعد كل ذلك ؟

أجابته « هيلين » وهي توجه إليه أحد الآمال التي لا تضيع إلا في
عيني فتاة : تستطيع أن تندم .

قال القائل في صوت جهوري : وهو يرفع رأسه في خيلاء : لن أندم
على الإطلاق .

قال اللواء لا بدته : إن يديه ملطختان بالدم .

أجابته : سوف أجفنها .

عاد اللواء إلى كلامه دون أن يجر على الإشارة إلى المجهول :

ولكن ... هل تعرفين فقط ما إذا كان هو بريلك ؟

فتقدم القائل نحوه هيلين التي بدا جمالها برغم براعته وشهورته
كما لو كان يقضي بنبوءة داخل استطاعت أشعته أن تطلو وأن تبرز
أصغر ملامحها وأرق خطوطها إن صبح هذا التعبير . وبعد أن ألقي على هذه
الخلوقة الساحرة نظرة عذبة لا يزال شررها عتيقا . قال وهو يحاول أن يخفي
انزعاجه : أليس في حبي لك ، من أجلك أنت ذاتك ، وفي تركة ذمتي
من مناعتي الحياة اللتين باعتهما لي والدك رفض لتضحياتك وإخلاصك ؟
صاحت « هيلين » في لحظة مزقت القلوب : وأنت أيضا ترفضني ؟
وداعا إذن للجميع سوف أذهب لأموت .

قال الأب والأم معا : ما معنى ذلك ؟

فبغت حسامة ، وتضخت عينها بعد أن استجوبت الماركيتر بنظرة
عين بليغة . منذ اللحظة التي حاول اللواء وزوجته فيها الصراع بالأقوال
وبالأفعال قصد الافتياز الغريب الذي انتحله المجهول بالبقاء وسخطهم
وأنى حاول هذا الأخير ابتداء منها أن يفتك بالضوء الذي يسبب اللوار
التابع من عينيهما ، بقى اللواء وزوجته خاضعين لفتور لا تفسير له ، وعاونهما
عقلهما المسترخي معاونة غير مجدية لقهر القدرة العلوية التي وقعا تحتها .

وصار اللواء ثميلا بالنسبة إليهما . وأخذا يتنفسان بصعوبة دون
أن يستطيعا إبداء أي اتهام نحو ذلك الذي طغى عليهما بهذه الطريقة ،
برغم أن حديثا داخليا جعلهما يدركان أن ذلك الرجل السحري هو مصير
عجزهما . وفي وسط هذا الاحتضار المعنوي ضمن اللواء أن جهوده يجب

أن تهبط إلى الدائرة على عقل ابنته المزعزع ، فأمسك بها من وسطها ،
ونقلها إلى شباك بعيد عن القتال .

وقال لها بصوت منخفض : ابنتي العزيزة . إذا كان قد ظهر حب
غريب فجأة في قلبك فإن حياتك الملبنة بالبراءة وروحك النقية النقية .
قد أعطيت أدلة عديدة على طبعك كيلا أفرض أنك بحاجة إلى طاقة
من أجل التغلب على الحركة الجوفية . وإلا فإن ساوكلت يخفى سرّاً إذن
وعلى كل حال فإن قلبي مليء بالسماح ، وتستطيعين أن تعترفي لي بكل
شيء . ولو مررت قلبي فسأعرف يا ابنتي إسكات الآلى والاحتفاظ لا عتراك
بصمت مخلص . هيا . هل أنت تغيرين من عاطفتنا نحو إخوتك أو نحو
أختك الصغيرة ؟ هل يوجد في روحك حزن غرامى ؟ تكلمى . اشرحي
لي الأسباب التى تدفعك إلى حجب أسرتك واعتزالها وحرمانها من أكبر
مقاتلها وبفارقة أمك وإخوتك وأختك الصغيرة .

أجابت : يا أبى ، إني لست غيوراً من أحد . ولا عاشقة أحداً
ولا حتى صديقك الدبلوماسى السيد ديفاندنيس .
واصغر وجه الماركةزة وتوقفت أبنتها وهي تتأملها .

— أليس من واجبي إن عاجلاً أو آجلاً أن أذهب لأعيش في حماية رجل ؟
— هذا صحيح .

وهل نستطيع أبداً أن نعرف أى إنسان نربط مصيرنا ؟
إننى أعتقد فى هذا الرجل .

قال اللواء وهو يرفع صوته : يا طفلة : ألا تفكرين فى كل المصاعب
والآلام التى سوف تلاحقك .

— إننى أفكر فى مصاعب وآلامه ...

قال الأب : أى حياة !

أجابت الابنة وهي تتسم : حياة امرأة .

صاحت الماركةزة وقد اضطرت الكلام : إنك لاشك عالمة .

سيدتى . إن الأسئلة تملئ على الأجوبة . ولكن إذا شئت فسأتكلم
بوضوح أكبر .

قولى كل شيء يا ابنتى . فأنا أم .

هنا نظرت البنت إلى الأم . وأدت هذه النظرة إلى مكوث الماركةزة
بعض الوقت .

— « هيلين » سأحمل انتقاداتك ومواخذاتك إذا كان لديك
شيء منها نحوى ، على أن أراك تتبعين رجلاً يتحاشاه الجميع
فرعاً .

— (ها أنت ذى) تروين يا سيدتى أنه بدوى سيكون وحيداً .

قال اللواء : كفى يا سيدتى فلم يعد لدينا سوى ابنة واحدة !
ولنظر إلى « موبنا » التى كانت نائمة باستمرار . ثم أضاف وهو
يلتفت نحو « هيلين » وسوف أحبسك فى : أحد الأديرة .

أجابته يهدوء مرن : ليكن يا أبى ... وسأكون فيه . لست مسئولاً
عن حياتى أو عن روحها إلا أمام الله .

وتبع هذه الأقوال فجأة صمت عميق . ولم يجرؤ شهود هذا المشهد
الذى كان كل شيء فيه يحس الإحساسات العادية في الحياة الاجتماعية
على أن ينظر أحدهم إلى الآخر . وفجأة طلع الماركيتر مستدماً ،
فأمسك بواحد منها وتممره بحفة ووجهه نحو الغريب ، وعند سماع الرجل
الصوت الصادر عن القرعة استدار ، وألقى نظره الهادئة النفاذة نحو
اللواء الذى استرحمت ذراعه بخرابة لا تقهر . وسقط في ثقل بحيث
تدحرج المسلس فوق السجادة ...

قال الأب مخدولاً عندئذ في هذا الصراع الخفيف : ابنتى أنت
حرة . قبلى أمك إذا كانت تريد أن تفعلك ، أما أنا فلا أريد أن أراك
أو أن أسمعك ..

قالت الأم إلى ابنتها : « هيلين » إذن فكرى أنك ستعيشين في شقاء ،
وخرجت زفرة أو فواق من صدر القتال العريض جذبت إليه
الألفاظ ، وكان وجهه مصبوغاً بتعبير ازدراء .

صاح اللواء ناهضاً : ها هي ذى خيالي لك تكلفني ثمناً
باهضاً لقد قتلت منذ قليل شيخاً مستأزراً ، وها هنا تعندى بالقتل على أسرة
بأكملها . مهما يحدث فسيكون ثمة شقاء بهذا البيت .

سأل القتلى وهو ينظر إلى الرجل العسكري بشبات : وإذا كانت
ابنتك سعيدة ؟

أجاب الأب بمجهود مذهل : إذا كانت سعيدة معك ، فلن أندم
عليها .

وهبطت « هيلين » على ركبتيها في حياء أمام أبيها . وقالت له
بصوت عطوف : أبى ، إننى أحبك وأحترمك سواء بذلت لي كنوز
طبيبك أو جفائوات حرمائك لي من حظوتك ورضائك . ولكنني أترسل إليك
ألا تكون آخر أقوالك لي أقوال غضب .

ولم يجرؤ اللواء على أن يتأمل ابنته . في هذه اللحظة تقدم الغريب
مليئاً نحو « هيلين » ابتسامة محملة بشيء من الجحيم وبشيء من القردوس
معاً . وقال :

— أنت يا من لا تحبك قتلى ... يا مالك الرحمة . هللى . تعالى
ما تمت مصرة على أن تكلي إلى مقاليد مصيرك .

صاح الأب : شيء لا يتصور .

وأثقت الماركيتر نحو ابنتها نظره غريبة ، وفنحت لها ذراعها ،
فهرعت إليها « هيلين » باكبة .

— وداعاً . وداعاً يا أمه !

وأعطت « هيلين » الغريب إشارة بحساسة أظريته ، وبعد أن قبلت

يد والدها وقبلت ، موبتاه و ، أبيل الصغير بسرعة ، ولكن بغير منعة ،
ولت الأدبار مع القائل .

صباح اللواء وهو يصغي لخطوات الخاريين : من أي جهة يذهبون ؟
وعاد يقول وهو يوجه الكلام إلى زوجته : سيدتي ، أعتقد أنني في
حلم : تخفي هذه المغامرة عني سرّاً ما ، لا بد أنك تعرفينه .
وارتجفت الماركيبة . وأجابت :

— لقد صارت ابتك .. منذ بعض الوقت ذات خيال زواني
غريب ومتهوس هوساً فريداً ، وبرغم اهتمامي بالنقصاء على تلك التبعة في
خصالها ...

— ليس هذا واضحاً ...

ولكن خيل إليه أنه سمع في الحديقة خطوات ابنته والرجل الغريب
فقطع اللواء كلامه كي يفتح الشباك بسرعة ، وصاح : « هيلين » .
وضاع هذا الصوت في الليل البهيم كنوبة غير مجدية . وعند نطقه
بهذا الاسم الذي لم يعد يعادله شيء في الوجود ، أفاق اللواء كما لو كان
يفعل رقية سحر من الاقتتان الذي جعلته قدرة رجيصة أسيراً له ، وكما
لو كان قد تخال وجّهه ضرب من الإغمام الإلهي ، قرأى المشهد الذي
يجرى منذ حينه في وضوح . ولعن ضعفه الذي لم يفهمه ، وضعدت
قشعريرة حارة من قلبه إلى رأسه وإلى قدميه . وعاد هو نفسه مخيفاً
متعطشاً إلى الانتقام وصاح صيحة مريّة : النجدة ! النجدة !

وجرى نحو حبال الأجراس وشدها كما لو كان يريد أن يخطمها
بعد أن جعلها ترق زنباً عجيباً . وهب كل الخدم قفزاً من نومهم :
أما هو فظل دائم الصباح ، وقمع نوافذ الطريق ، ونادى الشرطة ،
وأحضر سدساته وأطلقها كي يتعجل سير السواري ، واستيقظ خدمه
وجيء جيرانه . وتعرف الكلاب على صوت سيدهم عندئذ ونبحت ،
كما أخذت الخيول تصهل وتنكت الأرض بأقدامها . وتحول المشهد
إلى زوبعة ضارية وسط تلك الليلة الحادثة ، ورأى اللواء وهو يهبط السلم
عدوا وراء ابنته خدمه مدعورين وقد تجمعوا من كل صوب .

— ابنتي ! « هيلين » اختطفت . اذهبوا إلى الحديقة ! راقبوا

الشارع ! افتحوا للشرطة ! يا القاتل !

وفي الحال حطم السلسلة التي تعوق كلب الصيد الكبير بقوة الغضب .

— « هيلين » ! « هيلين » !

ووثب الكلب وثبة أسد ، وتبع مسعوراً ، وانددع في الحديقة بسرعة
حتى لم يعد اللواء يستطيع أن يتبعه . ودوت في هذه اللحظة أصوات
عدو الخيول في الشارع . وذهب اللواء مهرولاً يفتح الباب بنفسه .

يا « أومياشي » . اذهب اقطع طريق السمحاب قاتل السيد « دي

موني » . لقد ولي مخترقاً بسائتي . بسرعة حاصروا الطريق إلى (غل

بيكاردي) وسوف أقوم بحملة مطاردة في كل الأراضي والحدائق والبيوت .

أما أنتم — قال للخدم — قامهروا لمراقبة الطريق وحاصروا المسافة من عند

السور حتى (قرساي) إلى الأمام جميعاً !

ولم يمسك إلا بينة فنية أحضرها له تخادعه . وانفد في البساتين وهو
يتنادى الكلب : و انحث ! فكان الكلب يرد عليه بتباح مريع عن
بعد : واتجه في الاتجاه الذي بدا له أن شقيق الكلب كان يأتي منه .
وفي الساعة صباحاً لم تكن أبحاث الشرطة أو اللواء أو خدعه أو جيرانه
ذات جدوى . ولم يعد الكلب . وأتبع اللواء التعب . وقد شاخ سلفاً
بفعل الحزن ، فعاد إلى (الصالون) منفرداً إلى نفسه برغم وجود أولاده فيه .
قال وهو يتنظر إلى زوجته : لقد كان لديك برود إزاء ابتلاك ...
هالك ما تبقى لنا منها ! وأضاف وهو يشير إلى النول حيث رأى وردة
مشغولة مبهوداً : لقد كانت هذا منذ هنية : والآن ضاعت . ضاعت !
وصار ينحب وهو يحن رأسه بين يديه ، وبقي صامتاً لحظة دون أن يخبر
على نامل (الصالون) الذي كان فيما مضى يتمتع أعذب لوحة في السعادة
البيتية . وأخذ شروق القمر يصارع المصابيح الداوية ، وحرقت الشموع
نقوشها المزهرة من الورق . وكان كل شيء يتلاطم مع بأمس الوالد .
قال بعد لحظة صمت وهو يشير إلى النول : لا بد من تمطيم ذلك ...
لن أستطيع أن أرى شيئاً مما بلدكرنا بها . . .

...

كانت ليلة عيد الميلاد النشطة التي أصيب الماركيز وزوجته فيها
بفقد ابنتهما الكبرى ، دون أن يقويا على معارضة السيطرة الغريبة التي



أفقدنا فيهم الرجل الذي أغواها عن غير قصد . بمثابة إعلان تحت
إذ أدى إغلاص أحد وكلاء النقد إلى خراب الماركيز . فزمن عقار كل
أملاك زوجته لكي يحاول القيام بمصاربة تؤدي قوائدها إلى إعادة ثروة
أسرة الأول إليها . ولكن أتى هذا المشروع على كل شيء . وانتهى بإفلاسه
واندفع الداء بدافع يأسه إلى محاولة كل شيء . فتغرب وهجر وطنه .
ومضى على رحيله ست سنوات . ورغم أن أسرته نادراً ما تلقت أخباره
أعلن إليها عودته قبل اعتراف أسبانيا باستقلال الجمهورية الأمريكية
بأيام قلائل .

وفي صباح أحد الأيام الخفية وجد بعض البحارة الفرنسيين
الذين فقد خبرهم من أجل العودة إلى وطنهم محبطين يذروا جملوا
عليها عقابيل الأعمال الطويلة ، والقيام برحلات خطيرة سواء إلى (المكسيك)
أو إلى (كولومبيا) . وجد هؤلاء البحارة أنفسهم فوق مركب أسباني
شراعي ذي حصارين على بعد بعض فراسخ من (بوردو) .
وكان ثمة رجل ، عجوز من جراء المناعب . أو بدافع الحزن ، أكثر مما
كان عجوزاً بمقتضى سنوات عمره . يستند إلى (مقعدة) المركب ،
ويظهر غير واع مشهد المسافرين المجتمعين فوق السطح .

وكانوا قد أفلتوا من أخطار الملاحة . واحتفلوا بحال اليوم ، فصعدوا
جميعاً فوق الحرس كما لو كانوا يؤدون التحية لأرض موطنهم . وشاء
أغلبهم بإصرار أن يروا عن بُعد المنارات وعمائر (الجاسكون) وبرج

عقبة (الكوردوان) ممزوجة باختلاقات الخيال المتطرفة عن بعض
السحب البيضاء المرتفعة عند الأفق . ولولا الشراشيب البيضاء المنقضة
التي كانت تتلاعب في مقدمة المركب . ولولا الخط الطويل الذي كان
سرعان ما يختفي من ورأسها ، لاعتقد المسافرون أنها كانت بلا حراك وسط
الخط من قبة مكون البحر هناك . وكانت السماء ذات صفاء
ساحر . وكانت صبغة أركانها الداكنة تغلب بدرجات هائلة غير
محسوسة إلى حد الاحتفاظها بلون المياه الغائل إلى الزرقعة مع تطيط
نقطة التقائها بخط كان قصوه يتلأأ بشدة على نحو ما تتلأأ الكواكب .
وكانت الشمس تدفع بحلابين الواجهاً إلى النفعان على امتداد البحر
الغائل . بحيث كانت سطوح الماء الشاسعة تبدو أكثر بريقاً تقريباً
من جدول قبة السماء .

وكانت أشعة المركب كلها منتشرة برياح قات رقة عجيبة . وكانت
ملاءمها بيضاء ناصعة كالجليد . كما كانت خيامها الصفراء ترفرف
وترسم مناهات حبالها بدقة صارمة فوق أرضية لامعة من الهواء والسماء
والخط دون أن تتقبل أي صبغات أخرى سوى صبغات الظلال التي
تسقطها تلك الأشعة الندية . يوم جميل . ربح رطبة . رؤية الوطن .
بحر هادئ . خفيف أسيان . . . مركب شراعي بصاريين . . . يحتمي وحيداً أو
يراق فوق المحيط كامرأة تطير نحو موعد لقاء . . . لقد كان ذلك لوحة
عظيمة بالانسجام والتناسب . . . مشهد محيط فيه الروح الإنسانية بفضاءات

لا تتغير ابتداء من نقطة كان كل شيء فيها حركة . كان ثمة معارض
مدهش بين الوحدة والحياة . . . بين السكون والصوماء . . . دون أن تتمكن
معرفة أين كانت الصوماء والحياة أو العدم والصمت . كذلك لم
يكن يقطع حبل ذلك السحر السماوي صوت إنساني واحد .

وبقي القبطان الأسباني ومخاربه وجميع الفرنسيين جالسين أو واقفين
وقد استغرقوا جميعاً في وجد ديبى مليء بالذكريات . وكان هناك بعض
التكاسل في الهواء . وكشفت الوجوه المزدجرة عن نسيان تام للمساوي
المنقضية . وأخذ هؤلاء الرجال يميلون فوق هذه السفينة الملوحة كما لو
كانوا في حلم ذهبي .

وبرغم ذلك كان المسافر العجوز المستند إلى (مترسة) السفينة
ينظر من حين لآخر في فروع من الفاك ، كان ثمة تحد للمصير المزوج
بكل ملامح وجهه في وصوح . وكان يبدو كأنه متخوف من ألا يلسر
بسرعة إلى حد ما أرض فرنسا . وكان ذلك الرجل هو الماركيز : إذ لم
يكن الحظ أصم أمام صرخاته وجهوده النابعة من يأسه . وبعد خمس
سنوات من المحاولات والأشغال الشاقة رأى نفسه مالكا ثروة ذات شأن
وكان مشوقاً شوقاً شديداً لرؤية بلده ، ولتحمل الحظ إلى أسرته ،
فتسج على منوال بعض التجار الفرنسيين من (هافانا) في إبحارهم فوق
ظهر سفينة أسبالية ذات شحنة في اتجاه (بورديو) .

وبرغم ذلك أنهكه توقع الشر حتى صار خياله يرمم له أحلى الصور

الذهنية عن سعادته الماضية . وعندما شهد عن بعد الخط الأسمر الذي
ترسمه حافة الساحل الأرضي اعتقد أنه يرى زوجته وأولاده ، وصار
في بيته وفي مسكنه . وأحسن هنالك بأنه في رحمة وفلامس وتربيت .
وتخيل « موينا » جميلة كبيرة موقرة كثافة شابة . وعندما صارت هذه
اللوحة الخيالية قريبة من الحقيقة انسكب الدموع من عينيه . وعلمته
— كأنه يخفي اضطرابه — نظر إلى الأفق الرطب المقابل للخط الخيالي
الذي أشار إلى الأرض .

قال : إنه هو إنه يتبعنا .

صاح القبطان الأسباني : ما هذا ؟

عاد اللواء يقول بصوت خفيض : مركب

أجاب القبطان « جوميز » : لقد شهدته بالأمن سلفاً . ثم نظر إلى
الفرنسي كأنه يريد أن يستجوبه وقال عندئذ في أذن اللواء : لقد علمونا
دائماً ولا أدري لماذا لم ينحني بنا أبداً .

عاد الرجل العسكري العجوز يشوف : مع أنه ذو قلوب أفضل من
قلوب سفيتكم اللعينة (سان فيردينان) .

— سوف يصاب يعطب . . ثمة ثقب في السفينة .

صاح الفرنسي : إنه يلحق بنا .

قال له القبطان في أدبه : إنه أخذ القراصنة (الكولومبيين) نحن

لا نزال على بعد ستة فراسخ من الساحل . وقد هدأت الرياح .

— إنه لا يسير . إنه يظهر كأنه يعرف أن فرصته سبقت منه في غضون ساعتين . صاح القبطان : هو ! آه ! إنه لا يسمى (عطيل) عبداً . لقد أغرق أخيراً مركباً حربياً إسبانياً وليس مزوداً برغم ذلك إلا بثلاثين مدفعاً . ولم أكن أخشى سواه لأنني كنت أجهل أنه كان يباشر فرصته في جزائر (الأنتيل) ... آه ! آه !

وعاد يقول بعد فترة سيكون نظري أثناءها إلى قلوب سفينة :
الريح تشتط . سوف تصل . لا بد من ذلك (فالباريسي) لا يرحم .
أجاب الماركيز : هو أيضاً يصل .

لم يعد (عطيل) أبعد من ثلاثة فراسخ . ورغم أن (حاتم) البحارة لم يسمع بحادثة الماركيز والقبطان جوميز فقد دفع ظهر تلك السفينة الشراعية أغلب البحارة والمسافرين إلى المكان الذي كان فيه المتخاطبان . ولكن جميعهم كانوا يرونه مسرعاً عن اهتمام . لعلمه أن المركب الشراعي ذي الصاريين سفينة تجارية . وصاح فجأة أحد الملاحين في لغة قوية :

— باسم « سان نيكول » لقد اشتعلنا .. هاك القبطان (الباريسي) .
وبذكر هذا الاسم الخفيف انتشر الرعب في السفينة الشراعية ذات الصاريين . وساد هرج يعجز التعبير عن وصفه ، وبث القبطان الأسباني بأقواله طاقة وقوية في بخارته ، وحاول وهو في هذا الخطر تحت تأثير رغبته في بلوغ الساحل بأي ثمن كان — أن يضع بسرعة قلوبه الإصباحية

العالية والسفلى وقلوع المسنة وقلوع المسيرة حتى يعطى الرياح أكبر مسطح من الأشعة التي يزود بها عوارض الصاريين . ولكن هذه المناورات لم تتم إلا بعد صعوبات شديدة ، إذ كان ينقصها طبيعة الحال هذا التناسق الجمعي الرائع الذي يهرى النظر إلى سجد كبير في المراكب الحربية .

ورغم أن (عطيل) كانت تظهر كطائر (السنوف) بفضل توجيه قلوبها . فإنها لم تقطع كثيراً من المسافة في مظهرها . حتى إن الفرنسيين النساء جعلوا يدهمون بعض الوجه الرقيق . وفجأة وفي اللحظة التي أخذت فيها (سان فيردنان) انطلاقاً جديداً بعد جهود لا يصدقها العقل ، وبفعل مناورات قصيرة ساعد فيها جوميز بنفسه بالعمل والحركة وبالصوت . حدثت حركة خاطئة في الدفة . مقصودة بلا أدنى شك . أفلتها مدير الدفة . فجعل المركب يسير عرضاً . وأصبحت القلوب بضربات الريح الخائبة . فصارت فجأة مكشوفة أمام الريح بدلا من أن تتلقاها بوسعها . وتكسرت الأطراف الخارجية حتى صارت السفينة بأكلها تامة التوقف .

وتملك القبطان غضب لا يمكن التعبير عنه يجعله أشد بياضاً من قلوبه . وفي لحظة واحدة ففر فوق مدير الدفة فأدركه بخنجره وهو في أشد الغضب . ولكنه أفلت من الخنجر فدفعه بسرعة إلى البحر . ثم أمسك هو نفسه بالدفة وحاول أن يعالج الاضطراب الخفيف الذي أثار

مقيته المحسور الشجاعة . وقد حرجت دموع اليأس من عينيه ، لأننا نحس بالحزن من الحياة التي تزيغ النتائج التي تحققها مواهبنا أكثر مما ينشأ عن الموت المتوقع . ولكن كلما أقسم القبطان أكثر كان العمل يتم بالبرجة أقل . وسحب بنفسه مدفع الإنذار على أمل أن يصير مسرعاً على الشاطئ . في هذه اللحظة أجاب القرصان الذي كان في طريقه إلى الوصول في سرعة مواتية بصريته مدفع منقطت فليفته على بعد ستين قدماً من (سان فيردينان) .

صاح اللواء : صاعقة التصويب ! إنهم يملكون مدافع مصبوبة صنعت خصيصاً .

أجاب أحد البحارة : أهو ! هذا الرجل كلما نرى .. عندما يتكلم لا بد من السكوت .. (فالباريسي) لن يخاف مركباً إنجليزياً ...
صاح القبطان في طمحة يأس بعد أن صوب منظاره ولم يستطع أن يمز شيئاً من ناحية الساحل ... انتهى كل شيء ... إننا لا نزال أبعد من فرنسا أكثر مما كنت أعتقد .

عاد اللواء يقول : ولماذا تذكر نفسك ؟ إن ركابك جميعاً من الفرنسيين . وقد استأجروا مركبك . وهذا القرصان (باريسي) كما تقولون . فارق العلم الأبيض و ...

أجاب القبطان : ثم يخرق مركبنا أليس ذلك هو كل ما يجب أن يكون وفقاً للظروف عندما يريد أن يضع يده على فريسة ثمينة ؟

— آه ! إذا كان قرصاناً !

قال الملاح بتعبير نافر : قرصان ! آه ! إنه يسوى أموره دائماً حسب الأصول أو يعرف كيف يكون كذلك .

صاح اللواء وهو يرفع عينيه إلى السماء : على أي حال فليستسلم . وكانت لا تزال لديه القوة ليحبس دموعه . وعندما انتهى من هذه الكلمات حصلت ضربة مدفع ثانية فذيفة مصوبة تصويهاً أدق إلى خدران السفينة (سان فيردينان) فاحترقها .

قال القبطان وهو في حالة حزن : أوقف كل حركة .

وعاون الملاح الذي دافع عن أمانه (الباريسي) بذلك بالغ في هذه المناورة اليائسة . وانظر النوبة خلال نصف ساعة فاقلة فريسة لأرباع عميق . كانت (سان فيردينان) تحمل أربعة ملايين من القنابل التي تؤلف ثروة خمسة مسافرين . وثروة اللواء التي تبلغ أحد عشر ألفاً من الفرنكات .

وأخيراً عندما وصلت السفينة (عقيل) نفسها على بعد عشر مرات من مرمى البصيرة أشهرت بوصوح فرجات الانبي عشر مدفعاً المشرقة بالخطر والمستعدة لإطلاق النار . وكانها حملتها ريح نفخها الشيطان خصيصاً من أجلها . ولكن عين الملاح الماهر كانت تظفر بسهولة إلى سر هذه السرعة . وكان يكفي تأمل وثوب السفينة ذات الصواري وشكلها المسحوب بالطول ، وضيق عرضها ، وارتفاع مخمخ صواريها .

وتفصيل أشرعها . وتحتة جهازها الرائع . والسهولة التي كان يتصرف بها
مجمع ملاحيتها المتحدين كرجل واحد من أجل تمام توجيه صدورها
اليقضاء المثلثة في القلوع - كل شيء كان يتم عن حيوات القدرة في هذه
المخلوقة الخشبية المشوقة التي كانت في سرعة وذكاء فارس حربي
أو بعض الطيور الجارحة .

وكان طاقم قوتية القرصان صامتين . وعلى أهمية الاستعداد في حالات
المقاومة لأن ياتهموا المركب التجاري المسكين الذي بقي لحسن حفظه
مطرقاً كتلميذ محطى أمام أستاذة .

صاح اللواء وهو يضغط على يد القبطان الأسباني : توجد مدافع
عندنا !

فألقى هذا الأخير نظرة مليئة بالشجاعة والياس معاً نحو الرجل العسكري
القديم وهو يقول له : ورجال !

ونظر اللواء إلى بحارة (سان فيردينان) ثم أجفل . وكان التجار
الأربعة مصفري الوجوه كما كانوا يرتعدون . في حين كان الملاحون قد
تجمعوا حول واحد منهم كما لو كانوا يستقون أنفسهم ليقفوا في صف
(عطيل) . فأخذوا ينظرون إلى القرصان باندخراب حشع . وظل رئيس
العمل والقبطان والماركيتر ينادلون وحدهم أفكاراً شديدة السخاء .
وهم يمحضون أنفسهم بالنظر .

- آه ! يا قبطان ! جوميز ! لقد ودعت منذ زمن بعيد وطني وأسرتي .

وكان القلب مبتاً من الحسرة واللوعة . فهل على أن أفارقهما ثانياً
في اللحظة التي أجلب فيها الفرح والسعادة إلى أولادي ؟
واستدار اللواء كمن يتدلف إلى البحر بدمعة غضب وكمد ، ولحظ مدير
الدفة وهو يسبح فيه نحو القرصان .

أجاب القبطان : في هذه المرة لاشك أنك ستقول له وداعاً إلى الأبد .
وأفرغ القرفلسي الأسباني بالنظرة البلهاء التي وجهها إليه . وفي هذه
اللمحة كانت السفينتان تقريباً بحذاء بعضهما البعض . وآمن اللواء من
عراى طاقم ملاحى العدو بسوءه ، جوميز ، المحنومة .

كان ثلاثة رجال واقفين حول كل مدفع . ويمتد رؤيتهم
العضلية القوية وملاحهم المقرة وأذرعهم العارية العصبية كأنه يمكن
اعتبارهم تمثيل من البرنز ، بل أو حائت ساعة موتهم لقتلوا دون أن
يطردهم الموت . وبقي الملاحون المدججون بالسلاح . وقد ظهر عليهم
النشاط والسرعة والشدة بغير حراك ، وكانت كل هذه الوجوه القوية
قد سمرتها الشمس سيرة شديدة وجمعتها الأمتثال ، وكانت عيونهم
تلمع على نحو ما تبدو ذرات النار وتشير إلى مدى ذكائهم الحيوي
ومتعهم الجهنسية .

وساد صمت عميق فوق ظهر السفينة ، وكأنما صار لونه أسود
من ازدحام الرجال والتبعات . وهذا يكشف عن النظام الذي لا يتخذ
والذي يمثل إرادة صلبة استطاعت أن تحيى هامات هؤلاء الأبالسة

الآدميين . وكان الرئيس واقفاً عند أسفل الصاري الكبير بذراعين متشابكتين ويحمل سلاح . ولكن كانت توجد فأس عند قدميه فقط . وكان على رأسه قبعة من اللياد ذات أطراف كثيرة لكي تقيه الشمس . فكان ظلها يحجب وجهه ، وكان رجال المدفعية والجنود والملاحون أنسبه ما يكونون بالكلاب الراقدة أمام أسبادهما ، ويتدبرون أعينهم على قبطانهم وعلى السفينة التجارية . وعندما تلامست السفينتان . جذبت اهزة القرصان من أحلامه . وقال كلستيل في أذن صبايط ثياب كان واقفاً على بعد خطوتين منه .

صاح الملازم : كلاب المهاجمة !

واشبهت السفينة (عطليل) بالسفينة (سان فيريديان) في سرعة خارقة . ووفقاً للأوامر التي لقيها القرصان في صوت خفيض وأعادها الملازم ، ذهب الرجال المنصوصون بكل فرع من فروع الخدمة كرهان الديبر في سيرهم نحو الصلاة إلى السطح ، حيث تنزعوا في تقييد أيادي الملاحين والركاب ووضعوا الأيدي على الكنوز . وفي لحظة كانت الأطنان مليئة بالفروش والمؤن الغذائية كما كان بخارة (سان فيريديان) منقولين فوق جسر (عطليل) .

واعتقد اللواء نفسه تحت تأثير حلم عندما وجد يديه موثقتين ، ووجد نفسه معلق فوق يالة صغيرة كما لو كان هو نفسه سلعة . وحصل اجتماع بين القرصان والملازم وأخذ الملاحين الذي ظهر أنه يشغل وظيفة رئيس

العسل . وعندما انتهت المناقشة التي لم تدم طويلاً صفر الملازم إلى رجاله ، وبكلمة الأمر الذي أملاه عليهم قفروا جميعاً فوق ظهر (سان فيريديان) وزحفوا داخل الحبال ، وأخذوا يتربعون عوارض الصاري والأشرعة والعتاد من السفينة في مهارة شبيهة بمهارة الجندي الذي يتخلع في ميدان القتال ملائيم زميل له استشهد وصارت أحاديته وكسائه موضع طمعه .

قال القبطان الأسباني يبرود إلى المارتيز : لقد ضعننا !

وكان القبطان قد راقب بالعين حركات الرؤساء الثلاثة في أثناء التبادل وأثناء حركات البحارة الذين قاموا بإجراءات التهب المنتظم لمركبه .

سأل اللواء يبرود : كيف ؟

أجاب الأسباني : ماذا تريد أن يفعل بنا ؟ لقد اكتشفوا بلا شك أنهم سوف يبيعون (سان فيريديان) بضعوية في موانئ فرنسا وأشبانيا ، وسوف يذرقونها لكي لا يشغلوا أنفسهم بها . أما عن أنفسنا فهل تعتقد أنهم يستطيعون أن يحصلوا غذاءنا وهم لا يعرفون في أي ميناء يطلقونا ؟

ولم يكذب يبرود القبطان من كلامه حتى تمنع اللواء صياحاً مروعاً تبعه أصحج أصم نتيجة سقوط أجسام عديدة هابطة في الماء . قامستدار ولم يعد يرى التجار الأربعة . وكان ثمانية من رجال المدفعية ذوي الوجوه المتوحشة لا يزالون يأذرعهم مرفوعة في الهواء في اللحظة التي كان الرجل العسكري ينظر إليهم في رعب .

قال له القبطان الأسباني بيرو : حينما كنت أقيها لك .

ونقص الماركيز فجأة . كان البحر قد امتعاد سطحه الخادى سلفاً . ولم يتمكن من رؤية المكان الذي ابتلع منه هنية رفاقه التعساء . وكانوا في تلك اللحظة يتدهورون بأقدامهم . وقبضات أيديهم مشلولة الوثاق تحت الأمواج فلم تكن الأسماك قد سارعت إلى التهامهم . وعلى بعد خطوات منه كان يوجد مدير الدقة وملاح (سان فيردينان) اللذان كانا يمتدحان سابقاً قدرة القبطان (الباريسي) . وقد أخذوا يصادقان القراصنة ويتآخيان معهم . فيرشدهم بالأصبع إلى أولئك الذين كانوا يخلعونهم جديريين من بينهم بالانضمام إلى طاقم (عطيل) أما الآخرون فقد كانت أقدام كل منهم مقيدة بطحليتين برغم أيمانهم المغلظة

وانتهت عملية الانتقاء ، فوضع المدفعيون اثمانية أيديهم على المحكوم عليهم . وقذفوا بهم دون أي شعائر إلى البحر . وجعل القراصنة يتأملون بفضول خبيث الأساليب المتنوعة التي كان الرجال يتساقطون بها وطرائقهم في تغصن الأوجه . وكذلك آخر أوضاع عذابهم . ولكن وجههم لم تكن تظهر أي سخرية أو اندهاش أو شفقة . لقد كان ذلك بالنسبة إليهم مجرد حدث بسيط جداً يبدو أنهم تعودوه . أما كبار السن فكانوا يفصلون تأمل الأطلان الملبنة بالقروش الموحمة عند أسفل الصاري الكبير بانتسامة حزينة مقتضبة .

وأخذ اللواء والقبطان « جوميز » يتشاوران في صمت بنظرة كمد وهما جالسان فوق إحدى البالات . وسرعان ما وجد أنهما الوحيدان اللذان بقيا أحياء من طاقم (سان فيردينان) وتحول الملاحون السبعة الذين اختارهم الجاسوس من بين البحارة الإسبانيين تحولا فظاير المرح والسرور إلى قوم من (بيرو) .

وفجأة صباح اللواء الذي أسكت السخط الوقي الكريم عنده كلاً من الألم والنظر في العقاب : يا للأفدال القساة !

أجاب « جوميز » في برود : للضرورة أحكام : وهم يطيعون الضرورة . . . إذا عثرت مرة أخرى على واحد من هؤلاء الرجال أفلا تدفع بسيفك تحلال يده ؟

قال الملازم وهو يلتفت نحو الأسباني : يا قبطان . لقد سمع (الباريسي) عنك . فأتيت كما يقول الرجل الأوحى الذي يعرف جيداً كل المضائق في جزر (الأنيل) وسواحل (البرازيل) . فهل تحب . . . فقاطع القبطان الملازم الشاب بتعجب الاحتقار وأجاب : سوف أموت كبهار وكأسباني تخلص وكسيحي . هل تسمع ؟

صاح الشاب : إلى البحر .

وتمجرد صلور هذا الأمر أمسك اثنان من المدفعيين « جوميز »

صاح اللواء وهو يوقفت القراصنين : إنكم جبناء .

قال له الملازم : يا شيخى . . . لا تتعامل كثيراً . إذا كان شريكك

الأحمر يؤثر على قبطاننا فإني لا أعيا به شخصياً... وسوف يكون لنا أيضاً بعد هزيمة طرف قصير من محادثة...

وفي تلك اللحظة أدرك اللواء عند سماعه ضوضاء صماء لم تترج بأي شكوى أن الشجاع ، جوميز ، قد مات كبحار ، وصاح في فوية غضب خفيف : ثروقي أو الموت !

أجابه القرصان وهو يضحك متهمكماً : آه ! إنك معتول قالان... أنت واثق من أن تنال منا شيئاً...

ثم بإشارة من الملازم اندفع اثنان من الملاحين يقيدون قدمي الرجل الفرنسي . ولكن هذا الأخير ضربهما في جراحة غير متوقعة ، وسحب بحركة لم يكن يتظرها أحد ، سيفاً متديلاً إلى جانب الملازم ، وبدأ يلعب به برشاقة كالأواء قديم من الفرمان يعرف مهنته .

— آه ! يا قطاع الطريق . لن نلقوا إلى الماء محارباً قديماً من رفاقنا يلبسون ، كما نلقون بالحار .

وانطلقت رصاصات مسدس أو شكت أن تلامس الرجل الفرنسي أثناء مقاومته ، فاسترعت هذه الطلقات انبأه (الباريسي) الذي كان حينذاك مشغولاً بمراقبة نقل العتاد وأدوات السفن التي كان قد أمر بالاستيلاء عليها من سفينة (سان فيردينان) .

ويبدو انفعال جاء وأمسك من الخلف بتلابيب اللواء الشجاع ، ورفعته بسرعة وسحبته نحو الحافة ، وتحضر لإلقائه إلى الماء كتعبئة حقيرة . وفي هذه

اللحظة التفت نظرات اللواء بعين الرجل الذي أغوى ابنته التي تشبه عين الوحش . وفي لحظة تعرف الأب وتببه ، فضغط القبطان دفعته بحركة مضادة لتلك التي كان قد أتمها من قبل ، كما لو كان الماركيز منعدم الوزن ، وبدلاً من أن يجعل به إلى البحر وضعه واقفاً تحت العناري الكبير ، وتعالى الهمسات فوق سطح السفينة ، وعندئذ ألقى القرصان نظرة إلى رجاله ، فساد أعين الضمت فجأة .

قال القبطان بصوت ثابت واضح : إنه والد هيلين . . . والويل لمن لا يؤدي له الاحترام .

فدوى هيلين الهتافات الملىء بالفرح فوق سطح السفينة ، وتصاعد في السماء كصلاة في الكنيسة وكأول نداء في قدامس إلهك . وأخذت الطحائب ترتقص فوق الخيال ، وألقى الملاحون طاقياتهم في الهواء ، وجعل المدفعيون يذبذبون بأقدامهم ، وظل كل شخص يتحرك ويصرخ ويصفر وينقسم بأغلف الأيمان ، وأدى هذا التعبير المتعصب في هذه النهضة إلى أن اللواء صار قلقاً شديداً . وعزا هذه العاطفة إلى سر مخزوع . فلم يكمل يستعيد الكلام حتى صاح صيحته الأولى : ابني ! لكن أين هي ؟

فألقى القرصان إحدى نظراته العميقة نحو اللواء ، وهي نظرة لم يملك أحد استنتاج تفسير لتأثيرها الذي يؤدي دائماً إلى انقلاب في أشد الأرواح إقداماً وبأساً ، فأسكنه مثيراً بذلك رضى كبيراً لدى الملاحين وسعادة

جمعة بين الجميع ، حين رأوا قوة رئيسهم تطبق على كل الناس . وقاده أمام باب إحدى القمريات ، ودفعه بقوة وهو يقول : ها هي ذى .

ثم اخفى تاركاً الرجل العسكرى القديم غارقاً في نوح من الدهل أمام مرأى اللوحة التي ظهرت أمام عينيه . وعند مباح هيلين ، باب الغرفة وهو يفتح في تعجل هت واقفة من رقابها فوق الأريكة الوثيرة ، ولكنها رأت الماركيز ، وصرخت في دهشة . كانت قد تغيرت تغيراً كبيراً حتى إنه كان يلزمها عينا ولد كى بعرقا عليها . كانت تلمس المناطق الاستوائية قد زادت وجهها الأبيض جمالا بصنعة سمراء علت بشرتها وتلوين رائع أضى عليها تعبيراً شعرياً . واشتم في المكان جو العظمة . وثبات الحلالة . واستروح شعوراً عميقاً تنهر منه أشد الأرواح غلظة . وكان شعر رأسها الطويل الكثيف المهدل في حلقات فوق عتفها الملى بالنبل يضئ صورة من القوة أيضاً على زهو هذا الوجه وبخيلاته . وأتاحت ، هيلين ، في ثنايا وضعها وحركتها الفرصة لأعينها لكي يرمض بالمقدرة التي كانت تمتاكتها . وكان الرضى بالانتصار عملاً يرفق غياثيها الوردية . وكانت سعادتها المادئة باذية في كل تطورات جناها . فقد كانت تجمع في شكلها بين عدوثة العذراء وذلك اللون من الغرور الخاص بالحيالات . وكأنها أرادت كبحارية وحاكمة في آن معاً أن تطيع ، لأنها كانت قادرة على أن تحكم . وكانت تلبس ملابس رائعة مليئة بالحاذية والأناقة . وكانت يديها لا تتكلف

سوى الحرير الهندى . أما أزيائها ووسائلها فكانت من الحرير الكاشير وجهاز أرضية (القمرة) الواسعة ببساط عجمي . ولكن أطقاها الأربعة كانوا يلعبون عند قدميها مستغرقين في بناء قصور عجيبة يعقود من اللؤلؤ ومن الجواهر الثمينة . والأشياء النادرة الغالية . وكانت بعض الزهريات المصنوعة من الخرف (السيفر) المطلى بريشة السيدة ، جاكوتو ، تحتوي على زهور نادرة تعبق المكان بشذاها . . زهور الياسمين المكسيكى وزهور (الكاميليا) . وترفرف بينها عصافير أمريكية صغيرة مستأنسة ، ولعلها كانت من أنواع البافوت والسفير والذهب الحى . وكان مشياً في هذا (الصالين) « بياقو » كما كان على الحائط خشب معطى بالمقارش الحريرية الصفراء ، وبعض المارحات ذات المقاييس الصغيرة هنا وهناك من تصوير كبار الفنانين : غروب الشمس للقصور « جبدان » كانت تجاور لوحة من تصوير « نيربور » و« عذراء من تصوير « رافائيل » تنافس في شاعريتها تخطيطاً للقصور « جيروديه » ولوحة « لخيراردو » تطلعي على لوحة « لندرو لينج » : وكان فوق مائدة من خشب (اللاكنيه) الصينى طبق من الذهب الملى « بالفاكهة الشبيهة » على أى حال كانت ، هيلين ، شبيهة بملكة في إمبراطورية ضخمة وسط خلج جمع لها فيه عشيقها المتزوج وأنفس الأشياء الموجودة فوق الأرض .

وركب الأولاد نظراتهم بحوية نقادة على جدهم ، وكانوا قد

تعرفوا الحياة وسط الصراخ والأعاصير والزواجر : فصاروا يشبهون أولئك
الرومانيين الصغار المتطلعين نحو الحرب والدم على نحو ما صورهما
« دافيد » في لوحته عن « بروطس »

صاحت « هيلين » وهي تمسك بوالدها كما لو كانت تحاول أن
تؤكد من صحة الرؤية : كيف يمكن هذا ؟

— هيلين !

— والدي !

ووقع كل منهما بين ذراعي الآخر : ولم يكن عنق الأب العجوز
أشد قوة أو عاطفة من عنق ابنته .

— هل كنت فوق ذلك المركب ؟

أجاب بتعبير حزين : وهو يجلس فوق الأريكة : ويتأمل الأولاد
الذين تجمعوا حوله . وصاروا يتحفظونه بانتباه ساذج : نعم ... أوشكت
على الهلاك لولا ... قالت وهي تقاطعه : لولا زوجي ... أظن ...

صاح اللواء : أه لماذا كان مقدراً أنه ألتاك هكذا « يا هيلين »
أنت يا من بكيتك مراراً . كان على إذن أن أتى من أجل مصيرك .

سألت وهي تبسم : لماذا ؟ ألن تذكر إذن سعيداً لو عرفت أنني
أسعد زوجة بين كل الزوجات .

صاح وهو يقفز من الدهشة : سعيدة ؟

— نعم يا والدي .

واصلت كلامها وهي تمسك بيديه وتقبلهما : وتضغط عليهما
بصدرها الخافق : بحيث أضافت إلى هذا التلاطف جو احتفال الخفاوة .
وأصبحت عليه بتألق عينها من الانبساط والسرور دلالة أكبر .

سأل وهو مليء بالتصور لمعرفة حياة ابنته ناسياً كل شيء أمام
طلعتها الساطعة : وكيف هذا ؟

أجابت هي : اصغ يا أبي ... إن عشيتي وزوجي . وعيدي وسيدي
رجل ذو روح أكبر اتساعاً من هذا البحر الذي لا حدود له .
وأشبهه بالمشاء في خصوبة رفته . إنه إله في النهاية ! منذ سبع سنوات
لم تبدر منه قط عبارة أو شعور أو حركة يمكن أن تتأخر مع الانسجام
القدسي في أحاديثه وملاذباته وحيه . لقد نظر إلى دائماً وعلى شفائه
ابتسامة الصديق : وفي العينين شعاع من الفرح . ويسيطر صوته
الشبيه بالبرعد هناك فوق السفينة على زفير العواصف أو زواجر المعارك
أما هنا فصوته رقيق منغم مثل موسيقى « روسيني » الذي تفضل أعماله
الحنينة إلى هنا . إنني أحصل على كل ما يمكن أن تبتدعه ذوايت امرأة .
بل إن رغباتي تستوفى أحياناً بأكثر من المطلوب . إنني مملكة البحر
وطاعتي واجبة هنا كما لو كنت حاكمة — أوه ! سعيدة .. ! واصلت
كلامها وكأنها تقاطع نفسها : سعيدة ليست الكلمة التي تستطيع أن تعبر
عن سعادتي . إن لي نصيب كل النساء ! الإحساس بالحب ! والتفاني
الكبير من أجل المحبوب : والالتقاء في قلبه . . . الخاص به . . . بشعور

لا نهائي تضيق فيه روح المرأة وعلى ... الدوام دقل لي ... هل هذه هي
السعادة ؟ لقد التهمت ألف وجود حشوت بها ووجدت أنا وحدي .
ها أنا ذا وحدي الآمرة . ولم تظأ محاولة لمن جنسى قدمها فقط فوق هذه
السفينة النسيبة حيث يوجد « فيكتور » دائماً على بعد خطوات مني إنه
لا يستطيع أن يبعد عني إلا بحقدار عا يذهب من مؤخرة السفينة
إلى مقدمتها ... ثم واصلت بتعبير دقيق خبيث : سبع سنوات ! حب
يقاوم طول هذه السنوات السبع . هذه المنعة المتصلة . وهذه التجربة
المستمرة في كل اللحظات .. هل هذا هو الحب ؟ لا ! أوه ! لا .
إنه أفضل من كل ما أعرفه في الحياة ... ويتقص لغة الناس القدرة
على التعبير عن سعادة علوية من السماء .

وأفادت سيل من الدموع من عينيها المحتدمتين . فألقى الأطفال الأربعة
عندئذ صيحة شكرى . وجروا نحوها مثل جري الكناكيت صوب أمهم .
وأدهش الأكبر اللواء بنظرته إليه في تهديد .

قالت : « آيل ! ... باملاكى إني أبكى من الابتهاج .
والحمد لله فوق ركنيتها غربت الطفل عليها بألفة . وهو يمر بذراعيه
حول رقبة « هيلين » ذات الحلال كالشبل الذي يريد اللعب مع أمه .
صاح اللواء وقد أذهلته إجابة ابنته الحماسية : ألا تملين ؟

أجابته : بلى . على الأرض حين نذهب إليها . وحتى هناك لا أفارق
زوجي على الإطلاق .

واكنك كنت مشغوفة بالحفلات والأعياد والموسيقى ؟
الموسيقى هي صوتة . أعيادى هي الحلى التي أبدع وضعها أمامه .
وعندما تعجبه زينتى ، أليس هذا كما لو كانت الأرض بأكلها تعجب
بذا ذاك فقط هو السر الذى يسيبه لا أرغب فى وداع كل هذه الماسات
والعقود والشيجان والأحجار الكريمة والثروات والزهور وروائع الفن التى
يجزى لي عطاءها وهو يقول : « هيلين » مادمت لا تذهبين إلى المجتمعات
فإني أريد أن تأتي اجتماعات إليك .

— ولكن فوق هذه الضيقة يوجد رجال ... رجال شديدي الوفاة
مقرعون لهم شهوات ...

قالت وهي تبسم : إني أفهمك يا آيت ... اطمئن . لم تكن إميراطورة
محاطة برعاية وإكرام مثلاً بيدى لي . فهؤلاء الناس يتطرون وينشاءون
وبرهبون القدر . ويعتقدون أننى الروح الحامية لهذه السفينة وأشهر وعائهم
ولتجاحهم . أما هو فإفهم . وفي إحدى المرات حدث يوماً أن واحداً من
الملاحين لم يوف لي الاحترام ... قولاً — أضافت ضاحكة — وقبل أن
يلتص « فيكتور » ذلك إلى رجال الطاقم الرجل في البحر برعم العفو الذى
منحه إياه . إنهم يحبوننى مثل ملائكتهم الطيبين . إذ أنى أرفعهم عند
المرض . وكان لي حظ إنقاذ بعضهم من الموت بالمسهر عليهم في ثبات
المرأة وبواجبها . فهؤلاء الرجال المساكين عمالقة وأطفال في آن معاً .

— وعندما تنفج المعارك ؟

— لقد تعودتها ولم أرتعد إلا خلال المعركة الأولى... أما الآن فقد ألفت روحى هذا الخطر بل حتى... إننى ابتكت... وإننى أحبه.

— وإذا جئتك ؟

— وإذا خيلك؟

سأهبط

أولاً:

- إنهم أولاد أخيه وأخضره وبفأسه ون والديهم بحياتهم . وجودنا
وجود واحد ولا ينقسم . إنما نعيش جميعاً نفس المعيشة . والجميع مسجلون
على نفس الصفحة ، ومحمولون على نفس الزورق . نحن نعرف ذلك .
- أنعمته إذن إلى هذا الحد حتى تفضليه على كل شيء ؟

قالت في تكوار : على شكل شيء ولكن ليس علينا أن نستطيع فهم
هذا السر ، على فكرة ! هلنا الطفل العزيز .. بشكل ما هو أيضاً ؟ هو ، !
ثم ضغطت على ، آييل ، بقوة عويصة - وانهاالت نطبع قهلات ملهم
مباخديه وشعره ...

صاح الدواء : ولكن ... لن أعرف كيف أدسي أنه قدف منذ قليل
تسعة أشخاص إلى البحر .

— كَانَ لَابَدَ مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ شَيْءٍ ... لِأَنَّهُ ذُو دَوَافِعٍ إِنْسَانِيَّةٍ وَكَوْنِهِمْ
إِنَّهُ يَسِيلُ أَقْلُ دَمٍ تُمْكِنُ لِكَيْ يُحَافِظَ عَلَى مَصَالِحِ عَامَّةِ النَّاسِ الَّذِينَ
يُحِبُّهُمْ وَعَنِ التَّحْقِيقِ الْمُقَدِّسَةِ الَّتِي يَدَافِعُ عَنْهَا . حَادِثُهُ عَمَّا تَرَادَّ سَيِّئاً وَسَوْفَ
تَرَى أَنَّهُ سَبْعُ عَرَفَ كَيْفَ يُجْعَلُكَ تَغَيَّرَ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِكَ .

قال النواه كما لو كان يتحدث إلى نفسه : وجرعته ؟
أجابت هي في اعتزاز بارد ولكن ... إذا كانت هذه فضيلة ؟ إذا
لم يستطع العدل الإنساني أن يستقيم له ؟

صباح الاءاء : يستقيم النفس ؟

سألت : وما هي جهنم إذا لم تكن انتقاماً أبدياً من أجل بعض الأخطاء في يوم من الأيام !

— آء ! لقد ضلعت . لقد رقاك وقية سحرية . لقد جليل أفكارك
أنت جليل .

— ابقى هنا يوماً يا والدي . وإذا كنت أن تصغي إليه وأن تتأمله
فلسوف تحبه .

قال المولود بينهم : هـ حيلين ، إنا على بعد فراسخ من قوتنا .
وحفلت ، ونظرت من كثرة الحيرة . وأشارت إلى البحر وهو
يسقط خيلا هائلا من الماء الأخضر .

أجابته وهي تطرق السجادة بمطرف قدمها : هاك بلاوى .

— وَلَكِنْ أَنْ تَأْتِيَ لَنَرِي أَمْرَكَ وَأَخْبِكَ وَأَعْلَمِكَ !

قالت والمذموم في خلقها : أوه ! نعم ! إذا أراد هو . وإذا
كان في استطاعته أن يرافقتي .

واصل الرجل العسكرى : لم يعد لك شيء يا هيلين الا وفتن
ولا أسرة ؟ ..

أجابته في حالة من الزهو ويلهجة منبهة بالنبل : إنني زوجته ...
هالك منذ سبع سنوات أول سعادة لا تأتي مني . وأضافت وهي تمسك
يد والدها وتقبلها : وهالك أول مؤاخذه أسمعها .
- وخميرك ؟

- خميرك ؟ إنه هو خميرك .

ثم ارتعدت بشدة في هذه اللحظة وقالت : ها هو ذا . . حتى في
وقت المعارك أعرف على خطوته من بين كل الخطوات فوق السطح .
وفجأة جعلت الحمرة تغلبها أرجوانيين . وجعلت ملاحظتها شائعة
وعينها لامعتين . وصارت بشرتها بيضاء بياضاً مطلقاً . . . كأن ثمة
سعادة وحب في عضلاتها . وفي عروقها الزرقاء . وفي رعادتها غير
الإرادية كأي إنسان . وقد انقلع اللواء إزاء هذه الحركة المشحونة
بالحساسية .

وفعلاً بعد لحظة دخل القرصان . وجاء يجلس فوق مقعد كبير .
وأمنك بآبته الأكبر وأخذ يلعب معه . وساد الصمت لحظة . إذ أخذ
اللواء يتأمل بعض الوقت هذه القمرة الأنيفة الشبيهة بعش العصافير
الأسطورية . وهو مستغرق في أحلام مثل الشعور المبهم في خيالات
التعاس . ففي هذه القمرة توجت هذه الأسرة فوق سطح المحيط
منذ سبع سنوات بين السماوات والأمواج . معلقة بإيمان رجل واحد ،
ومسوفة خلال أخطار الحرب والعواصف كما يكون أحد اليرب الغائبة

مسلياً قيادة في الحياة قرب قلب النقاء الاجتماعي . . . وظل بإعجاب إلى
ابنته . . الصورة الوهمية لإلهة البحرية . . عذبة الخيال . . غنية بالسعادة . .
ويبدو كل ما حوطا من كنوز باهتا إلى جانب كنوز روحها ومضات
عينها والشاعرية التي لا توصف والتي تغير عنها في شخصها وفي حوطا .
وأعطاء هذا الموقف غرابة أذهلت . وعلموا وسعوا في العاطفة وفي
الاستدلال . غلطاً بالأفكار العادية البسيطة . وكانت الروابط
الاجتماعية الباردة المخلوطة الأفق تموت إزاء هذه اللوحة . وأحس الرجل
العسكري العجوز بكل هذه الأشياء . وفهم كذلك أن ابنته لن تهجر
إطلاقاً مثل هذه الحياة النسيجة الخصبية في تقابلاتها المليئة بحب صادق
إلى هذا الحد . ثم إنها إذا كانت قد تذوقت مرة خطراً دون أن تنابه
فلن تستطيع العودة إلى المشاهد البسيطة في مجتمع مبتذل مخلود .

سألت القرصان فاطماً الصمت وناظراً إلى زوجته : هل أخذكما ؟
أجابته اللواء : لا لقد روت لي هيلين كل شيء وأرى أنها ضاغت
من أجلك .

قال القرصان بقوة : لا . بعد بضع سنوات يحكم حق الاكتساب بمعنى
الوقت سيؤدني بالعودة إلى فرنسا . عندما يكون الضمير نقياً وسحبيل
قوانينكم الاجتماعية التي أطاعها رجل . . .
ثم سكوت مستذكراً أن يأخذ في تزيير مسلكه .
قال اللواء مقاطعاً إياه : وكيف تستطيع . . . كيف تستطيع ألا تشعر

بوتغرات الضمير إزاء عمليات القتل الجديدة التي ارتكبت أمام عيني ؟

أجاب القرصان بهدوء : « ليس لدينا مؤن للغداء » .

— ولكن إذا فزل هؤلاء الرجال على الشاطئ ...

— سوف يقطعون علينا خط الرجعة ببعض المراكب ، ولن نتمكن

من الوصول إلى (شيلي) .

قال اللواء مخاطباً : « قبل أن يخطروا في فرنسا وأميرالية البحر الأسبانية » .

— بل إن فرنسا تستطيع أن تستاء من رجل لا يزال خاضعاً لمحاكم

الجنابات فيها ، ويسمح لنفسه بوضع اليد على مركب شرعي ذي

خارزين مجهز بطاقم من أبناء « بوردو » . وعلاوة على ذلك ألم نطلق

بعض الأحيان طلقات عديدة من المدافع أكثر مما يلزم في ميدان

المعركة ؟

وسكت اللواء . وقد أحجمته نظرة القرصان . ونظرت إليه ابتـه

بتشكل يعبر عن الانصهار أكثر مما يعبر عن الحزن ...

قال القرصان بصوت منخفض : « يا لواء ، لقد شرعت لنفسى قانوناً

بعدم تثبيت الأسلاب على الإطلاق ، ولكن مما لاشك فيه أن قصبي

سوف يكون أكبر شأناً مما كانت ثروتك . فاستمع لي بأن أعيد لها

في عمليات أخرى ...

وسحب من حرج البيانو كتلة من الأوراق المالية ، دون أن يعد

كل حزمة . وقد تم مليوناً منها إلى الماركيز . ثم واصل كلامه :

« فأنت تعرف أنه لا يمكنني أن أتسلى بمشاهدة العابرين في طريق (بوردو)

والواقع أنه إذا لم تكن قد استهوتك أخطار حياتنا اليوهيمية ، ومشاهد

أواسط أمريكا ، ولياليا الاستوائية ، ومعاركتنا ، ومنعة تحقيق النصر

لرأية أمة صغيرة أو اسم « سيمون بوليفار » فعليك أن تفارقنا ... يوجد زورق

طويل ورجال مخلصون في انتظارك ، وأنعمهم لقاء ثالثاً تكون السعادة

فيه تامة ...

قالت « هيلين » في نغمة مستاءة : « فيكتور ، أود رؤية أي لحظة

أخرى » .

— عشر دقائق أكثر أو عشر دقائق أقل قد توقعنا وجهاً لوجه

أمام مركب حربي . ليكن ! سوف نتسلى قليلاً ، فرجالنا في ملل .

صاحت زوجة البحار : « أوه ! ارحل يا أي . واحمل إلى أخني وأخوتي

وإلى ... أي . هذه التأكيدات والوعود مما أحفظه من ذكرياتي » .

وأخذت قبضة من الأحجار الكريمة والعقود والجواهر ونفثها في بعض

الخربير الكاشمير وقدمتها إلى والدها في خياء .

مدأها وهو يبدو مذهولاً من تردد ابنته المملوطة عندما نطقت

بكلمة « الأم » : « وماذا أقول فم من قبيلتك ؟ » .

— أوه ! هل تستطيع أن تشك في روحي ومشاعري ، إنني

أدعو كل يوم من أجل سعادتهم .

واصل العجوز كلامه فاضراً بالنباه : « هيلين » ، ألن أراك بعد اليوم ؟

الآن أعرف أبدأ لأي دافع إذن يرجع هربك ؟

قالت بنعمة متجهمة : « إنني لا أملك هذا السر ، كان يحق لي أن أبلغك إياه ، لكنني حتى آنذاك قد لا أبلغك إياه . لقد عانيت أثناء عشر سنوات من شروخ لا تصدق ... »

ولم تكمل بل مدت يدها إلى أبيها بالهدايا التي شاءت أن تبعث بها إلى أمريتها . وكان اللواء قد اعتاد في أثناء أحداث الحرب أفكاراً واسعة الأفق فيما يتعلق بالأملاك ، فقبل الهدايا المقدمة من ابنته . وأرضاه أن يفكر أن القبطان الباريسي ظل رجلاً شريفاً في حربه ضد الأسبان ، تحت تأثير إلهام روح على هذا القدر من النقاء والتربية مثل روح « هيلين » . وغالبته مشاعر حداسة للشجعان ، وظن أنه سيكون محل سخرية إذا تصرف كرجل شديد التعفف ، فضغط بشدة على يد القرضان ، وقبل حبيبته ، هيلين ، ابنته القريظة في رقة خاصة بالجنود ، وسقطت دمعة على وجهه ذي الغرور . وابتسم لها تعبيرة الخازم أكثر من مرة . وانفعل البحار بقوة فأعطاه أولاده لبياركهم . وفي النهاية قال الجميع كل للآخر وداعاً للمرة الأخيرة ، خلافاً نظرة طويلة لم تحمل من حنان .

صاح الجرد وهو يبتعد بنفسه إلى السطح : « كونوا دائماً سجداء » . وكان ثمة مشهداً فريداً في انتظار اللواء ، فقد أودعت « سان فيردينان » النار فاشتعلت كنار ضخمة هبت في مقدار من قش . وشغلت الملاحين عملية

حرق السفينة الأسبانية ، ولاحظوا في أثناء ذلك أنها كانت تحمل فوق ظهرها حمولة من « الروم » ، « البكير » ، « الخمور القوية » التي كانت متوافرة فوق « عطيل » ، ووجدوا أنه قد يكون ممكناً أن يشعلوا حمولة كبيرة من المربيع الكحول وسط البحر ، وكانت هذه تسليمة مقبولة إلى حد ما بالنسبة إلى قوم يجعلهم رغبة البحر الظاهرة . ينهزون كل القرص من أجل بيع الحياة في معاشهم . وعند نزول اللواء من المركب إلى الزورق الذي ينتمي إلى « سان فيردينان » والذي يشغله ستة من الملاحين الأقوياء ، وجد نفسه لإرادياً يقسم انتباهه بين حريق « سان فيردينان » وابنته المعتمدة على القرصان . فكلاهما يقف في مؤخرة مركبه .

ولما كمل هذا القدر من المذكرات نسي اللواء وهو يرى قستان « هيلين » الأبيض يرفرف خفيفاً مثل شراع إضافي . ويبرز هذا الشكل الجميل الطويل فوق المحيط برهينة التي تفرض نفسها وتسيطر على كل شيء حتى البحر . نسي اللواء أمام هذا كله بفعل لامبالاة الرجل العسكري أنه كان يتموج فوق مقبرة الرجل الشجاع « جوفيز » . وامتد فوقه عمود ضخم من السحاب الداكن الذي كانت تتخلله وتنفذ فيه أشعة الشمس هنا وهناك فتكسبه وهجاً شاعرياً . كان ذلك أشبه بسماء ثانية . قبة قائمة تتلألأ تحتمل أنواع من التريات ، وتخلق فوقها زرقة السماء التي لا تتغير ، والتي بدت أجمل ألف مرة بفعل هذا التماثل العارض . وكانت الأصباغ العجيبة في هذا الدخان الذي بدا أحياناً مائلاً إلى

الاصفرار ، وأحياناً ذهبياً ، وثالثة أحمر اللون أو أسود . قد ظهرت كأنها مصهورة في شكل أغرة تغطي المركب الذي ظل يلعب ويقرقع ويطن طنباً أشبه بالصراخ . وعلا صفير الشعلة ، وهي تحضر الحبال وجرت داخل المركب مثلما تطير نورة شعبية في طرقات المدينة ، وكانت تصدو عن شراب (الروم) نار ذات ظب أريق يرتفع كما لو كانت حنية البحار قد حركت هذا « اليكبر » (الأحمر القوي) الغاضب . وكأنها حركت أيضاً يد طالب من طلاب العلوم ذلك اللهب بمزيج من الكحول والسكر في أثناء احتفال من احتفالات إله الأحمر . ولكن الشمس كانت أقوى ضوءاً وكانت تحس بخبرة من ذلك الوميح الوقح ، فلم تعد تظهر خلال أشعها إلا قدراً ضئيلاً لا يكاد يذكر من ألوان الحريق ، وأصبحت كقفص أو كوشاح يخفق وسط سبل من نيرانه .

وتعلقت (عطيل) بالرياح القليلة التي استطاعت أن تلتقطها في ذلك الانجاء الحديد كيم تلوذ بالهرب . وكانت تميل مرة على جانب ، ومرة على الجانب الآخر كطيارة تهايل في الهواء . وكان هذا المركب الشراعي ذو الصواري وذو الشكل الجميل يلوذ بالفرار نحو الجنوب . وكان أحياناً ، يختفي عن أنظار الهواء وراء العمود المستقيم الذي كان ظله يسقط بطريقة وهمية فوق المياه . وكان أحياناً آخرى يظهر وهو يرتفع في خفة وانفلات .

وفي كل مرة كانت « هيلين » تستطيع أن ترمق أباهما : وكانت تأخذ في

تحريك منديلها لتحيته . وسرعان ما غرقت « مابل فير ديان » محدثة غلباً لم يلبث أن أزال المحيط أثره . ولم يبق من كل هذا المشهد بعد ذلك سوى سحابة متأرجحة بفعل الرياح . وصارت (عطيل) بعيدة واقرب الزورق من الساحل . واغترفت السحابة بين هذا الزورق الطش والمركب الشراعي . وكانت آخر مرة رأى فيها الهواء ابنته خلال شق بين هذا الدخان المموج . رؤية أشبه برؤى الأنبياء ! وكف المنديل الأبيض والفساتين وحدهما عن أن تقع عليهما العين فوق هذه الأرضية التي لها لون الصدا ، ولم يعد المركب الشراعي مؤثراً بين الماء الأخضر والسماء الزرقاء . ولم تعد « هيلين » سوى نقطة لا ترى أو مجرد خطر متعلق رقيق ، أو ملاك من ملائكة السماء ... مجرد فكرة ... أو ذكرى .

بعد أن نفي الماركيز نرونه مات متهوئاً من الإجهاد . وبعد وفاته ببقعة أشهر في سنة ١٨٣٣ اضطرت الماركيزة إلى أن تصبح « موبينا » إلى مياه (اليربنيه) وأرادت الطفلة الفوائية المزاج أن ترى روائع البحال . وعادت إلى المياه . وعند عودها حدث مشهد مروع . وهذا مؤداء .

قالت « موبينا » : يا إلهي لقد أسأنا يا أمي بعدم المكوث أياماً أطول في البحال ! لقد كنا هناك في حال أفضل من هنا بكثير . هل استمعت إلى الأبن المواصل الذي يصدره هذا الطفل الكريه ، وثرثرة هذه المرأة الشقية التي تتحدث بدون شك في لغة إقليمية . لأنني لم أفهم امرأة في اللاتين

كلمة واحدة من على ما قالته ؟ أى نوع من الناس هذا الذى صار جاراً لنا ! لقد كانت هذه الليلة أبشع ليلة قضيتها فى حياتى .

أجابت الماركييزة : « إني لم أسمع شيئاً .. ولكن يا مفضلتي العزيزة سوف أبحث عن المضيقة . وأطلب منها الغرفة المجاورة ، وستكون بمفردها فى الجناح . ولن تحدث صوصاء بعد الآن . كيف حال صحتك هذا الصباح ؟ هل أنت مجتهدة ؟ »

وعندما قالت الماركييزة هذه العبارات الأخيرة نهضت لتتقرب من سرير « مونيكا » وقالت لها وهي تبحث عن بدنها : « أرىنى . »

أجابت « مونيكا » : « آوه ! دعيني يا أمي فأنت مبهدة . »

عند قول الفتاة الشابة هذه الكلمات تدهرجت تحت وسادتها بحركة تقطيب . ولكن فى نظرف . بحيث كان من الصعب على أم أن تستاء منها . وفى هذه اللحظة صدرت شكوى بلهجة ناعمة طويلة تكاد تمزق قلب المرأة وتندوى فى الغرفة المجاورة .

— ولكن هل استمتعت طيلة الليلة لهذا ؟ ولماذا لم توقظيني ؟

كنا استطعنا .

وإذا أنين أشد عمقاً من كل ما سبق يقاطع كلام الماركييزة التي صاحت : « هنا شخص يحضر ! » - وخرجت بقوة .

صاحته « مونيكا » : « أرسلى « بولين » إلى هنا ! سوف ألبس ملابسى . » وهبطت الماركييزة مسرعة . وقابلت المضيقة فى الغناء وسط أشخاص

قالوا يصغون إليها كما يندو وباتتياه .

— سيدتى . لقد وضعت فى الغرفة المجاورة شخصاً يندو أنه مريض مرضاً شديداً .

صاحت سيدة الفيلق : « آه ! لا تحدثني عن تلك المرأة ، لقد أرسلت من يحضر فى العيادة . تصورى أنها امرأة شقية تعيسة وصلت بالأمس مساء هنا على قدميها . إنها قادمة من (أسبانيا) بغير جواز سفر وبغير تقويم . لقد حملت فوق ظهرها طفلاً يحضر . ولم أستطع أن أعتذر لها عن استقبالاتنا هنا . وفى هذا الصباح ذهبت بمسى لأراها . لأنها حين هبطت هنا بالأمس ألقت فى نفسى الكبرياء مؤثلاً . مسكينة هذه المرأة الصغيرة ! لقد كانت نائمة مع طفلها وكلاهما فى نزاع مع الموت . قالت لى وهي تخرج « ديلة »

دهية من إصبعها : « سيدتى . لم أعد أملك سوى هذه . عذبتها ثمتاً حيناً عندك . وسيكون ذلك كافياً فليكن تكون إقامتى طويلة . بالمسكينة الصغيرة ! لقد قالت وهي تنظر إلى طفلها : « سوف نموت معاً . » فأخذت « ديلها » وسألها من هي ؟ ولكنها لم تشأ إطلاقاً أن تبوح باسمها . فأرسلت أطلب الطبيب والسيد العمدة .

قالت الماركييزة : « ولكن أعطيها كل النجدة التي تارمها . يا إلهي الأبرار نمة وقت لإتقاذها ! سوف أدفع لك كل المبالغ التي تنفقها ... »

— آه ! يا سيدتى . يظهر أنها شديدة الزهق والكبرياء . ولا أدري

ما إذا كانت توافق على ذلك ...
— سأذهب لأراها ...

وفي الحال صعدت الماركيزة إلى غرفة المجهولة دون أن تفكر في الألم الذي قد تحدثه رؤيتها لدى هذه المرأة في اللحظة التي يقال عنها أثناءها إنها مختصر . وامتنع أول الماركيزة لمراى المختصرة ، فالرغم من كل الآلام المفرقة التي غيرت من طليعة « هيلين » الجميلة تعرفت الماركيزة على ابنتها الكبرى . وعند مرأى المرأة التي تلبس الثياب السوداء اعتدلت « هيلين » في جلوسها ، وصرخت صرخة فرح ، وسقطت ببطء فوق سريرها . إذ تحققت أن تلك المرأة كانت أمها .

قالت السيدة « ديجليسون » : « ابنتي ! ماذا يازملك ؟ » « هيلين » : « موينا » ...
أجابت « هيلين » بصوت ضعيف : « لم أعد في حاجة إلى شيء . كنت أعتزم رؤية أبي . ولكن جدادك يريني ... »
ولم تكمل . وضعت طفلها إلى قلبها كيما تدفئه . وقبلته فوق جبينه ، ونظرت إلى أمها نظرة يقرأ فيها العتاب مخففاً بالعذر . ولم تشأ الماركيزة أن تفهم هذا العتاب ، وتبين أن « هيلين » كانت فيها معنى طفلة محبوبة بالدموع واليأس ... طفلة الواجب ... طفلة كانت سبباً في كل ما لزل بها من الشقاء الكبير . وتقدمت بركة نحو ابنتها الكبرى . وهي تتذكر فقط أن « هيلين » كانت أول من عرفها مع الأمومة . وكانت بعينا الأم على اثنين بالدموع . . . وعندما قبلت ابنتها صاحبت : « هيلين » : « ابنتي ... »

واحتفظت « هيلين » بالضميمة . واستنقشت آخر تهاد صلبه عن آخر أطفالها .

في تلك اللحظة دخلت « موينا » و « هيلين » خادمتهما والمضيفة والطبيب . وأمسكت الماركيزة بين يديها بيد ابنتها الباردة كالثلج ، ونأملت في يأس حقيقي . لقد أحق الشقاء أرمل البحار التي استطاعت أن تنجو من الغرق دون أن تنفذ من كل أسرتها الجميلة سوى طفل واحد . وقالت لأمرها بصوت مفرع : « كل هذا من إنتاجك ! لو استطعت أن تكره لي ما ... »

صاحت السيدة « ديجليسون » وهي تحكي صوت « هيلين » بوقع صوتها : « « موينا » الخرجي . اخرجوا جميعاً ! »
واستطردت الأم : « يا ابنتي دعينا دون أن نحدد في هذه اللحظة ذلك الصراع الحزين ... »

أجابت « هيلين » وهي تقوم بمجهود غير عادي : سوف أسكت لقد صبرت أمّاً وأعرف أنه يجب بالنسبة إلى « موينا » ألا ... أين طفلي ؟
وعاودت « موينا » الدخول مدفوعة بالقبول . وقالت تلك الطفلة المدللة : « يا أختي هاك الطبيب ... »

واصلت « هيلين » : « كل شيء غير محتمل . آه لماذا لم أمت في سن السادسة عشرة عندما كنت أريد أن ألحق ! إن السعادة لا يمكن أن تحيد عن قوانينها ... » « موينا » : « أنت ... »

ومانت « هيلين » وهي تحمل برأسها حجر رأس طفلها الذي قصته
بشنج .

قالت السيدة « ديجليمون » عندما عادت إلى غرفتها حيث صهرتها
الدموع : لقد أرادت أختك بلاشك أن تقول لك يا « مورينا » إن السعادة
لا توجد أبداً بالنسبة إلى الفتاة في الحياة الخيالية الروائية المثقلة وبعبداً
عن الأفكار المقبولة وبخاصة بعيداً عن أمها .



عن بعض النروان ، وعن أن بعض النساء الشابات لا يردن استطاء
الحليل . أو أن أحد الدبلوماسيين المستن لا يجد محلاً لأداء بعض الشريقات
في هذه المحطة . . . خدم وسادة . . . الكليل ينال أو الكليل يستيقظ .

وكانت السيدة المسكرة جداً هي المار كيزه ديجليمون ، والددة السيدة
« دى سانت هيرين » التي تملك هذا القصر الحليل . فقد حرمتم المار كيزه
نفسها من هذا القصر لصالح ابنتها التي وهبتها كل ثروتها دون أن تحتفظ
لنفسها بغير معاش مدنى الحياة . وكانت « الكونتيسة مريتا دى سانت
هيرين » آخر من رزقت به السيدة ديجليمون ، من الأطفال ، ولكي تصبح
قرينة وزير بيت من ألمع البيوت الفرنسية ضحيت المار كيزه بكل شيء .

ولا شيء أكثر طبعية من ذلك : فقد حسرت ولدين على التوالى :
أحدهما « جوستاف مار كيز ديجليمون » الذي مات بالكوليرا ، والثاني
« أبيل » الذي رل عند (فلسطين) . وقد أخلف « جوستاف »
أرملة وأطفالاً . ولكن عاقبة السيدة ديجليمون « الفاترة نحو » ولديها
كانت أكثر ضعفاً أيضاً حينما انتقلت إلى أحفادها الصغار ، وكان
ملاوكها مهلباً بحال السيدة ديجليمون الصغرى ، ولكنها تمسكت بعاطفة
سلطانية بما يفرض عليها الذوق السليم واللباقات أن تظهره حبال قهر باننا .

وما كانت ثروة أولادها الذين ماتوا قد تمكنت سمويتها فقد احتفظت
لعزيرتها « مريتا » بكل مدخراتها وأملأوها الخاصة . وكانت « مريتا »
منذ طفولتها جميلة جداً ، فصارت بامتسار بالتسبة إلى السيدة

شيخوخة أم مذنبه

أثناء يوم من أوائل شهر يونيو سنة ١٨٤٤ كانت سيدة في حوالي
الخمسين من عمرها - وإن كانت تبدو أكبر سناً من عمرها الحقيقي -
تتمتع في الشمس ساعة الظهر على طول ممشي حديقة قصر كبير في
شارع « بلوميه » بباريس . وبعد أن دارت دورتين أو ثلاثاً في الطريق
الضيق المتعرج ، حيث بقيت حتى لا تغيب عنها رؤية شبايبك الخناج
التي يبدو أنها كانت تحذب كل انتباهها ، جاءت تجلس على أحد
المقاعد نصف الريفية التي كانت تصنع من أغصان أشجار صغيرة مزودة
بقشورها . ومن المكان الذي كان فيه ذلك المقعد الأنيق كانت السيدة
تستطيع أن تتدفق إلى أسوار القلاء والمتنزهات الداخلية التي وضعت في
وسطها قمة « الأنفاليد » الذهبية الرائعة التي ترتفع بين أعالي آلاف
أشجار (الدردار) وإلى المنظر الجميل ومظهر الحديقة الأقل عظمة
التي تنتهي عند واجهة ومادية لأروع قصور صاحبة (سان جيرمان) .
وهناك صمت مطلق ، والحدايق المأورة والمتنزهات (الأنفاليد) مقبرة
نابليون ، لأن هذا الحى العريق لا يبدأ فيه النهار إلا ظهراً . وبعض النظر

« ديجليمنون » موضع إيثار أشبه ما يكون بتلك الإشارات الفطرية أو الإرادية لدى أمهات الأسر . . . تعاطفات محدودة تبدو بغير تفسير أو فعل الملاحظين يعرفون تفسيرها أكثر مما يحظر على البال . وكان كل شيء في « موبنا » . . . وجهها الجذاب . . . ورنه صوت هذه الإبنة المدللة . . . طريقها . . . خطواتها . . . هيئة سجنها . . . حركاتها . . . كل شيء كان يوقظ لدى الماركةزة أشد الانفعالات عمقاً وأكثرها قدرة على الإحياء أو بحث الاضطراب أو أسر قلب الأم . لقد كان مبدأ حياتها الحاضرة وحياتها المستقبلية . وحياتها الماضية . ميثوثاً في قلب هذه المرأة الشابة حيث ألقت بكل كتوزها .

ومن حسن الحظ أن « موبنا » عاشت بعد وفاة أربعة أطفال كلهم أكبر منها . وقد فقدت السيدة « ديجليمنون » في الواقع على أنفاس بحر ممكن . كما يقول أهل المجتمع . بيتاً ساحرة الفتنة كان مصيرها مجهولاً تقريباً . وصبيّاً صغيراً مات في سن الخامسة في نكبة مروعة . ولاشك أن الماركةزة عاشت يشاردة من بشارات السماء في الاحترام الذي يبدو أن المصير قد احتفظ به لابنة قلبها . وفي الذكريات الضعيفة التي أبقاها عن أولادها الذين سبقوا سلفاً وفقاً لأهواء الموت . فظلوا داخل أعماق روحها أقبابر مقامة في أرض معركة أوشكت أن تحفيها زهور البساتين . وكان في مقبور المجتمع أن يطلب من الماركةزة بياناً قاسياً عن هذه اللامبالاة . وعن ذلك الإيثار والتفصيل . غير أن مجتمع باديس مجذوب

في غضبون سيل من الأحداث والأزياء والأفكار الجديدة ، حتى إن كل حياة السيدة « ديجليمنون » قد خضعت فيها بشكل ما لإراداً للسياح ، فلم يخطر أحداً في أن ينسب إليها جريمة البرود أو السيان التي لم تكن بهم أحداً في حين أن حناها القوي نحو « موبنا » كان بهم قوياً كثيرين . وكانت له القداسة الكاملة التي تمنحها عادة للحكم المسبق .

وعلاوة على ذلك لم تكن الماركةزة تتردد على المجتمع إلا نادراً وكانت تبدو في نظر أغلب الأسر التي تعرفها طيبة رقيقة ورعة متسامحة . والواقع . . . لم يكن من الضروري أن يتوافر للمرء اهتمام قوي حتى ينتقل إلى ما وراء هذه المظاهر التي يكسب بها المجتمع ؟ ثم ما الذي لا نعثره لكبار السن عندما يزولون كالظلال ولا يربطون أن يكونوا سوى ذكرى ؟ على أية حال كانت السيدة « ديجليمنون » نموذجاً يذكره الأطفال لوالديهم ، كما يذكره الأصهار لحمواتهم ملاطفة . فقد أعطت « موبنا » قبل الألوان كل ممتلكاتها سعيدة راضية بسعادة ابنتها الكونثيسة ، ولا تعيش إلا بها ومن أجلها . وإذا كان الشيوع المذرون والأعمام المهسومون قد لاموا هذا السلوك قائلين : سوف تندم السيدة « ديجليمنون » يوماً ما على أنها تخلت عن ثروتها لصالح ابنتها ، لأنها إذا كانت تعرف قلب السيدة « ديجليمنون » هي معلقة جيدة . فهل هي وثيقة أيضاً من أخلاق حصرها ؟ ولكن لم يقابل هؤلاء المنتهون إلا باستباح عام لأن الثناء العطر كان يهطل من كل الأنحاء على « موبنا » كالظفر .

قالت سيدة شابة : لا بد أن يقال هذا الحق في صالح السيدة
« دى سانت هيرين » إذ لم تر أمها أي تبديل حولها . والسيدة « ديجليمون »
تعيش عيشة راقية ، ولها عربتها تحت أمرها . وتستطيع أن تذهب إلى أي
مكان في المجتمع كما كانت من قبل . . .

أجاب طفيلي عجوز بصوت خفيض : واحد من هؤلاء الناس
الذين يرون لأنفسهم الحق في تحصيل أصدقائهم عبارات لاذعة مدعين
بذلك إثبات استغلالهم : باستثناء بيت الإيطاليين . . . ذلك أن الأرملة
لا تحب سوى الموسيقى وأشباه أخرى غريبة في الواقع عن بيتها المذلة . وكانت
موسيقية جيدة في أيامها ! ولكن لما كان مسكن الكونتيسة معرضاً على
الدوام لغزوات الفراشات الشابة . ولا شك أنها متضايقة فيه هذه المرأة
الصغيرة التي يتكلم عنها الجميع سلفاً بوصفها فاتنة كبيرة . . . فالدلك
لا تذهب إطلاقاً إلى بيتها المسىء بالإيطاليين .

قالت فتاة في سن الزواج : إن السيدة « دى سانت هيرين » ، تدبر
لأمها أمسيات ممتعة في (صالون) تتجه إليه باريس كلها .

أجاب الطفيلي : « صالون » لا تسترخي فيه الماركةيرة الشبان أحد .

قال أبله معجب بنفسه مؤكداً جانب الشابات : الواقع أن السيدة
« ديجليمون » لا تكون أبداً بمفردها .

أجاب الملاحظ العجوز في صوت خفيض : في الصباح . . . في الصباح
ننام « مويينا » العزيزة ، وفي الساعة الرابعة تكون « مويينا » في الغابة . ومساء
تذهب « مويينا » العزيزة إلى الحفل الراقص أو إلى الولايم . . . ولكن

صحيح أن السيدة « ديجليمون » تملك المورد الأصلي حين ترى ابنتها
العزيزة وهي تقوم بإرتداء ملابسها أو في أثناء العشاء عندما تتناول
« مويينا » العزيزة عشاءها مصادفة مع والدتها العزيزة . . . واستطرد
الطفيلي : وهو يأخذ بلراع رجل شجور مهذب حديث العهد بالبيت
الذي كان يسكن فيه . وبعد ثمانية أيام على الأكثر باسدي رأيت تلك
الأم المسكينة حزينة ووحيدة بالقرب من مدفاتها . سألتها : ماذا بك ؟
فخطرت إلى الماركةيرة وهي تبسم . ولكن من المؤكد أنها كانت تبكي
وقالت لي : لقد فكرت . إنه شيء . فريد أن أجد نفسي وحيدة وقد كان
لي خمسة أطفال . ولكن هذا شيء . يناسب مضميرنا ! ثم إنني سعيدة بأن
أعرف أن « مويينا » تسري عن نفسها . وكانت الماركةيرة تستطيع أن تظلمني
إلى لأنني كنت أعرف زوجها سلفاً . كان رجلاً مسكيناً . وكان يدين
لما بلا شك بخصيعة ومهام في بلاط « شارل العاشر » .

ولكن أخطاء كثيرة تنزل في غضون الأحداث التي تجري بين
الناس في المجتمع . وتندس فيها بحفة غير محسوسة أضراس عميقة إلى درجة
أن مؤرخ العرف الأخلاقي مضطر إلى أن يزن اثباتات ، التي يضعها
كثير من غير المهتمين بلا مبالاة في غير قليل من الحكمة . ولعله
لا ينبغي في النهاية بالنسبة إلينا أبداً أن نقول من هو الخطي ومن هو
المصيب : الطفل أم الأم ؟ إذ لا يوجد بين هذين القلبين سوى
حكم واحد ممكن . وهذا الحكم أو القاضي هو الله . . . الله الذي

غالباً ما ريت انتقامه في وسط الأمر . ويستعين استعانة أبدية بالأولاد
ضد الأمهات ، وبالأبناء ضد الأبهاء ، وبالشعوب ضد الملوك ،
وبالأمراء ضد الأمم ، وبكل شيء ضد كل شيء . . . وذلك بأن يعتمد
في عالم الأخلاق إلى إحلال مشاعر معينة محل أخرى ، كما تدفع أوراق
الشجر الصغيرة أوراق الشجر الشائخة في الربيع . . . وبأن يتصرف وفقاً
لأمر ثابت ولا يغير لا يعلمه سواء . ولا شك أنه قد وسع لكل ما يقع
أو بتعبير أفضل ، أن مرجع كل شيء إليه .

وكانت هذه الأفكار الدينية ، الطبيعية جداً في قلب المستنير
تلقوا مبعثرة في روح السيدة ، ديجليسون . فقد كانت المعالم هنالك
واضحة نصف وضوح . فأحياناً تعتم . وأحياناً تنبسط انبساطاً كاملاً
كالزهور التي تزعجها العاصفة فوق سطح المياه . كانت جالسة بمهدة
ضعيفة بفعل تأمل طويل ، أو بتأثير أحد هذه الأحلام التي تنتصب في
وسطها الحياة بأكملها وتنسبط في عيني أولئك الذين يستشعرون الموت .

وكان يمكن أن تصبح هذه المرأة التي شاخت قبل السن لوحة غريبة
بالنسبة إلى بعض الشعراء العاهلين في «بوليفار» (المتزه الكبير) .
إذ كان يمكن أن يعرف كل الناس عند رؤيتها جالسة في ظل شجر
الطلح الرطب . . . في ظل شجر الطلح عند الظهيرة . . . كان يمكن أن
يعرفوا جميعاً كيف يقرءون آلاف الأشياء المكتوبة فوق ذلك الوجه
الشاحب البارد حتى حين يوجد وسط أشعة الشمس الدافئة .

فقد كان وجهها المليء بالتعبير يمثل شيئاً أكبر خطراً من مجرد حياة تدبيل ،
أو أعمن من مجرد روح انحطت بالتجربة . لقد كانت أحد الأنماط
التي تستلقت نظرك ، وتدفعتك إلى التفكير من بين ألف وجه يستهان
به خلوه من أي طابع . فكما لو كنت إزاء ألف لوحة في متحف . ثم
تجد نفسك متأثراً بقوة سواء أمام رأس «ميريديو» النافذة الخفيفة التي
صورتها أم الأمومة . أو أمام وجه «بياتريكس تشينكي» التي استطاع
المصور الإيطالي «لوجيد» أن يصور فيها أكبر براعة تلمس القلب في
أعمق أشع الجرائم أو أمام وجه «فيليب» الثاني الحزين حيث استطاع
«فيلاسكيز» أن يطبع إلى الأبد جلال الرعب الذي توحى به الملكية .
فبحسب الوجوه الإنسانية ذات صور طاغية تتحدث إليك ، وتستجوبك ،
وتجيبك عن أفكار الخفية . بل تنظم أشعاراً كاملة . وكان وجه السيدة
«ديجليسون» الذي يشبه الناج واحداً من هذه القصائد المفرعة . أو واحداً
من تلك الوجوه المنتشرة بالآلاف في «الكوميديا الإلهية» التي ألفها
«دانته أليجييري» .

وتستطيع طابع الجمال المميزة أن تعين تماماً في أثناء الموسم السميرج
الذي تظل المرأة فيه كالزهرة على مداراة ما يقضي به صنعها الطبيعي
وقوانينها . ويمكن أن تهيئ كل الانفعالات خفية تحت التلوين الفنى
في وجهها الناضر . وتحت وهج عينها ، وتحت شبكة ملاحظها الرقيقة
الناعمة . وكثير من الخطوط المضاعفة المنحنية أو المستقيمة مع

اعتقادها بالصفاء وبالتوافق التام . ولا تكشف عندئذ حسرة المحجل شيئاً مع وجود تلوين بالألوان الشديدة القوة . سلفاً . وتنتزع كل المواقف الباطنة اعتباراً حسناً مع اشتغال عينيها بالحياة ، حتى الشعلة العابرة للعناء لا تظهر في كل ذلك إلا كدلال زائد إضافي . وكذلك لا شيء أكثر أمانة في التكميل من الوجه الشاب ، لأنه لا شيء أكثر ثباتاً . فوجه المرأة الشابة يمتاز بهدوء وانصقال ونضارة سطح البحيرة . ولا تبدأ أسباه وجه المرأة إلا في سن الثلاثين !

فحتى تلك السن لا يعثر المصور في وجوههن إلا على لون وردي ولون أبيض . وعلى أنساعات ، وعلى تعبيرات تكرر نفس الفكرة . فكرة الشباب والحب . . فكرة ذات زى واحد . وبلا عمق . ولكن في الشبيبة يكون كل شيء في المرأة قد تكلم . وتكون العواطف قد رسخت فوق وجهها ، فقد كانت عشيقة وزوجة وأماً . وانتهت أعنف تعبيرات البهجة . والآن بأن غصنت وأهكت ملامحها فاندفعت فوقه في صورة ألف من التجميد التي تحتفظ كل منها بلغة معينة . ويصبح وجه المرأة حينئذ جليلاً من الاشترازان جليلاً من الكآبة أو رائعاً من الهدوء . وإذا كان مسودحاً بمواصلة هذه الاستعارة الغريبة قلنا إن البحيرة الحقيقة من مائها تصبح رؤية اتحاد كل السيول التي أوجدتها . فرأس المرأة العجوز لا يصبح بعد ذلك منتمياً إلى المجتمع الذي يربيه . يسبب استناده . أن يستشعر فيه أنهار كل أفكار الأناقة التي اعتادها

أو إلى غلم الفنانين العاديين الذين لا يكشفون فيه شيئاً . ولكنه يظل منتمياً إلى الشعراء الحقيقيين . وإلى أولئك الذين يملكون عاطفة الإحساس بالجمال مستقلة عن كل ما يجري به العرف والاتفاق مما تستند إليه كل الأحكام المسبقة في مسائل الفن والجمال .

وبالرغم من أن السيدة ديجليسون ، قد وضعت فوق رأسها قبعة كالبرنس من أحدث الطرز لم يكن من الصعب رؤية شعر رأسها الذي كان أسود اللون في السنوات الماضية وقد صار أبيض من شدة الانفعالات النفسية . ولكن الطريقة التي فرقته بها في عصبين كانت تبوح ببجودة ذوقها . وتكشف عن عادات الرقة والدلال لدى المرأة الأنيقة ، وترسم جبهتها الذائبة المفضضة بطريقة مكملة في الصورة التي تتوافر فيها بعض آثار يريقها القديم . وكان شكل وجهها وانتظام ملامحها يوضحان بفكرة ضعيفة في الحقيقة عن الجمال الذي كان يملؤها بالقرور ، غير أن هذه العلامات كانت تكشف على الأكثر عن الآلام التي بلغت في الماضي درجة الحدوة اللازمة لكي تحفر وجهها وتنتع الخفاف في فوديتها ، مع تطوير الحدود وانحدار الحفون وانزعاع الرموش التي تخلق دلال الصورة .

كان كل شيء مما كنا في هذه المرأة : خطراتها وحركاتها كانت تتميز بالبطء الزرني واليومي الذي يفرض الاحترام . وبدأ تواضعها الذي استحال إلى حياة نتيجة من نتائج العادة التي اعتادتها منذ بضع سنوات

في أن تصبح لاشيء أمام ابتها ، ثم صار كلامها نادراً عذياً مثل كلام كل الأشخاص المرغمين على أن يفكروا وأن يجمعوا مشتات أفكارهم وأن يعيشوا داخل ذواتهم . وأوحى ذلك الموقف وذلك الحزم بعاطفة لا تقبل التحديد . لم تكن خوفاً أو رافة .. وإنما ذابت فيه خفية كل الأفكار التي توقف هذه العواطف المذوعة .

على أية حال كانت طبيعة نجاحيها ، والطريقة التي تغضن بها وجهها ، وشحوب نظريتها المائلة . كل هذا كان يشهد بأسلوب فصيح على الدموع التي يلتمسها قلبها أولاً بأول . فلا تسقط إحلافاً فوق الأرض وكان الأشقياء الذين اعتادوا تأمل السماء كمن يرفع الله عنهم شرور الحياة . يستطيعون بسهولة أن يتعرفوا في عيني هذه الأم على قصة عادات الصلاة في كل لحظة من لحظات اليوم ، وعلى الدور الخفيف لهذه الأسرار المتخنة التي تنهي بالقضاء على زهور الروح حتى تبلغ عاطفة الأمومة .

ويملك المصورون الألوان اللازمة لأمثال هذه الصور : أما الأفكار والأقوال فلا تقوى على ترجمتها بأمانة . إذ تلغى فيها داخل أنعام لون البشرة ، وفي إطار تعبير الوجه ، ظواهر لا تقبل التفسير مما تتركه الروح عن طريق الأبصار . ولكن حكاية الأحداث التي ترجع إليها مثل هذه الانقلابات المربعة في مسحة الوجه هي الحيلة الوحيدة المتبقية للشاعر كي يجعلها مفهومة . وكان ذلك الوجه يتم عن روعة

حادثة باردة . وعن كفاح حتى بين بطولة ألم الأمومة وسقم مشاعرنا الغافية مثلنا نحن أبناء الشتاء ، ولا يوجد منها شيء أبدي . وشأ عن هذه الآلام المكبوتة باستمرار على طول الزمن شيء . مرض في هذه المرة . ولأنك أن بعض الاقترانات الشديدة العنف قد أحدثت تغييراً جسيماً عضوياً في هذا القلب المليء بالأمومة . وأن مرضاً لعله مرض ، أم الدم ، قد صار يهدد هذه المرأة ببطء على غير علم منها . فالآلام الحقيقية تملو هادئة جداً في مظهرها داخل مهادها العميق الذي تكونت فيه . حيث تظل نائمة ، ولكنها تولى قرض الروح كالحامض الخفيف الذي يتشب التلويح !

في تلك اللحظة انحطت دمعان خدي الماركة . وبقيت كأن فكرة أشد إبلافاً من كل الأفكار قد جرحها جرحاً بالغاً . لأنك أنها تأملت مستقبل « مومنا » ، والواقع أن كل ضرر وب الشتاء الخاصة بحياتها كأنما هبطت على قلبها حين تباينت بالآلام التي كانت تنتظر ابتها . وسيفهم موقف تلك الأم إذا شرحنا موقف ابتها .

كان الكونت « دي سانت هيرين » قد رحل لإيجاز مهمة سياسية منذ قرابة ستة أشهر . وفي أثناء هذا الغياب عسلت « مومنا » التي كانت تملك دواعي الزهو كعشقة أليفة . وجسعت بين كل رغبات الأهواء في الطفلة المدللة إما عن حقة وطيش أو عن رغبة في الانسياق مع آلاف ميول التدلل في المرأة .. ولعلها أرادت أن ترى مدى قدرتها في أن تتعاضد

بعاطفة رجل ماهر ، ولكن بغير قلب يدعى السكر من نشوة الحب ..
ذلك الحب الذي تخرج به كل ألوان العدموج الاجتماعي المغرور
للمختال أحمق .

وكانت السيدة « ديجليسون » ذات تجربة طويلة علمتها معرفة الحياة
ووزن الرجال والحرف من المجتمع . فلاحظت التقدم الذي تحقق خلال
هذه الخديعة . وأحست مقدماً بصيغة ابنها وهي تراها تقع بين يدي
رجل لا يدرك قداسة شيء . ألم يكن ثمة شيء خفي في نظرها أن تعرف
على ملامح رجل داهية في الإنسان الذي كانت تصغي له « مويثا »
بلذة كبيرة ؟ إن طفلها الحبيبة كانت تقف إذن على حافة الهاوية .
وكانت واثقة بذلك ثقة مفرغة ، ولم تجرؤ على أن تقفها ، لأنها
كانت ترتجف أمام الكونية . كانت تعرف مقدماً أن « مويثا »
لم تصغي لأي إنذار من إنذاراتها الحكيم . فلم تملك أي نفوذ على هذه الروح
التي كانت شبيهة بمادة الحديد بالنسبة إليها وغاية في الطراوة واللينة
بالنسبة إلى الآخرين . وفي الماضي كان حنانها يدفعها إلى الاهتمام
بشقاوات عاطفة تسوغها الصفات الرفيعة في صاحب الإغراء ، أما
ابنتها فتتبع بحركة تدلل وفتنة . وكانت الماركة تتهتم بالكونيت ، « الفريد »
ديغاندينيس . تعلمها أنه رجل ينظر إلى صراعة مع « مويثا » كالنور من
أخوار الشطرنج .

وبالرغم من أن « الفريد » ديجاندينيس ، كان موضع التميز من هذه

الأم العجبة ، كانت مضطرة إلى أن تدفن أسباب كراهيتها الشديدة في
ثأيا أعمق أعماق قلبها . لقد كانت ذات علاقة مؤلفة حافية بالماركيز
« ديجاندينيس » والده « الفريد » بحيث خوات هذه الصداقة المحرمة
في عيون الناس للرجل الشاب حسافة التردد تردداً أليفاً على بيت السيدة
« دى » مانت هيرين . التي أظهر لها عاطفة ظال يضمرها في قلبه
منذ طفولته .

وعلاوة على ذلك كان من الغيب أن تعلم السيدة « ديجليسون » على
إلقاء بعض العبارات الخفية بين ابنتها و « الفريد » ديجاندينيس ، كي تفصل
بينهما . إذ كانت واثقة بأنها لن تنجح في ذلك بالرغم من قوة هذه العبارة
التي كان يحتمل أن نصمها في عيني ابنتها . فقد كان « الفريد » فاسداً
إلى حد بعيد . وكانت « مويثا » تتمتع بفكر أكثر من أن يصدق كل
ما يروح لها به . بل كانت الكونية الشابة سرور وتماهر منها بأن
تعاملها على أساس أنها تتبع حيل الأمومة . وكانت السيدة « ديجليسون »
قد بنت زواجها عليها ، وأحاطت نفسها فيها بخدعان حتى تموت عنها
وهي ترى حياة « مويثا » الجميلة تضيق . تلك الحياة التي صارت كل
مجدها وسعادتها وعزائها . بل صارت وجوداً أعز ألف مرة عليها من
وجودها آلام بشعة لا تصدق وخالية من التعبير ! ... هوات بلا فاع !
وجعلت تنظر بغرور الصبر لموضع ابنتها ، وبالرغم من ذلك كانت
تحشاه . مثل الشيء المشكوك عليه بالإعدام الذي يود لو ينهي حياته .

والذي يملؤه البرد بالرحم من ذلك حين يفكر في الحلال . وقد عرفت الماركةيزة على أن تحاول محاولة أخيرة . ولكنها كانت تخشى الإنخلاق في محاولتها أقل من تخشيتها أن تخلص كبرياءها خدشاً أليماً على قلبها حتى استغفلت كل شجاعتها . ووصلت حينئذ كأم إلى هذا الحد : أن تحب ابنها وتغشاه فتسلك بخنجر وتذهب لاستقبالها .

وعاطفة الأمومة عادة كبيرة في القلوب المحبة حتى إنه على الأم . قبل أن تبلغ حداً عدم المبالاة . أن تموت أو أن تستند إلى قوة ضخمة . . الدين أو الحب . ومنه استيقظت الماركةيزة من النوم أخذت ذاكرتها المحشوة تتبع آثار كثير من هذه الوقائع الصغيرة من حيث المظهر . ولكنها أحداث كبيرة الشأن في الحياة الأخلاقية . فالواقع أن حركة بسيطة تسبب أحياناً مأساة مروعة . كما تؤدي طيحة الكلام إلى تمزيق حياة بأكملها . وتقتل نظرة لا مبالاة أوفى الشاعر . وكانت الماركةيزة ديجليسون قد شهدت لسوء الحظ الكثير جداً من هذه الحركات . واستسعت إلى الكثير جداً من هذه الأقوال . وتلفت الكثير جداً من النظرات المفزعة للروح . حتى أمكن أن تنبأ ذكرياتها بعض العثم . فقد كان كل شيء . يثبت لها أن (القريد) قد قضى عليها في قلب ابنها بحيث ضايت . وهي الأم . أقرب إلى الواجب المفروض منها إلى المنفعة والمروءة .

وكانت آلاف الأشياء . وأشياء لا قيمة لها . تثبت لها سلوك الكونتيسة

المكررة حيالها ووقفها المشين في إنكارها للجميل الذي يحصل أن تكون الماركةيزة قد اعتبرت هذا الجميل نفسه عقوبة سائلة . وكانت تبحث لابنها عن أعذار في مقاصد العناية الإلهية حتى تستطيع أن تنهض قليلاً في عبادة اليد التي ضربتها . وتذكرت في ذلك الصباح كل شيء . وكان كل شيء يضربها من جديد بقوة في صميم قروح شرايبها المليء بالمسوم والأحزان . حتى أوصلت أن يقطع إذا ألقيت فيه أصغر الآلام وأخفها . وكانت تكفي نظرة برود واحدة لقتل الماركةيزة .

ومن الصعب تناول هذه الوقائع البقية بالوصف ولكن بعضها قد يكفي لبيانها كلها . وحتى وقد نال الصمم قليلاً من أذن الماركةيزة . لم تستطع قط أن تقع ابنها بأن ترفع صوتها قليلاً من أجلها . واليوم الذي توسلت إلى ابنها فيه بسداجة الإنسان المريض أن تذكر عبارة لم تنبئها بوضوح أظاعتها الكونتيسة إلى ذلك . ولكن في حالة من الإزعاج والغضب لم تسبح السيدة ديجليسون أن تعيد من جديد طلبها المتواضع .

ومنذ ذلك اليوم اعتادت الماركةيزة أن تنهم بالاقتراب من « عويضا » كلما روت حادثة أو تكلمت . ولكن غالباً ما بدت الماركةيزة ملولاً من العادة التي كانت تؤخذ أفعالها عليها . ولم يكن هذا المثل من بين ألف أخرى بصيب سوى قلب الأم . وكان يمكن أن يسهو الملاحظ عن كل هذه الأشياء . لأنها كانت كلها من الدقائق الصغيرة التي

لا تحسبها عبود أخرى غير عبود امرأة . كذلك كانت السيدة « ديجليسون »
 قد قالت لابنتها يوماً إن الأمانة « دى » كاديتيان « قد جاءت لتزورها .
 فما كان من هذه إلا أن صاحت ببساطة : « كيف هذا ؟ إنها جاءت
 لزيارتك ! » وقيلت هذه العبارات بلهجة وضعت فيها الكونتيسة اختقاراً
 وشيقاً ظلمه ببعض صبغات الدهشة . وتجدد فيه القلوب الشابة الرقيقة
 عادة بعض حب الناس الذي يتمثل في تعود بعض الشعوب البدائية
 قتل شيوخهم عندما لا يعودون قادرين على الإمساك بفرع شجرة يهتز
 هزاً قوياً . وطمشت السيدة « ديجليسون » وابتمت وراحت تبكي خفية .
 ولا يظهر الناس من أصحاب التربية الصالحة - والنساء من بينهم خاصة -
 مشاعرهم إلا في لمسات دقيقة لا تروى . ولكنها تكون صالحة للكشف
 عن ذبذبات قلوبهم بالنسبة إلى أولئك الذين تتوافر لهم في حياتهم مواقف
 مماثلة لموقف هذه الأم المشحة بالحراج . وعمرت السيدة « ديجليسون »
 وقد أثقلتها الذكريات على واحدة من هذه الوقائع المحيرة اللادعة القاسية
 التي لم تفهم منها إلا آتئذ فقط ما كانت تحقيه وراء الانياسات من
 الاحتقار الشرس . ولكن دموعها جفت عندما سمعت خصاص (شيش)
 الدافئة يفتح في غرفة زفاف ابنتها ، وحدت متجهة إلى النوافذ من الطريق الضيق
 الممتد بخلاء السور الذي كانت تجالسه أمانة منذ قليل . وكانت تلاحظ
 - وهي ماضية في طريقها - مدى رعاية البستاني الحاحية التي بدلت في جوف
 التراب من هذا الممشى . وقد كان مهملًا قبل ذلك بوقت قليل .

وعندما بلغت السيدة « ديجليسون » تحت نوافذ ابنتها أقفل الخصاص
 (الشيش) فجاءه . هتفت : « عوبنا »
 ولم تعلق إجابة .

قالت خادمة « عوبنا » ردًا على سؤال المارة كدرة بعد عودتها إلى منزل
 البيت عما إذا كانت ابنتها قد استيقظت : « السيدة الكونتيسة في الصالون
 الصغير » .

وكان قلب السيدة « ديجليسون » مليئاً إلى بعد الفجر . كما كان
 رأسها مشغولاً بشدة زائدة كي يحصل بها التفكير في تلك اللحظة إلى
 ظروف على قدر كبير من الحقة . وعبرت مسرعة إلى الصالون الصغير
 حيث وجدت الكونتيسة في قميص الحمام وقد ألقت فوق شعر رأسها
 الأستحاط طائفة ياهمال ، وكانت قدمها في (شيش) ووضعت
 مفتاح غرفها في حزامها ، وعلى وجهها طابع الأفكار التي بلغت حد
 الروبعة . كما كانت ألوان وجهها شديدة . وجلست فوق أريكة وبدت
 كمن غرق في التفكير .

قالت بصوت قاس : لماذا أغضبني ؟ إروا صلت كلامها في حال مشتت
 بعد أن قاطعت نفسها : آه ! إنك أنت يا أماد !

— نعم يا طغلي إنا أمك ...

ونطقت السيدة « ديجليسون » بأقوالها في هجة هذيت انسكاب القلب
 وعاطفة الخوف التي يضعف إعطاء فكرة عنها دون استخدام لفظة القدامة .

لقد لست في الواقع الطابع المميز المقدس للآم التي انتشدهت ابتها منه
واستدلوت نحوها في حركة عبرت عن الاحترام والقلق وتأنيب النفس منعا .
وأقفلت الماركة بباب (الصالون) بحيث لا يستطيع أحد الدخول دون
أن يحدث حلبة في العرف السابقة عليه . وكان هذا الابتعاد ضمناً
للسرية .

قالت الماركة : يا ابني من واجبي أن أتبرك فيما يتعلق بإحدى
الأممات التي كانت أكثر أهمية في حياتنا النسائية . والتي قد
توجد بين فيها الآن على غير علم منك . ولكنني تحدثت عنها عند
قليل إليك كأم لا كصديقة . لست مسئولة عن هذه الأفعال إلا أمام
زوجك ، ولكنني جعلتك تشعرين نادراً بسلطة الأمومة - ولعل ذلك
كان خطأ - حتى صيرت أعتقد أنه يجب لي أن أصغى لك ولو مرة واحدة
على الأقل في الموقف الخطير الذي تحتاجين فيه إلى نصائح . فكري
يا موبنا ، أنتي زوجتك من رجل ذي قدرات عالية تستطيعين أن
تكوني فخورة به وأن ...

صاحت موبنا في تعبير العضيان وهي تقاطعها : أمي ... إنني
أعرف ما تريد من أن تقوليه . سوف تحاولين أن تعطيني بشأن « القرية »
وأصلي الماركة في تفهم . وهي تحاول حيس دموعها :
« إنك لا تجدين التخمين . إذا لم تكوني قد أحسست ... »
قالت بتعبير يكاد يكون مرفوعاً : وماذا ؟ ولكن يا أمي في الحقيقة ...

صاحت السيدة « ديجليسون » وهي تقوم بمجهود عظيم : « موبنا »
لا بد أن تسمعي ما ينبغي علي أن أقوله لك .
قالت الكونتيسة وهي تشبك ذراعها . وتتصنع الإذعان الوقح :
« إنني مصغية » .

وقالت بدم بارد لا يمكن تصوره : اسمعي لي يا أماء أن أدق
بحرس « بولين » كني أصرفها ...
ودقت الحرس .

— يا صفتي العزيزة لا تستطيع « بولين » أن تسمع ...
وأصلي الكونتيسة في تعبير جاد بدا شاذاً في نظر الأم : « يا أماء »
لا بد لي ... « وتوقفت . وكانت الخادمة قد وصلت فقالت لـ « بولين »
أذهبي بنفسك عند « بودران » لتعرفي سبب عدم وصول قبعتي إلى حني
الآن .

وعادت تجلس فاطرة إلى أمها بانتباه . وكان قلب الماركة قد
تورم كما قال عينها الخفاف . وأحسست حينذاك بأحد الانفعالات
التي لا تفهم سوى الأمهات آلامها . وأخذت الكلمة كني تشفق ابتها
بشأن الخطر الذي عانت فيه . ولكن لما أن الكونتيسة وجدت نفسها
قد جرحها بداعي الشكوك التي نشأت عند والدتها عن نجل الماركة
« ديفاندتيس » أو أنها صارت فريسة لإحدى ذريات الجنون غير
المفهومة التي يكمن سرها في عدم الخبرة ونقص التجربة لدى كل

الشباب . فانهزت فرصة فترة السكون التي اتاحتها أمها كي تقول لها
وهي تصحك ضحكاً مفتعلاً : « ماما . لم أكن أعتقد أنك تغيرين
إلا فيما يتعلق بالأب ... »

وأفقلت السيدة « ديجليسون » عينيها عند سماع هذه الكلمات .
وخفضت رأسها . وأصدرت أنهدماً رقيقاً للغاية . وألقت ببصرها في الهواء
كأنها تود أن تطيع عاصفة لا تظهر تدفعنا إلى الاستغالة بالله في أزمات
الحياة الكبرى . ثم وجهت نحو ابنتها عينيها مليئتين بحلالة مرعبة ،
ومطبوختين بطابع الألم العميق . وقالت بصوت مضطرب في تنهميم :
يا ابنتي لقد كنت قاسية على أمك أكثر مما كانت قسوة الرجل الذي
أذبت في حقه . ومن المحتمل أكثر من الله ...

ونفست السيدة « ديجليسون » ولكن لم تكلم تصل إلى الباب حتى
استدارت ، ولم تشهد سوى الاستغراب في عيني ابنتها . وخرجت ، وأمكنها
أن تبلغ الحديقة حيث غارت قواها . وهناك استشعرت في قلبها آلاماً
قوية وسقطت فارق مقعد .

واستطاعت أن تلمح هناك بعينيها ابنتين في التراب آثار خطوات
قدم حديثة جداً ترك حذائهن علامات يمكن معرفتها معرفة أكيدة .
لقد كانت ابنتها ضائعة بلا أدنى شك . واعتقدت أنها فهمت الدافع
إلى توكليل « بولين » بتهمة على هذا النحو .

ومحب هذه الفكرة القاسية إقضاء مر أشد كراهية وبغضاً من كل ما عداه

لقد اعتقدت أن ابن الماركيز « ديفالديتيس » قد حطم في قلب « مونيكا »
الاحترام الواجب من الابنة نحو أمها . وازداد عليها الألم ، وغابت
عن وعيها بلا حس . وبقيت كما لو كانت نائمة .

ووجدت الكونتيسة أن والدتها قد سمحت لنفسها بأن توجه إليها
كلاماً لا ذعاً جافاً إلى حد ما وظنت أنها تستطيع في الليل - بإحدى الملابس
أوبتر بيته وبعض الاهتمامات - أن تعيد وصلاً أنصرقياً بينهما . ولم تكلم
تسمع صبيحة في الحديقة حتى مالت بغیر اهتمام كبير ، في نفس اللحظة
التي نادى فيها « بولين » ولم تكن قد خرجت بعد ، فداء الاستنجااد .
وأمسكت بالماركيزة بين ذراعيها .

كانت آخر كلمة نطقت بها هذه الأم : لا تنهري فرح ابنتي .

وشهدت « مونيكا » تقل أمها شاحبة بغير حياة . وهي تنفخ
بصعوبة مع تحريك ذراعيها كما لو كانت تريد أن تقاوم أو أن تنكلم .
وتبع « مونيكا » والدتها وقد صرعتها هذا المشهد وأعانت في صمت على
رقادها في سريرها . وعلى خلع ملابسها ، وثقلت عليها غلظتها .

وفي هذه اللحظة المتناهية عرفت أمها . ولم تعد قادرة على أن تصلح
أى شيء . وأرادت أن تكون معها على انفراد . وعندما لم يعد أحد
معهما في الغرفة . وأحست ببرودة هذه اليد التي كانت دائماً تربت عليها
وتلاطفها انهمرت دموعها .

وأفاق الماركيزة على هذا التحيب فكان لا يزال في مقبورها أن

تنظر إلى محبوبتها « موبنا » . ثم تحت تأثير صوت ابنتها الذي كان على وشك أن يعزق صدرها الرقيق غير المنظم ، جعلت تتأمل ابنتها وهي تبسم . وأثبت هذا الابتسام لقائلة أمها الصغيرة أن قلب الأم هوة يوجد العنق في قاعها دائماً .

وبمجرد التعرف على حالة الماركيزة أرسل خدام فوق السجادة ليأتوا بطبيب وبنجران وبأحفاد السيدة « ديجليمون » . وقد وصلت الماركيزة الصغيرة وأولادها في نفس الوقت الذي وصل فيه رجال الحرف وكونوا جمعية رهيبة صامتة قلقة اختلط بها الخدم .

وساعات الماركيزة الصغيرة التي لم تسمع أية ضوضاء تدق بركة على باب الغرفة ، وعند سماع هذا الصوت استيقظت « موبنا » بلا شك من ألمها ، ودفعت فجأة مصراع الباب ، وألقت بنظرات شاردة نحو هذه الجمعية الأسرية ، وبدأت في حالة من سوء النظام ، مما كان ذا تعبير أرفع من تعبيرات اللغة . وظل الكل صامناً لزاء مشهد تأنيب الضمير الحى على هذا النحو ، وكان من السهل أن ترى أقدام الماركيزة الصلبة الممددة في تقلص فوق سرير الموت . واعتمدت « موبنا » فوق الباب ، ونظرت إلى أقاربها وقالت في صوت أحوف :

« لقد فقدت أمي ! »

باريس ١٨٢٨-١٨٤٤

المحتويات

صفحة	
٥	مقدمة الروائي العظيم
١٥	١ - الأخطاء الأولى
١٢٥	٢ - آلام مجهولة
١٥٧	٣ - في سن الثلاثين
١٩٣	٤ - أصبح الرب
٢١٥	٥ - اللقاءان
٢٩٦	٦ - شبح خوخة أم مديونة

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ١٩٧٠/٥٥٠٩

مطابع دار المعارف بمصر

سنة ١٩٧٠

امراة في الثلاثين

ولد بلزك في ٢٠ مايو سنة ١٧٩٩ بمدينة (تور)
 بفرنسا ، وتوفي في ١٨ أغسطس سنة ١٨٥٠ . وعاشت معه بين
 هذين التاريخين أحداث التحول الفكري ، والسياسي ،
 والاجتماعي ، والأدبي ، والفني ، في فرنسا وفي العالم أجمع .
 وكان بلزك كاتباً عصبياً أغنى الأدب الروائي الفرنسي
 بعدد من الأعمال الخالدة ، مثل : « حيله الأحرار » ،
 و « الأب جورويو » ، و « أوجيني جرانتيه » ، و « المجزلة
 الإنسانية » ، و « طيب الأرياف » ، و « الكوهم المنقشة » .
 ولم يكن بلزك هو واضع نظرية الأدب الواقعي ، ولكنه كان
 المخلص بها الذي حدث معمله أكثر وأكثر ، كلما تقدم في
 كتاباته ، وصلى بذلك شيئاً فشيئاً عن الرومانتيكية .

وكان بلزك أميل إلى الواقعية في هذه الرواية التي صدر
 فيها « امراة في الثلاثين » ، وإن ظل الإطار مصبوغاً بروح
 الرومانتيكية . وهي رواية استلهمها من شخصية امرأة
 حقيقية في الثلاثين من عمرها اعتادت أن ترسله تقديراً
 واحتراماً لغته وأدبه . وبين بين الأحداث رواية في لوحاتها
 ما يكشف عن أن الكثير من وفادتها حقيق . وقد أوحى إليه
 هذه السيدة بموقف الجدل والصراخ في حياة السيدة
 « ديجريون » التي تصورها روايته ، فقد تزوجت هذه السيدة
 عن ضابط كبير ، رغم تعذير والدها لها ، وعاشت بعد ذلك
 عذراً من المأساة ، وعاشت في حياتها وحيدة بناتها من بعدها
 ما يرويه بلزك هنا بقلبه المرحف الحساس ، ووجدانه الرقيق ،
 وقلمه القنآن المبدع .

